سقوط إسرائيل

باري شميش

ترجمة : عمار جولاق / محمد العابد ◆ مراجعة : علي رمان

الأهلية

باري شميش

سقوط إسرائيل

ترجمة : عمّار جولاق

محمّد العابد

مراجعة : علي رمّان

الأهلية للنشر والتوزيع

الأهلية للنشر والتوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس ؛ ص . ب ٧٧٧٢
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ - فاكس ٤٦٥٧٤٤٥

منشورات الأهلية لعام ١٩٩٨
باري شيميش / سقوط اسرائيل
الطبعة العربية الثانية
حقوق النشر محفوظة للناشر ©

تصميم الغلاف ®
التنضيد : مؤسسة ياقوت للخدمات المطبعية

طبع في لبنان
على مطابع شركة الطبع والنشر اللبنانية

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه أو نقله بأي شكل من الأشكال ، أو تصويره ، دون إذن خطي مسبق من الناشر .

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, without the prior permission of the publisher.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الترجمة

كتاب سقوط إسرائيل وثيقة يعرضها «شاهد من أهلها» يفخر بكونه يهوديا إسرائيليا، خاطر بحياته في المعارك كجندي مخلص، ويقول بأنه لا يرغب في سقوط إسرائيل وإن ما يفعله هو توجيه «نداء مخلص» لاحداث التغيير المطلوب قبل أن يصبح عنوان الكتاب حقيقة واقعة.

يحاول مؤلف الكتاب إقناع قرّائه بأن الإسرائيليين كشعب محترمون وطيبون وأن اللوم كله يقع على رجال السياسة الذين يصفهم بأنهم أوغاد فاسدون أوقعوا «شعب!» إسرائيل ضحية ديمقراطية زائفة مريضة وبيروقراطية مستشرية، ويسوق لذلك شواهد وحقائق كثيرة.

يعتبر الكتاب إدانة ليست للقيادة فحسب كما يحاول المؤلف وإنما لشعب جلّه بل كله من شذاذ الآفاق الذين لا يرون في الوطن المزعوم سوى بورصة أو سوق إستثمارية.. احتكارية..

يقول المؤلف إن الخطر الجدّي المحدق بإسرائيل لا يأتي من جيرانها العرب وإنما من الفساد الداخلي الذي تعيشه.. ولك أن تتصور دولة بهذا الحجم تتراكم ديونها الخارجية والداخلية حتى تصل ٦٦ بليون دولار.. وبهذا يصل معدل الدين المترتب على كل إسرائيلي إلى أعلى معدل في العالم كله.

ويبدو الوضع مزعجا للكاتب بشكل كبير حين يقول بأن ٤٠٠,٠٠٠ إسرائيلي غادروا إسرائيل في الأعوام الخمسة عشر الأخيرة، وهو رقم يعادل ١٠٪ من عدد السكان، هذا بالإضافة إلى أن ثلثي المهاجرين اليهود من «الإتحاد السوفييتي سابقا»

والمقرر أن يعوضوا هذا النقص ـ قد غيروا خط هجرتهم ولم يصلوا . .

تشير صحيفة "The Jewish Chronicle" إلى الكتاب فتقول : «يعيش معظم الإسرائيليين حياتهم [البائسة] وهم يشعرون بالإمتنان للسياسيين الذين يحكمونهم . . إن حكاية كون إسرائيل هي الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط . . مهزلة . ولأول مرة يظهر كتاب يخاطب غير المتحدثين بالعبرية ليفضح الفساد المالي والسياسي الذي تحياه الدولة اليهودية .

ومع اختلافنا مع دوافع المؤلف فإننا نتفق معه في أن إسرائيل ، الدولة اليهودية آيلة للسقوط ، ولكن إرهاصات سقوطها شيء آخر غير ما يعرضه المؤلف . .

ونرجوا أن نهدي هذه الترجمة إلى كل الذين يحاولون إقناعنا بأن وجود «إسرائيل» حقيقة واقعة وقدر غالب . . و . . إنهم بهذا يحاولون بعث الحياة في أشلاء عفنة . .

بقي أن نشير إلى أن الكتاب صدر في الربع الأخير من العام ١٩٩٢ لمؤلفه باري شيميش وهو من مواليد ١٩٥٢ ، وقد «هاجر» إلى الأرض المحتلة عام ١٩٧٥ ، حيث خدم في الجيش اليهودي وعايش أحداث غزو لبنان . وبهذا فإنه «شاهد من أهلها» .

علي رمان

٢٤ ـ ٢ ـ ١٩٩٣

مقدمة الكتاب

يبدو وضع إسرائيل للعيان وكأن أعداءها العرب قد دبروا مؤامرة محكمة لتحطيمها عن طريق زرع جواسيس في الفئات الحاكمة . إن إسرائيل في طريقها إلى الانهيار التام لأن الإسرائيليين المتربعين على عرش السلطة يجعلون حياة الآخرين مزرية إلى درجة لا تطاق . وكتاب (سقوط إسرائيل) يوثِّق حالة الفساد والجريمة المستشريتين في الدولة اليهودية من دون بارقة أمل في إحداث إصلاح ناشىء من العدم . إن مؤلف هذا الكتاب إسرائيلي وطني وجندي حرب متمرس ، والكتاب ليس مثالا آخر لضربة من سلسلة ضربات جاهلة فاشلة وجهها الأعداء إلى إسرائيل على فترة طويلة من الزمن ، وإنما نداء مخلصاً لإحداث التغيير المطلوب قبل أن يصبح عنوان الكتاب حقيقة واقعة .

سيميز القارىء أسماء مثل : شامير وشارون وبيريز ، ولكن سيتعرف على شخصيات وأحزاب سياسية وتنظيمات أقل شهرة وغير مألوفة لديه . وأفضل نصيحة يمكن للكاتب أن يقدِّمها هي النفاذ إلى أجواء الكتاب من دون تركيز الاهتمام على التفاصيل ، ويهدف الكتاب إلى رسم صورة عن الفساد الأخلاقي الخطير ، وسيكون من المناسب تماما أن يجد القارىء نفسه يستمتع بشعور ينم عن السخط والنقمة .

إن حياة الإسرائيليين وسط الانحلال الأخلاقي هي بالنسبة لهم حياة بعيدة جدا عن المتعة والراحة ، ويجب إبقاء ذلك في الذهن حتى وإن تعمد القارىء الشعور بالتسلية والبهجة ، إن معظم الإسرائيليين يعيشون حياة بائسة بفضل رجال السياسة الذين يحكمونهم ، ولا سيطرة لهم تقريبا على هؤلاء الذين يحكمونهم .

إن النظام الديمقراطي الوحيد في الشرق الأوسط ليس إلا مسرحية هزلية ، فالمواطنون

لا ينتخبـون المـرشحين للمكتب العـام (PUBLIC OFFICE) بل تجـري للجان المركزية في الأحزاب المختلفة انتخاباتها الداخلية الخاصة بها، والمرشح الذي يحصل على أكبر عدد من أصوات حزبه يصبح المرشح الأول على قائمة الحزب، ومن ثم يغدو مرشحا لمنصب رئيس الوزراء، أما المرشح الذي يجمع ثاني أكبر عدد من الأصوات فسيحصل على دعم داخلي كاف يمكنه من اختيار أي وزارة يريد إذا ما فاز حزبه في الانتخابات العامة، ويتبع نفس الأسلوب وصولاً إلى المناصب الدنيا، وقد استطاع إسحق رابين البالغ من العمر سبعين عاما انتزاع قيادة حزب العمل بهذه الطريقة عام ١٩٩٢ من شمعون بيريز البالغ من العمـر ثمـانية وستين عاما ولا يستطيع أي شخص أقل سنا منهما أن يشكل تحديا جديا لوجودهما الذي تطاول عليه الأمد.

إن أصحاب المناصب السياسية والاقتصاد بمركزيته المطبقة قد جعلا النظام الصحي الإسـرائيلي مقـطّع الأوصال، ومياهها موبوءة ومدارسها بالكاد تمارس وظائفها، وجيشها منْحَلّاً أخلاقيا، وسياستها الدبلوماسية زائفة وخادعة، والإسرائيليون إما عاطلون عن العمل أو أقل شأنا من أن يكونوا موظفين، أو تم إفقارهم وجعلهم معوزين في النهاية.

وعودة إلى عام ١٩٨٥ نرى أن التضخم المالي قد وصل إلى نسبة (٤٥٪) لذلك فقد حاكت الحكـومة مؤامرة بالتعاون مع نقابة العمال الوطنية(*) ومع أصحاب مؤسسات صناعية بهدف إنقاذ الاقتصاد من انهيار وشيك الوقوع. وتم آنذاك ربط مدخرات البلاد والرواتب بنفقة المعيشة، وتم حساب نفقة المعيشة بتسجيل التغييرات التي طرأت على مؤشر أسعار المستهلك. وضمت مجموعة المؤشرات هذه أسعار الغذاء والكتب والملابس، ولكن لم تكن لها علاقة بالرواتب أو بسعر رأس المال، وهكذا فلو زحف الجراد على أشجار القهوة في البرازيل ورفع سعرها لأثّر ذلك على قيمة رأس المال في إسرائيل، وكانت المدخرات في نفس الوقت مرتبطة بنفقة المعيشة مما يخفض من قيمتها بنسبة (٢٠٪) سنويا، ولم تعـدّل الـرواتب لتفي وتـوائم نفقـة المعيشـة. وقـدّر أحـد ألمـع الكتّـاب الاقتصـاديين الإسرائيليين، وهو باينرمان بأن القوة الشرائية قد هبطت بنسبة (٣٥٪) خلال فترة السنوات

(*) الهستدروت.

الست ومنذ أن رُبط الاقتصاد بنفقة المعيشة، وإحدى نتائج ذلك أن الإسرائيليين أنفسهم غارقون في الديون، ومعدّل الدين المترتب على الفرد الواحد يبلغ الآن خمسة عشر ألف دولار أمريكي، وهو أعلى بكثير من أي معدّل في العالم.

وإذا لم يتوفر المال الكافي لتغطية نفقات المعيشة الضرورية، فسيصبح الإسرائيليون مثقلين بديون مستحقـة للبنـوك الإسـرائيلية. وسيبين الكتاب بتفصيل مسهب أن البنوك الإسرائيلية تتبع أساليب ملتوية إلى درجة لا تصدق، وهو انعكاس لتفكير الحكومة مالكة تلك البنوك، والتي استولت على (٩٠٪) من الصناعة المصرفية الإسرائيلية بعد أن خدعت تلك البنـوك الشعب عام ١٩٨٣ ونهبت ثلث مدخراتـه. وتصل الفجوة ما بين التسليف الحقيقي وإقراض الأموال إلى نسبة (٣٠٪) وهي نسبة مذهلة، وبما أن العامّة مجبرون على الاقتـراض بسبب تدني القـدرة الشـرائية، فإنهم لا يستـطيعون حتى الوصول إلى وضع يمكنهم من مواكبة معدلات وفاء الدين إلى المرابين، ويوجد حالياً لدى الشرطة الإسرائيلية مليون وثمانمائة ألف ملف خاص بمواطنين مدينين. وطبقا لما صرَّح به رئيس شرطة إسرائيل يعقوب تيرنر فإنه توجد خمسمائة وستون ألف مذكرة حول ديون معدومة، ويحدث هذا كله في تجمـع سكـاني يقـل تعـداده عن خمسـة ملايين نسمة، ولأن الحكومة تسيطر على المحاكم والشرطة، فإن هؤلاء المدينين يتعرضون إلى ملاحقة مستمرة، وتشعر أسرة واحدة من بين ثلاث أسر إسرائيلية بخوف شديد لا يحتمل من أن تسترد ممتلكاتها ثم تسجن.

لنقم بإجراء تشبيه جزئي مع نظامين ديمقراطيين آخرين بغية فهم تركيبة الفساد هذه، فنـطلب من الأمريكيين مثلا تصور انتهاء نظام انتخاب الرئيس وأعضاء البرلمان وأعضاء مجلس الشيوخ، وبـدلا من ذلـك، وعنـد انعقاد المؤتمر القادم للحزب الديمقراطي أو الحزب الجمهوري، يقوم النواب أنفسهم بانتخاب المرشحين، وسيكون مرشح الرئاسة هو الرجل الذي يحصل على أكبر عدد من أصوات النواب، وسيتم تحديد جميع المناصب الأخرى طبقاً لزيادة أو نقصان دعم النواب، وسيقدم رجل السياسة الوعود بغية الفوز بدعم النواب (ولتكن مثلا وعودا بتأمين وظائف حكومية، وإعفاءات من ضرائب مفروضة أو دفع أموال نقدية مباشرة)، إضافة إلى ذلك وبغض النظر عن مدى ظهور المحسوبية، لا يمكن إزاحة ذلك السياسي عن منصبه كونه لا يمثل الدولة ولا أية مقاطعة.

ولنطلب من البريطانيين تخيل انتهاء العمل بنظام الدوائر الانتخابية السياسية . . سيحرم المواطنون من انتخاب عضو برلماني يمثلهم شخصيا، ولا يمكن إزاحة أعضاء البرلمان من مناصبهم إلا عن طريق أحزابهم التي يكون معظم أعضائها غارقين إلى آذانهم بألوان الفنون الراقية من الرشوة والخداع، والكسب غير المشروع، واختلاس الأموال والابتزاز.

أما النظام الانتخابي الإسرائيلي، فيضمن بقاء السياسيين في السلطة بشكل دائم في معظم الأحيان بغض النظر عن الفضيحة ودرجتها، ولا يستطيع أي حزب تشكيل حكومة بمفرده بسبب وجود ثمانية عشر حزبا يتقاسمون مائة وعشرين مقعدا في الكنيست، فيقوم أكبر حزب بدعوة الأحزاب الصغيرة ذات المصالح الضيقة إلى تشكيل ائتلاف معه، وإذا ما انسحب حزب أو حزبان من تلك الأحزاب غير الهامة من الائتلاف، فستسقط الحكومة، وإذن لا يهم مقدار الأموال التي يسرقها السياسيون من الشعب ما داموا سيبقون في مناصبهم مقابل عدم قيامهم بإسقاط هذا الائتلاف أو ذاك.

يبدأ الكتاب بإيراد مثال عن وزير الداخلية الإسرائيلي أرييه درعي، ففي الوقت الذي أُلف فيه هذا الكتاب، كان هناك تحقيق يجري معه حول اختلاس مبلغ خمسين مليون دولار أمريكي على الأقل من الأموال العامَّة خلال ما يزيد على عام ونصف، ومع ذلك، وبالرغم من تحقيق الشرطة معه ورائحة جريمة الكسب غير المشروع التي زكمت الأنوف، فإنه ما يزال يتبوأ منصبه في أعلى هيئة تشريعية في الدولة، ألا وهي مجلس الوزراء، وهو ليس اللص الوحيد المشتبه به في تلك الهيئة الجليلة، إذ سيقدِّم هذا الكتاب أدلة دامغة على جرائم ارتكبتها شريحة عريضة من مسؤولين سياسيين رفيعي المستوى، من بينهم: شارون وأولمرت وبيريز وبيلن إضافة إلى شاكي، وهؤلاء السياسيون الذين لم يوجد ما يسوغ إثارة الشكوك حولهم، ستراهم هنا غير مؤهلين، ومنهم شامير وليفي ورابين وبيريز، إن ثنائية الفساد والبلاهة تسير نحو الهاوية.

وحسب ما صرح به باينرمان فإن «الدولة طرحت هذه الخطوة الزائفة على الجمهور من أجل الحد من التضخم المالي كما هو مفترض ولكن الهدف الحقيقي هو خفض الأجور

وكسب المال عن طريق جمع الديون، إنهم يريدون إفقار الدولة برمّتها في سبيل إثراء أنفسهم، وإسرائيل ليست بلدا ديمقراطيا وإنما دولة مناهضة للديمقراطية، وتحقق الدولة أرباحاً كبيرة بينما يتحول المواطنون إلى أناس عالة يعيشون على المعونات».

وتظهر في كل مكان إشارات على وجود شعب يائس، فيوجد في إسرائيل حاليا أربعون ألف مدمن مخدرات، ولاقت ثلاث وعشرون امرأة حتفهن على أيدي أزواجهن خلال النصف الأول من عام ١٩٩١، بينما كان وقوع خمسين جريمة قتل سنويا يعتبر قبل عقد من السنين أمرا خطيرا، لقد أصبح الإسرائيليون محتالين، إذ ليس أمامهم خيار آخر إذا أرادوا الاستمرار في العيش. إنهم يمارسون الاحتيال عن طريق الاتِّجار غير المشروع بالعملة، وبفرض الضرائب المحتسبة [الضريبة المحتسبة: هي ضريبة على دخل الموظفين أو المساهمين تقتطعها المؤسسة من رواتبهم أو أرباحهم وتدفعها إلى الدولة مباشرة ـ المترجم] وعن طريق ـ وهو أعظم ما يبعث على الحزن العميق ـ إعادة أقل ما بقي للمواطنين عند الدولة من قيمة القطع النقدية الكبيرة التي يستعملونها عند البيع أو الشراء. والمعتمدية [كون المرء جدير بالثقة والاعتماد ـ المترجم] ليست فضيلة، بل إمارة ضعف في مجتمع إسرائيلي متفسخ بسبب نقص فاجع في التوجه الأخلاقي السوي عند قادته.

يوثّق الكتاب انحطاط إسرائيل ولكنه لا يضع اللوم على شعب إسرائيل، وستجد في هذا الكتاب أن رجال السياسة هم الأوغاد، بينما صُور المواطنون الإسرائيليون بطريقة صحيحة على أنهم محترمون وحريصون ومسؤولون، وتم استغلالهم بإسلوب إجرامي، وإذا ظن أي قارىء أن هذا الكتاب مجرد هجوم على إسرائيل، فإني أطلب منه حالا أن ينأى بنفسه عن هذا الفهم، ذلك أن الكتاب هو وسيلة دفاع عن شعب إسرائيلي أخلاقي محصَّن أصبح ضحية صورة زائفة أوجدتها حكومته، وضحيةالبيروقراطية.

وليس من الخطأ أن يزيح المرء الستار عن حقيقة ما، فإسرائيل دولة بوليسية لأن جهاز الشرطة هو الذي يشرف على تنفيذ قرارات الدولة ويبث الرعب في أنحاء البلاد.

لماذا إذن لا يثور الإسرائيليون على حياة كهذه لا تطاق؟! في الحقيقة أنهم يثورون

عليها بمغادرة إسرائيل. في عام ١٩٨٥ كتب المُصلح الاقتصادي القدير الدكتور عيزرا سوهار ما يلي: «منذ عام ١٩٤٩ إلى وقتنا الحاضر، غادر ما يزيد على أربعمائة ألف إسرائيلي دولة إسرائيل بصورة نهائية، وهو عدد يشكل نسبة (١٠٪) من عدد السكان اليهود ويضع سوهار اللوم إزاء رحيلهم على ما أسماه «بالنظام الاجتماعي ـ الاقتصادي الإسرائيلي»، وهو نظام سيطرة حكومية تامة على الاقتصاد يتولد عنها حالة من عدم الكفاءة، والضياع والخراب، ومحاباة الأقارب، والفساد».

إن الأرقام التي أوردها سوهار أرقام معتدلة حذرة، إذ أشارت مصادر عديدة أخرى من بينها أرقام نشرتها دائرة جوازات السفر، إلى أنّ أربعمائة ألف إسرائيلي يعيشون في أمريكا وحدها فقط، وقُدّر أن مائة وخمسين ألف طفل ممن كانوا سيصبحون إسرائيليين هم الآن أطفال أمريكيون.

توجد في أنحاء العالم وفي أماكن بعيدة مثل مدينة تورنتو وجوهانسبيرغ ولندن وملبورن جاليات إسرائيلية مغتربة عن وطنها، ويصل العدد الإجمالي للإسرائيليين الذين غادروا إسرائيل نهائيا حوالي سبعمائة ألف شخص، أي ما نسبته (١٨٪) من تعداد يهود إسرائيل، ولا يشهد أي بلد في العالم، حتى ولا تركيا ولا هاييتي، مثل هذا السيل الجارف من الناس المتخلين عن أرضهم [وطبعا، هذه مزاعم يرددها الكاتب مثل غيره من اليهود الذين يزعمون أن لهم حقا تاريخيا في أرض فلسطين العربية ـ المترجم]، وسيكون العدد أكبر من ذلك بكثير لو لم تكن هناك روابط مع الأسرة والأصدقاء واللغة العبرية، إن الإسرائيليين يحبون وطنهم! ولكنهم يكرهون بشدة ما يحصل ويدور فيه إلى درجة أن خُمس سكان إسرائيل تقريبا قد غادروها إلى غير رجعة، وهم ليسوا وحيدين في ذلك، إذ بعد أن نفّذت إسرائيل عملية الهجرة الجماعية لليهود السوفييت بطريقة خرقاء وغير حكيمة ما بين عام ١٩٨٩ وعام ١٩٩١، بدأ هؤلاء المهاجرون يبحثون عن طريقة يغادرون فيها البلاد، وبحلول صيف عام ١٩٩١ كان خمسة آلاف مهاجر يهودي قد قدموا طلبات للحصول على جوازات سفر، وشيئا فشيئا أصبحت إسرائيل عبارة عن محطة متوسطة مؤقتة للسوفييت وليست وطنا دائما لهم.

إن الحياة في إسرائيل تعني التعرض لمضايقات مستمرة تقوم بها سلطات لا حصر لها،

وتعني التوتر والظلم، لذلك يتوجه عشرون ألف إسرائيلي سنويا إلى دول أجنبية أخرى بغية الاستقرار فيها. وطبقا لما ذكره أحد أفراد مجموعات كلاب الحراسة [يقصد الكاتب أحد فروع الاستخبارات ـ المترجم] سيهاجر خريج واحد من بين ثلاثة خريجيين من معاهد التعليم العالي، ويبدو أنه من غير المحتمل حدوث تغيير وإصلاح للوضع، فيدفع اليأس بالناس إلى ترك الوطن بأعداد كبيرة، وإذا لم تؤد الأسس المتقوضة والحكومة المهترئة إلى سقوط إسرائيل فإن رحيل سكانها كفيل بذلك.

وسيطرح القارىء السؤال التالي: لماذا لم أسمع بكل هذا من قبل؟! لن تمتلك الدهشة القارىء إن كان يقرأ العبرية، فالصحافة الإسرائيلية متخمة بقصص الفساد والمرض الاجتماعي، لكن القارىء الذي لم يحاول أبدا التمعن في صحيفة عبرية هو قارىء يعتمد على مراسلين أجانب لينقلوا له ما يدور في إسرائيل، وهم ينقلون ذلك بصورة سيئة ومغلوطة جدا جدا. إن مؤسسات النشر الرئيسية لا تعين رؤساء إسرائيليين لمكاتبها هناك، بل تقوم بدلا من ذلك بإيفاد موظفيها من جنسيات أخرى إلى إسرائيل في مهمات محددة مدتها سنتين أو ثلاث سنوات، وهؤلاء الصحفيون لا يتكلمون العبرية بتاتا، وإنما يعتمدون على صلاتهم بأسلافهم الذين أنهوا مهماتهم، فيأخذون عنهم بعض المعلومات، ويستمرون يتخبطون في عملهم مع بقائهم مشوشي الأفكار في حين أنهم يتظاهرون بامتلاكهم خبرة ودراية بقضايا إسرائيل، وهم يركِّزون بصورة أساسية على القضية الفلسطينية، ويفوتهم التنوية بالكارثة الحقيقية التي تحقيق بهم.

سيعمل كتاب (سقوط إسرائيل) على تقويم القصور الكبير الحاصل في نقل الصحافة الأجنبية للقضايا الإسرائيلية عبر تقارير من الداخل، وسيكشف أيضا كيف أن المساعدات الخارجية والهبات الخيرية تعمل على دعم نظام سياسي غارق في الفساد، وتعمل على تحويل الإسرائيليين المعتدّين بأنفسهم إلى مجرد متسولين. ويأمل الكاتب أن يتم وقف دفع هذه الأموال وما شاكلها إلى حين إعطاء ضمانات بأن إسرائيل تسير في طريق إجراء إصلاحات كاملة.

إن أسلوب الكاتب غير لائق أحيانا، غير أنه يجب على القارىء ألا يخلط بين ذلك

وبين بذاءة اللسان، فالأساس اللاأخلاقي الذي تقوم عليه السلطة الإسرائيلية يقود إلى زوال دولة هي وطن زوجة الكاتب وابنه، وكثير من أفراد أسرته، ومعظم أصدقائه، ولا شك مطلقا في أن انحطاط إسرائيل تدريجيا يملأ قلب مؤلف هذا الكتاب حزنا ولوعة.

الجزء الأول

الديمقراطية المريضة

الفصل الأول

منتجات درعي

أرييه درعي هو سياسي لا يكاد يُعرف خارج حدود إسرائيل، بيد أنه وزير الداخلية ويحتفظ بقدر كبير من السلطة، وهو أيضاً معروف في إسرائيل على أنه أكثر أعضاء مجلس الـوزراء فســاداً (أو أقلهم دهاءً كونه يُشار إليه دائماً بصخب ولجاجة). وقد أجريت معه تحقيقات منذ مطلع عام ١٩٩٠ حول تهم تتعلق بالاحتيال واختلاس الأموال.

بدأت متاعب درعي في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٨٩ عندما وُجِّه اتهام إلى أمين صندوق مدينة القدس، ياكوف عفراتي، بتحويل (١٧٠) ألف دولار بصورة غير قانونية إلى معاهد دينية في المدينة. وقام عضوان في مجلس المدينة، وهما يهودا مئير ونائب العمدة أورنان، بإجراء تحقيقات سرية بشأن القضية ثم توصلا إلى نتيجة مفادها أن الوزير هدد بقطع الموارد المالية عن المدينة ما لم يتم تحويل قسم لا يستهان به من تلك الأموال إلى معاهد تعليمية يديرها حزبه السياسي المسمى (شاس).

إن معظم إدارات الحكم المحلية غارقة في الديون. وبالرغم من الضرائب المحلية المرتفعة والتي تطال أنحاء الدولة، فإن من الصعوبة بمكان إدارة شؤون المدن والبلدان من دون الحصول على مخصصات مالية من الحكومة. وقد تحكمت وزارة درعي بمبلغ (٧٥٠) مليون شيكل (ما يعادل (٣٣٥) مليون دولار أمريكي) بحيث يوزعها على إدارات الحكم المحلية بحسب ما يراه مناسباً ومن دون قيد أو شرط. واكتشف عضوا مجلس المدينة أيضاً أن مدينتهما لم تكن بمنأى عما حدث، فالمجالس البلدية في طول البلاد وعرضها لم تتلق

مخصصاتها المالية إلا بعد موافقتها على إعادة نسبة معينة من الأموال إلى درعي. وحرر أورنان ويهودا ثمانين وثيقة تبين حجم ومدى عمليات الابتزاز باسترداد جزء من المخصصات. ومن بين المشاريع الستة التي تلقت دعما ماليا من وزارة الداخلية في منطقة ديمونة، كان خمسة منها تحت إدارة حزب شاس. وفي منطقة (بني براك) التي لا يدعم أكثر من (١٥٪) من سكانها حزب شاس في الانتخابات، ذهبت نصف المخصصات البالغة بمجملها (٣,٤) مليون دولار مباشرة إلى معاهد تعليمية تابعة لحزب شاس.

وكشف عضوا المجلس على الملأ عما وجداه، وقدّما دليلهما إلى مراقب نفقات الدولة وطلبا إجراء تحقيق حول ذلك. وبعد فترة من الزمن، تلقى كلاهما تهديدات عنيفة بجعل حياتهما جحيماً وقلبها رأساً على عقب.

ولم تغب التهديدات السياسية أيضاً عن الساحة، إذ طالب عمدة القدس تيدي كوليك باستقالة هذين العضوين.

عوملت فضيحة درعي بنفس طويل بسبب أزمة الحكومة التي حدثت في آذار من عام ١٩٩٠، وقبل محاولة إيراد تفسير منطقي للأحداث، يتوجب ذكر إتهام آخر أساسي أورده عضوا مجلس مدينة القدس، ففي معرض طلبهما إجراء تحقيق حكومي دقيق بشأن أحابيل درعي في وزارة الداخلية، أضافا أن نائب وزير المالية يوسي بيلن كان على دراية وعلم منذ نهاية تشرين الأول عام ١٩٨٩ بأعمال درعي من ابتزاز واسترداد لجزء من المخصصات المالية.

كان بيلي النائب والمساعد الأول لوزير المالية شمعون بيريز الذي تولى آنذاك رئاسة حزب العمل حيث استلم هذا المنصب منذ عام ١٩٧٧، وخاض أربع معارك انتخابية للفوز بمنصب رئيس الوزراء، ولكن توجّب عليه إحراز النصر. وتولى منصب رئاسة الوزراء نصف مدة الدورة القانونية نتيجة تعادل أصوات الناخبين عام ١٩٨٤، ثم فشل مرة أخرى في محاولته إستلام السلطة في انتخابات عام ١٩٨٨. وكان حزب الليكود الحاكم كارهاً تشكيل إئتلاف مع الأحزاب الدينية، فاختار رئيسه إسحق شامير اشتراك بيريز في السلطة، وعرض

على حزب بيريز استلام حقيبتي وزارتي المالية والدفاع. ولأسباب سنبينها لاحقا، قَبِل بيريز منصب وزير المالية لكنه هدف فقط إلى الفوز بمنصب رئاسة الوزراء، ولو استطاع إقناع حزب شاس بمقاعده الخمسة بترك الحكومة وتشكيل إئتلاف مع حزب العمل، لنجح في تحقيق أمنيته.

وبدا أنه من المستحيل تحقيق مثل ذلك الخيار، فشاس كان حزب يهود السفارديم (وأصلهم من منطقة الشرق الأوسط) المتدينين وذوي الاتجاه اليميني (لم يتبَنَّ حزب شاس نفسه سياسة أجنبية يمينية، لكن جمهور ناخبيه تبناها) بينما كان بيريز ومعظم أفراد حزبه من يهود الأشكناز (ذوي الأصل الأوروبي) العلمانيين. وبالرغم من ذلك تحقق المستحيل في شهر آذار من عام ١٩٩٠؛ لقد تحول درعي إلى حمامة سلام يسارية الاتجاه وأخرج أعضاء الحزب الخمسة من الإئتلاف الحكومي، مسببا دعوة البرلمان إلى التصويت على اقتراح لحجب الثقة عن الحكومة ومن ثم انهيار إئتلاف الليكود. ودارت القضية حول قبول أو عدم قبول إسرائيل الوفاء بعدد من المطالب التي جاء بها وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر ضمن سياق مبادرة سلام إقليمية. وكان حزب العمل راغباً في ذلك، بينما قاوم الليكود وجميع الأحزاب الدينية الضغط الأمريكي باستثناء حزب شاس، ولكن لم يدم هذا الوضع طويلاً.

لم تظهر أنباء عن درعي بوصفه وزيراً للداخلية طيلة الأزمة البرلمانية التي استمرت أكثر من شهرين، ولكن ما إن زالت تلك الأزمة حتى شاعت وراجت تهم الفساد الموجَّهة إليه. وبادىء ذي بدء، أعلنت المدعية العامَّة للدولة واسمها مريم بن بورات نتائج التحقيق مع درعي وحزبه شاس، وكشفت تفاصيل طريقة الحزب في تحويل مبالغ ضخمة من الأموال العامَّة إلى خزينته الخاصة.

وفي هذا الجو المشحون، استقال الموظف هوشي غلينزر الذي كان يعمل تحت إمرة درعي من وزارة الداخلية بعد أن احتفظ لنفسه بوثائق خطيرة تدين درعي. ووجدت هذه الوثائق طريقها إلى أيدي مراسلين اثنين يعملان في أكبر الصحف الإسرائيلية اليومية وأعظمها نفوذاً؛ صحيفة يدعوت أحرونوت. وكتب هذان المراسلان، وهما مالي كمبنر ومردخاي غيلات، سلسلة مقالات وثَّقت ذلك التصرف السيء الذي حدث حقيقة ولم يكن

مزاعم أو أقاويل. واتهم درعي علناً بما يلي:

- تقديم رشوة إلى مجلس بلدية القدس بمبلغ (٩٠٠) ألف دولار من أموال الدولة وذلك من أجل تعيين أخيه يهودا في منصب الحاخام الأول ليهود السفارديم في ناحية راموت ذات المساحة الكبيرة والتابعة لمدينة القدس. وإضافة إلى ذلك، تبرع مجلس بلدية القدس بمبلغ (١٨٠) ألف دولار لاستخدامه في شراء مدرسة لشقيق الوزير درعي.

- إصدار أمر إلى شابيتا شالوم عمدة أوراكيفا بإعفاء زعيم ديني من دفع ضرائب متوجبة عليه وتقدر بحوالي (٤٥٠) ألف دولار. ووعد درعي بتعويض نقص المال الحاصل من أموال الدولة.

- تحويل ثلاثة ملايين دولار إلى مجلس بلدة هاديرا الذي يقال بأنه مجلس غير نظيف أخلاقياً، ولكن لم يسجل إلا مليونان ونصف مليون دولار من المبلغ على دفتر الأستاذ العام. ولا يعرف أحد مصير نصف المليون المفقود.

ويظهر أن درعي اتبع طريقة توريط الناس في الجريمة ثم التهديد بفضحهم إن تفوهوا بشيء عن هذه الأعمال. وقد ورَّطَ أعداداً كبيرة من الأشخاص مما جعل الحفاظ على سرِّيتها أمراً بعيد المنال، ولم يكن كافياً إفساد أي إنسان أراد درعي إفساده. وحالما انتشر خبر الاتهامات، قام مواطنان باستصدار اتهامات رسمية من الشرطة ضد درعي، وتحركت الشرطة بموجب تلك الاتهامات وداهمت مكتبه. وكان درعي في حقيقة الأمر يستخدم الأموال العامَّة لتمويل حملة الدفاع عن نفسه أمام الرأي العام، غير أن الناس لم تتأثر بهذه الحملة مما دفعه إلى الظهور على شاشة التلفزيون في شهر حزيران عام ١٩٩٠ في برنامج يعالج قضايا عامَّة، وعرض نتائج اختبارات كشف الكذب قائلاً أنه تطوَّعَ وأخضع نفسه لها. كان جميلاً أن يظهر بريئاً من كل ما أدين به لولا أن ركَّز عدداً من الأسئلة على مسألة جانبية هي: كيف استطاع شراء بيت فاخر جداً وهو لا يتقاضى إلا راتب موظف حكومي عادي؟ واحتَجَّ الوزير بشدة مؤكداً براءته، غير أن مصداقيته هبطت أكثر وأكثر. ونتيجة لذلك اعتمد هو ومؤيدوه أساليب أكثر خبثاً وأذىً.

أولاً، أصبح المراسل مردخاي غيلات الذي كشف قضية درعي ضحية حملة مزدوجة من التهديدات ومحاولات تشويه السمعة، وتعرَّض لوابل من التهديدات عن طريق الهاتف والرسائل. وبعد فشل تلك الأساليب، وُضِعَتْ أجهزة تنصت في بيته مرتين. وقُبض على المتنصتين على خط هاتفه من حزب شاس، إذ أن الحزب غير كفؤ في أعمال وتصرفات كتلك. وكان من بين المتنصتين السبعة رجل يدعى تسوبيري ويعمل مساعداً برلمانياً لعضو آخر من شاس في الكنيست هو أرييه شلومو غامليل. واتسع نطاق شبكة المجرمين المحيطة بدرعي على إثر تحقيق الشرطة، فاعتقل زيفي جاكوبسون أحد المساعدين المقربين لدرعي للاشتباه بتحويل مبلغ (٣١٥) ألف دولار من أموال وزارة الداخلية وبصورة غير قانونية إلى معهد لاهوتي يديره أخوه. وكان يحمل عند اعتقاله قائمة بإرشادات معينة حول كيفية إرهاق وتضليل الشرطة أثناء استجوابه. وارتبك جاكوبسون لوجود شيك بمبلغ يربو على (٤,٥٠٠) دولار إلى جانب قائمة الإرشادات تلك، ولم يستطع أبداً أن يعطي تفسيراً مقنعاً لحيازته الشيك.

ولم يكن جاكوبسون الشخص الوحيد الذي اتَّبع أسلوب إعاقة التحقيق، فقد غدا درعي مغاليا في سخطه وغضبه حتى أن وزير الشرطة روني ميلو اتهمه بعدم التعاون وتسهيل مجريات التحقيق. واعتبر ذلك إهانة كبيرة لعضو شريك في الإئتلاف الحكومي، وتلميحاً إلى أنه ربما من الأفضل أن يتنحى درعي عن منصبه الوزاري إن لم يتعاون مع الشرطة.

من الصعب تخيل وجود نظام ديمقراطي في العالم لا يُطلب فيه من مسؤول رفيع المستوى التنحي عن منصبه لارتكابه جرائم اختلاس الأموال، والاحتيال، والابتزاز، واستخدام الرقابة ضد الآخرين بصورة غير قانونية، غير أنه لا وجود لدستور مكتوب ومعتمد في إسرائيل. ويتمتع أعضاء الحكومة بحصانة تمنع مقاضاتهم وتقديمهم إلى المحاكمة. وهكذا، لا يمكن اتهام درعي بأي جناية ما دام موجوداً ضمن تركيبة الحكومة.

واستمر درعي بانتهاج أسلوب الاهتياج والغضب لتبقى الوزارة في قبضته. وادعى أنه لم يشعر بالخجل لتنصته غير القانوني على رجل الصحافة، لكنه غضب كثيراً عندما سمع شريطاً مسجلاً يكشف حواراً تآمريا بين المفتش العام للشرطة والمراسل الصحفي ضد

الوزير. وإضافة إلى ذلك، ظهر صوت المفتش العام في الشريط يقدح ويذم يهود السفارديم.

وانتهز درعي كل فرصة ليحاول التعتيم على قضيته: فصرَّح أن على تيرنر الاستقالة من منصبه إن كان متعاوناً مع الصحفي، ولا تقبل أي محكمة في العالم الاستماع إلى الشريط لأنه سيكون دليلاً غير مقبول وسيلحق ضرراً بمجمل التحقيقات التي جرت. وبعد زرع الشكوك حول قانونية تحقيق الشرطة، اتجه درعي إلى إثارة قضية حساسة جداً في المجتمع الإسرائيلي وهي التحيز المزعوم ليهود الأشكناز ذوي البشرة البيضاء ضد يهود السفارديم ذوي البشرة الداكنة السمراء.

ما بين عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٧، أجبر! حوالي (٨٠٠) ألف يهودي على ترك منازلهم في الأراضي العربية، ولقي (٦٠٠) ألف منهم تقريباً ممن وصلوا إلى إسرائيل معاملة قاسية على يد معظم اليهود الأوروبيين. وكان يهود السفارديم متدينين بصورة تقليدية، والعديد منهم من طبقة التجار. وعاملهم القائمون على السلطة آنذاك من ذوي الاتجاه العلماني معاملة سيئة للغاية، وأُجبروا على الأخذ بأخلاق وعادات غريبة عنهم بغية الاستمرار في العيش. ولم يكن باستطاعة العمال الارتقاء بأنفسهم ما لم يكونوا منتسبين إلى حزب العمل أو نقابة حزب العمل. ولم يستطع معظمهم تحمل نظام الحكم، علاوة على نقص مقومات القوة لديهم، فتحولوا على أرض الواقع إلى طبقة دنيا.

وانُتخب مناحيم بيغن عام ١٩٧٧ رئيساً للوزراء، وكان فوزاً لا يستهان به نتيجة دعم السفارديم له. وحصل السفارديم خلال فترة رئاسته على عدة مناصب: منصب رئيس الدولة، ونائب رئيس الوزراء، والأهم من ذلك كله منصب رئيس أركان الجيش. وأكبر إنجاز لبيغن، بغض النظر عن تحقيق اتفاقية كامب ديفيد، كان إدخال السفارديم إلى المجتمع الإسرائيلي بكم هائل. ولهذا السبب، سيصوِّت (٥٠٪) من الإسرائيليين الذين هم من السفارديم لصالح حكومة الليكود في المستقبل المنظور.

ودرعي مغربي الأصل ومن السفارديم، وكان هانيء العيش في المجتمع الأشكنازي

في الفترة التي سبقت كشف أفعاله السيئة. وما إن أخذت الاتهامات تلصق به واحدة تلو الأخرى حتى بدأ بفتح الجروح القديمة والتذكير بسوء المعاملة التي تلقاها السفارديم، فاتهم أولاً مفتش الشرطة العام تيرنر بقدح وتشويه سمعة السفارديم جميعا، ثم اتهم معذبيه (الشرطة، ووسائل الأعلام، والمؤسسة السياسية) بالتضييق عليه لأنه ليس أبيض البشرة بدرجة كافية. وشبَّه نفسه في إحدى التجمعات العامَّة الحاشدة بالحمل المضحي بنفسه والقائم بالعمل المقدَّس، والذي اعترض سبيله الشيطان أو الأشكناز. واتهم في الليلة التالية اليهود الأوروبيين بتحويل السفارديم إلى مروجي مخدرات، وممارسي أعمال البغاء، ومجرمين، ثم سأل أتباعه بتكلّف: «ما الذي فعلوه لأجلنا؟».

بيد أن إثارة النعرة والكراهة العرقية لم تنجح فلجأ درعي إلى استخدام الورقة الرابحة التي بيده، إذ هدد بسحب حزبه من الإئتلاف الحاكم وإسقاط الحكومة، وفي الوقت الذي أطلق فيه تهديده في شهر أيلول عام ١٩٩٠، كان الإئتلاف الحكومي بزعامة الليكود يتمتع بأغلبية مقعدين في البرلمان، وهذا يعني أن حزب شاس بأعضائه الخمسة في البرلمان يستطيع إسقاط الحكومة في حال انسحابه من الإئتلاف آنذاك.

حتى وقت تأليف هذا الكتاب، وبعد أكثر من عام على إثارة تلك القضية، ما يزال درعي وزيراً للداخلية، وما يزال الموظف المسؤول عن توزيع ما مقداره (٣٣٥) مليون دولار من أموال الدولة. أما حزب الليكود المهتم بامتلاك السلطة أكثر من اهتمام بالاستقامة والأمانة، فلم يجبر ذلك اللص وذلك الرجل الذي يبتزه على ترك منصبه، بل تعلم التعايش معه وسط هذه المعمعة. وما تزال أموال دافعي الضرائب تتدفق من بين أصابع يده الخسيسة. وإذا كان الجهل جريمة، فإن حزب الليكود هو شريك له علاقة بقضية درعي وجرائمه.

بيد أنه من المحتمل أن يكون رئيس حزب العمل المعارض آنذاك شمعون بيريز قد لعب أيضاً دوراً أكثر تأثيراً في العمل القذر برمته. فمنذ نشوء دولة إسرائيل، اشترى حزب العمل دعم جمهور ناخبيه باستخدام الأموال العامَّة لتمويل مستشفياتهم وبنوكهم ونواديهم الرياضية وأماكن عملهم، وكل ذلك عن طريق نقابة العمال العامَّة (الهستدروت) بصورة أساسية. كان حزب شاس يقوم فقط باتباع الأساليب التي جاء بها حزب العمل ورسَّخها

في سلوكيات الحكومة. ومهما كانت أساليب الليكود تلك غير ظاهرة، إلا أنها كانت تُمارس علناً. وقد اتُّهم درعي بإساءة استخدام الأموال العامَّة، وملء جيوبه بها، وجيوب أصدقائه ومعارفه. وصرَّح عضوا مجلس المدينة، أورنان ويهودا، بأن درعي قام بذلك مع المعرفة الكاملة من قِبَل نائبه يوسي بيلن.

وزعم أورنان في مقابلة خاصة ما يلي: «اعترف بيلن في أحاديث غير رسمية أنه على دراية باختلاس درعي للأموال منذ تشرين الأول عام ١٩٨٩. ولم يكن يعرف ذلك فقط، بل تبجح وتباهى بأن حزب العمل سيسيطر على شاس ويضعه في جيبه.. لقد علم بيلن بشيء بالغ السوء والخسة يحدث آنذاك، ولكنه أخبرني بأن ذلك ما يحفظ لنظام الحكم ديمومته ويبقيه يعمل».

وأضاف مئير قائلاً: «أخبرني بيلن أن شراء ذمة حزب ديني هو أقل كلفة من خوض حرب، وأجبته أن ذلك كان مضيعة للمال إذ لا يمكن شراء الأحزاب الدينية لفترة طويلة، فقال إن هناك حزباً يمكن شراؤه».

إن وزير المالية، وفقاً للقانون البرلماني الإسرائيلي، مسؤول عن الاستعمال القانوني الصحيح لجميع المخصصات الممنوحة للوزارة. ويطرح السؤال الآتي: إذا كان نائب وزير المالية على علم بصرف المال العام بطريقة غير قانونية، فهل كان التزامه وإخلاصه في العمل سيدفعه إلى إخبار رئيسه عما يعرفه؛ ورئيسه آنذاك كان شمعون بيرير، وطبقا لما قاله المعلق القانوني الإسرائيلي المشهور موشي نيغبي، فإنه «لا وجود لدستور في إسرائيل، فترى القانون البرلماني دائم الغموض. وإذا رفض أي مواطن عادي الإخبار عن جريمة، فيمكن إتهامه بالمساعدة على ارتكاب تلك الجريمة، وهذا ينطبق أكثر على المشرِّع من الناحية الأخلاقية وهو مطلوب بشدة».

والنتيجة أن بيلن كان على الأقل مساعداً على وقوع الجريمة، هذا إذا تم الأخذ بالتهم الصادرة عن عضوين سياسيين محترمين من مجلس المدينة، والضحية النهائية هي طبعاً دافعو ضرائب الدولة. ولكن هل ثمة دليل على أن بيريز استخدم معرفته بذلك في ابتزاز

حزب شاس ليجبره على الخروج من الحكومة ثم الانضمام إلى إئتلافه الخاص؟ يعتقد مئير بوجود شيء من هذا القبيل، فيقول: «لقد سُلِّمت رسالة مرسلة إلى بيريز إلى مسؤول رفيع المستوى عشية يوم التصويت على اقتراح حجب الثقة عن الحكومة، ويعد فيها بيريز منظمة دينية معينة بإعطائها مبلغاً كبيراً عن المال. أعتقد أن جريمة بيريز الأخلاقية هي أشنع من جريمة درعي، ذلك أن درعي استخدم معظم أمواله غير المشروعة في دعم قضية يؤمن بها، أما بيريز فقد استخدم درعي لتقوية ودعم نفسه».

الفصل الثاني

حكومة في أزمة دائمة

إن استيعـاب عجـز الحكومة الإسرائيلية وفهمه دفعة واحدة هي مهمة ليست يسيرة بالنسبـة للشخص الغريب المهتم، ولهـذا سأقـوم بمحـاولـة إعـطاء شروحـات مفهومة وواضحة، . تتخلل الأحداث المرتبة وفق تسلسل زمني يتناول حقبة الفساد المعاصرة.

بحلول شهر كانون الثاني من عام ١٩٩٠، قام شمعون بيريز بخطوته الأولى لإسقاط الحكومة. كان وزير العلوم عيزرا وايزمن الذي اعتزل السياسة في شباط عام ١٩٩٢ قد اجتمع مؤخراً مع مسؤولين كبار من منظمة التحرير الفلسطينية في لندن، وأراد رئيس الوزراء إسحق شامير إخراجه من مجلس الوزراء. ونجح بيريز في التأثير على حزبه وعلى مسؤولين رفيعي المستوى من أجل مساندة وايزمن، وهدد بالانسحاب من الحكومة إذا ما أجبر وايزمن على الاستقالة من مجلس الوزراء. كانت تلك إستراتيجية جيدة اتبعها بيريز، هادفاً من ورائها إلى شق صف حزب الليكود. ومن المخالف للقانون أن يلتقي الإسرائيلي مع أعضاء من منـظمة التحرير الفلسطينية؛ ففي واقعة مشهورة «سُجن آبي ناثان وهو داعية السلام الإسرائيلي الأعظم شهرة مدة ستة أشهر بهذه التهمة. اكتسب ناثان سمعته السيئة في بادىء الأمر عندما طار بطائرته (بايبر كَب) إلى مصر عام ١٩٦٦ ليمثل حكومته عن طريق مقترحات السلام الخاصة به، ولكن المصريين لم يطلقوا النار على طائرته بدافع الشفقة والرحمة، فرجع إلى إسرائيل من غير أن يلتقي بأي مسؤول من أي رتبة كان.

وأدار ناثـان على مدار عقـدين كاملين محطة إذاعية عائمة في شرق البحر الأبيض

المتوسط تبث رسائل السلام، ومن الواضح أن مغامرته هذه هي فشل محقق، لكنها تعطيه فرصة لتعظيم ذاته وتبجليها. وحاول ناثان جعل حوادث سجنه المتعاقبة قضية تثير اهتمام الرأي العام، وكان نجاحه في ذلك هزيلاً جداً، ذلك أن قلة قليلة من الإسرائيليين أرادت إقامة علاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية. ولم يُرَدّ إليه اعتباره بعد إطلاق سراحه، فعاد إلى تونس لإجـراء المزيد من الاجتماعات مع مسؤولي منظمة التحرير، ثم اعتقل لدى عودته إلى إسرائيل وحكم عليه بالسجن. ونفذ في تلك المرة إضراباً عن الطعام ليوصل قضيته إلى جمهور المواطنين، لكنها بقيت مجرد محاولة تجريبية.

يعتبر وايزمن الآن واحداً من أتباع مدرسة ناثان المثالية ولكن بأسلوب آخر[غير الذي كان عليه ناثـان]. إنـه أحـد مؤسسي سلاح الجـو الإسـرائيلي، وقد أمضى جُلَّ حياته السياسية ضمن جماعة الصقور. ونظراً لامتلاكه هذه المزايا الهامة، فقد عُين وزيراً للدفاع في أول حكومـة شكلهـا الليكـود، وأصبـح المفاوض الرئيسي إبان اتفاقية كامب ديفيد. وأخذ المصريون يتزلفون إليه ويطرونه حتى أصبح ليناً بدرجة تكفي بأن يقوم بإقناع رئيس الوزراء بيغن بقبول جميع المطالب المصرية من الناحية العملية. وتخلت إسرائيل في آخر المطاف (في آذار عام ١٩٨٢) عن مطارين اثنين يقعان على عمق عدة أميال في شبه جزيرة سيناء، وبخسارة خمسة آلاف مليون دولار، وعن جميع ما استثمرته في حقول نفط سيناء، وعن بلدة تتسع لـ (٢٢٠٠) شخص وتقع على مسافة قريبة من الأراضي المصرية السابقة.

عزل وايزمن نفسـه في الوقت المناسب عن توجه وفكر حزب الليكود، وشكل حزباً خاصا به يدعو إلى سلام، واستطاع الفوز بثلاثة مقاعد هزيلة في انتخابات عام ١٩٨٤. وبالرغم من عجزه الواضح عن كسب السلطة، فقد عرض عليه حزب العمل مركزاً مرموقاً ومنصباً في مجلس وزراء أي حكومة يشكلها العمل شريطة أن يتخلى عن حزبه الخاص عن طريق دمجه مع حزب العمل. وقبل وايزمن ذلك العرض بعد أن لمس حاجة حزب العمل الماسة إلى حلفاء يساندونه.

أدرك وايزمـان عند اجتماعه مع مسؤولين من منظمة التحرير الفلسطينية أنه يخالف القانون، ولكن في المقابل كان يعلم أن لديه حصانة تحميه من محاكمته بوصفه عضواً في

مجلس الوزراء، وأنه لن يصبح نسخة أخرى عن آبي ناثان فيترك ليعيش متقلباً في ترف سجن مرفّه وذي إجراءات أمنية مخففة. بيد أن وايزمن لم يكن مجرَّد شخص آخر غير هام، فقد تولى منصب وزير الدفاع ومنصب رئيس أركان سلاح الجو، وكان من المحتمل جداً في حالة اختطافه أن يكشف للعدو اللبنات الأساسية التي يقوم عليها نظام الدفاع الإسرائيلي.

واختار بيريز القضية الواهية المتعلقة بزميله المنحرف عن الجادة وايزمن من أجل إسقاط مجلس الدولة الحاكم، ولكن شامير أدرك نوايا بيريز وأراد التوصل إلى تسوية لمنع انهيار الحكومة. لم تكن هذه مهمة سهلة على الإطلاق لأن أحد الأحزاب المشاركة في الحكم والذي قاده وزير الصناعة أرييل شارون كان سيهدد بترك الإئتلاف الحكومي إن بقي وايزمن في منصبه. وعلى كل الأحوال، تم التوصل إلى تسوية وخفضت منزلة وايزمن بنقله من حلقة مجلس الوزراء الداخلية إلى الحلقة الخارجية.

كان بيريز في الحكومة وكان يتآمر لإسقاطها، ونجح في ذلك بعد أشهر. وسنحلل بدقة تلك المؤامرة لاحقاً، ولكن لنستعرض أولاً جزءاً صغيراً مما كتبه الكاتب الإسرائيلي يوسف غوئيل:

«من النادر أن يضع أحدهم اللوم على شخص واحد فقط بسبب تدهور واضح في وضع سياسي، ولكن لا يوجد أدنى شك في الحالة الراهنة بأن الرجل الذي يتحمل أكبر مسؤولية عن التدهور هو رئيس حزب العمل شمعون بيريز وليس رئيس حزب الليكود إسحق شامير. وعندما دمر شمعون بيريز حكومة الوحدة (الإئتلاف).. كان تصرفه معاكساً لما هو مطلوب ولما يمليه الإحساس بالمسؤولية الوطنية».

سيسأل أولئك غير المطلعين على أساليب عمل الحكومة الإسرائيلية السؤال التالي: كيف يصبح المتآمر ضد بلاده وزيراً للمالية في حكومتها؟ باختصار أقول: يعتمد النظام السياسي الإسرائيلي الأساليب البريطانية والأساليب الإيطالية ليخرج بأساليب سياسية جهنمية شديدة المكر. وعندما يختار المدلي بصوته أحد الأحزاب، فإنه لا يختار شخصاً

من على قائمة هذا الحزب وإنما تقوم بهذا العمل لجان مركزية منبثقة عن الحزب. ومن هنا تتبع المشاكل؛ إذ يناور بضع مئات من الأشخاص أغلبهم من كبار السن ليحققوا المنافع الشخصية ويكسبوا مواقع لهم على القائمة. والحصول على رتبة وضيعة في القائمة يعني عدم القدرة على مزاولة العمل السياسي، مما يتوجب على كل مرشح تضعه اللجنة أن يكسب أصوات الأعضاء من المراتب الدنيا في الحزب، ويعني ذلك بدوره إعطاء الوعود للناس بتعويضهم لقاء دعمهم المباشر ابتداءً من توفير الوظائف ووصولاً إلى دفع جزء من أموال الحكومة لهم. ويجب على الحزب في حالة انتخابه أن يرد الجميل إلى الناس العاديين الذين ساندوه، ويمثل ذلك المرحلة الأولى من التعيينات السياسية، وهي سبب وجيه جداً يدفع بكل إسرائيلي طموح إلى الانضمام إلى حزب سياسي

وبما أنه من غير المحتمل أن يُمنح السياسيون المرجو لهم النجاح مناصب سياسية مؤثرة، يقوم الأشخاص العاديون بدعم السياسيين الكبار بعد أن يحصلوا على ما وعدوا به. وهذا الوضع يسد الطريق بصورة فعلية أمام القادمين الجدد لاكتساب مراتب عليا على القائمة، ويحول دون تغير الوجود في تركيبة القيادة الإسرائيلية، فشامير يبلغ من العمر (٧٦) عاما وهو من أكبر زعماء العالم سناً، وقد استقال سلفه في سن السبعين. وبينما يظهر ذلك وكأن مسؤولي الليكود متقدمون في السن، فإنهم يعتبرون عند مقارنتهم بأعضاء حزب العمل في مقتبل العمر، إذ أن زعيم العمل في السبعين من عمره ويقترب معدل أعمار أعضائه في الكنيست من (٦٠) عاماً.

لقد خسر بيريز أربع جولات انتخابية ولكنه احتفظ بمصادر دعم سياسي قوية جعلت من العسير حتى على حزبه أن يزيحه من منصبه. والحقيقة أنه دمَّر بمفرده تقريبا حزباً كان يعتبر عند تولي زعامته حزباً لا يُقهر.

وإسرائيل مقسمة حالياً من الناحية الانتخابية كالتالي: (٤٠٪) من الجناح اليميني، (٣٥٪) من الجناح اليساري، و(١٥٪) من المتدينين. وهذا الوضع يترك (١٠٪) من الجمهور غير محدد الاتجاه، وتجري الانتخابات المكلفة مادياً كل أربعة أعوام أو ما يقاربها بهدف حمل ما يقارب (٢٠٠) ألف من الناس العاديين على تغيير آرائهم

ومواقفهم. وقد خسر حزب العمل الانتخابات عام ١٩٨٤ بسبب تصلب جمهور الناخبين، وورّط الليكود البلاد في حرب في لبنان كانت قد فقدت مبرراتها قبل سنتين. ووصل التضخم المالي إلى نسبة (٤٥٠٪)، واستقال مناحيم بيغن ذو الشخصية الفاتنة للجماهير من منصبه كزعيم تاركاً مسؤولية إدارة الحزب إلى شامير الفاتر الهمة. وبالرغم من ذلك، ظلت درجة انعدام الثقة عند بيريز كبيرة بحيث انتهت جولة الانتخابات بتعادل الأصوات بين الحزبين الكبيرين.

إن أمام الناخب (٦٠) حزباً ليختار من بينها في أي انتخابات تجرى، ويجب أن يكسب أي حزب (١٪) من أصوات الناخبين حتى يستطيع دخول الكنيست. وتمثل الأحزاب الصغيرة مصالح ذاتية ضيقة، وينجح عشرون حزباً منها في الحصول على مناصب في السلطة عند كل جولة انتخابية. وحتى عام ١٩٨٤، كان باستطاعة أي حزب يحصل على أكبر من مقاعد الكنيست البالغ عددها (١٢٠) مقعداً أن يكسب عدداً من الحلفاء من الأحزاب المتشابهة فكرياً، وأن يشكل الحكومة، وأن يشرك معه أيضاً أحزاباً صغيرة أخرى تريد تذوّق طعم السلطة. حدث عام ١٩٨٤ أن أخفق الليكود وحزب العمل المتنافسين وحلفاؤهما في الحصول على أغلبية الأصوات، فاضطر الحزبان إلى البحث عن شركاء جدد من الأحزاب التي كان مبرر وجودها الوحيد هو تعزيز مبادئها الدينية الأصولية.

إن إقامة تحالفات مع أحزاب دينية ليس مفهوماً جديداً في إسرائيل. فأول رئيس وزراء لإسرائيل، وهو ديفيد بن غوريون المبجل والمبالغ في تقديره، بدأ العمل وفق هذا المفهوم عندما قايض إعفاء طلاب المعاهد الدينية من الخدمة العسكرية مقابل الحصول على دعمهم السياسي. وإبان عقده هذه الصفقة، لم يكن ينتسب إلى هذه المعاهد الدينية سنوياً إلا بضع مئات من الشبان، أما الآن فيوجد حوالي عشرين ألفاً من أتباع المذهب الأرثوذكسي من المراهقين والمراهقات يتهربون من الخدمة العسكرية الإلزامية، وهم يشكلون فرقتين عسكريتين كاملتين. إضافة إلى ذلك، فهم يدقون إسفينا عميقا بين الأغلبية التي تخدم وطنها وتموت من أجله وبين الذين يتلون صلواتهم في أمان من أجل حمايته.

وأحد هذه الأحزاب يدعى حزب «أغودات إسرائيل» ويتكون من رجال "Hasidim" الذين يرتدون سترة سوداء اللون، وتعود أصولهم إلى أحياء اليهود في المدن البولندية والروسية ما قبل (٣٠٠) سنة. وكانوا منذ بداية نشاطهم عام ١٩١٢ معادين بشدة للصهيونية، زاعمين أن إسرائيل لا يمكن أن تبعث مجدداً من دون أن يبشر بها السيد المسيح. وبما أن السيد المسيح لم يظهر مؤخراً في بولندا، فإن تأسيس إسرائيل هو بالتأكيد شيء مستحيل التحقيق بحكم التوراة.

وعندما تأسست دولة إسرائيل الحقيقية، اتخذ حزب «أغودات إسرائيل» مع جماعات "Hasidim" موقفاً يتلخص بأن إسرائيل لم تؤسس في حقيقة الأمر لأنها غير موجودة على أرض الواقع حالياً. ولا يعترف حزب «أغودات إسرائيل» الذي يمتلك خمسة مقاعد في البرلمان بدولة إسرائيل، ولا يخدم أتباعه في جيشها.

وأعلن حزب «أغودات إسرائيل» عام ١٩٤٨ أن إحدى شروطه للانضمام إلى الحكومة هو إجراء تعديل على قانون العودة، واستدرجوا أحزابا دينية أخرى لها درجات متفاوتة من الحماس للمشاركة في مناظرة عرفت فيما بعد باسم «من هو اليهودي». وبالرغم من أن مسألة «من هو اليهودي» كانت قضية ثانوية في انتخابات ١٩٨٤ مقارنة مع أهميتها في انتخابات ١٩٨٨، فقد صوّت (٦٢) مسؤولاً ضد (٥٤) مسؤولاً لصالح عدم تغيير القانون عن طريق الكنيست.

كان اليهود مشتتين في أنحاء العالم عند تأسيس إسرائيل عام ١٩٤٨، مما ساعد على منح حق الجنسية بصورة آلية لأي يهودي حط رحاله في إسرائيل وطلب هذا الحق. ولم يكن تحديد صفة اليهودي مسألة مهمة لأن السجلات الدقيقة قد احتفظت بها هيئات الأحبار اليهود في أرض الشتات. واليهودي حسب التعريف الموضوع هو أي إنسان وُلد من أم يهودية، وهو تعريف حصين لأنه يأخذ بعين الاعتبار احتمال تعرض النساء اليهوديات للاغتصاب في الأراضي الأجنبية فيكون أولادها يهودا وإن كانوا أبناء زنى، غير أن الأحداث في أمريكا كانت تغير الأفكار والعقائد المقبولة بداهة، فقد سرّع الخوف في الذوبان الفكري والانصهار الثقافي وتيرة تأسيس حركات دينية جديدة هناك، وأصبحت الحركة

المحـافظة (Conservative) وحركة الإصلاح (Reform) من أقوى الحركات، وهما تفوقان عدد أعضاء الحركة الأرثوذكسية حالياً بنسبة خمسة إلى واحد، وتُكوِّن كل حركة قانوناً خاصاً بها. وتحـاول حركـة المحـافظين اعتماد خط رفيع يفصل بين المتصلبين الأرثوذكسيين وبين الحقيقـة الثقـافية لأتباعها. أما حركة الإصلاح المسؤولة عن معظم الجماعات المحلية اليهـودية في منطقة غرب المسيسيبي، فقد طمست معالم الديانة اليهودية بشوائب كثيرة أدخلتها عليها عن طريق تكييف معتقداتها لتوائم الروحانية الزائفة لجمهور ناخبين ماديي التوجه.

ومن بين التغييرات التي جاء بها اليهود الأمريكيون تحريم أن يكون الحاخام شخصاً لوطياً أو أنثى، ومنع قيادة السيارات أيام السبت مع أنها حاجة ضرورية في ضواحي المدن، ونزع قلنسوة الصلاة في المعابد اليهودية. ولم تكن هذه التغييرات إلا مجرَّد تغيرات في الطقوس الدينية [وذلك بالرغم من شناعتها بالنسبة للجماعة الأرثوذكسية]. وإحدى قوانين حركة الإصلاح التي تُشكِّل خطراً حقيقياً على طبيعة اليهود بوصفهم أناساً متميزين، فقد غيرت حركة الإصلاح القوانين الدينية لتشمل الأطفال المولودين من آباء يهود وأمهات غير يهوديات، ليُعتبر هؤلاء الأطفال من اليهود. لم تكن الطريقة القديمة مجرَّد طريقة لقبول أبناء النسـاء الـلاتي تعرضن للاغتصاب، بل كانت أيضاً اختباراً لا يخفق فيه أحد في سبيل اكتساب حق الجنسية. ونظراً لوجود مليون يهودي في ولاية كاليفورنيا وحدها فقط، وبسبب عدم التفكير العميق بالانحلال الجنسي الذي يعم هذه الدولة المتقدمة، فلا شك أن عدداً غير قليل من غير اليهـود سيستـطيع تخطي القانون الجديد المتعلق بالسلالات اليهودية المتحدرة والنفاذ إلى المجتمع اليهودي.

ويطلب حزب «أغودات إسرائيل» تعديل قانون العودة من أجل حماية أطفال إسرائيل. وإذا ما حصل على ما يبتغيه، وهو شيء محتمل الحدوث فإن على أي يهودي اعتنق مذهبه الديني على يد حاخام من حركة المحافظين أو حركة الإصلاح أن يعتنق مذهبه مرة ثانية على يد حاخام من الحركة الأرثوذكسية من أجل الحصول على حق الجنسية بصورة قانونية. ويتمتع الأرثوذكس حالياً بسلطة قوية لدرجة أنهم هزّؤوا الحرية الدينية وسدوا الطريق أمام

حاخـامات حركتي المحافظـة والإصلاح في محاولتهم الحصول على اعتراف الحكومة بهم. وقد يمارس هؤلاء الحاخامات أعمالاً وشعائر دينية مثل عقد الزيجات، ولكن هذه الزيجات لن تسجل رسمياً ما لم يحضر حاخام من الأرثوذكس.

ويجب على جميع الإسـرائيليين الخضوع للطقوس الأرثوذكسية إذا أرادوا الزواج، والـطلاق، أو تسجيل مولود جديد أو حالة وفاة. ولا يوجد في إسرائيل ما يسمى بالزواج المدني، وعلى كل شخص لا يرغب في خطبة فتاة وفق أسلوب الجماعة الأرثوذكسية أن يخـرج من إسـرائيل، وغـالباً إلى قبرص، ثم يعود إليها كمواطن آثم. ويصنِّف الأطفال التـابعين لمثـل هؤلاء الأشخاص غير المتزوجين كأطفال غير شرعيين إذا لم يتم تسويغ الزواج من الناحية الدينية.

والأكثر حماقة أن الوشم على الجسم يمكن أن يبطل حفل تأبين ديني وقانوني لأنه يحرم على اليهود نقشه. وفي إحدى الوقائع التي تبدو غريبة خيالية، طلب أحد الإسرائيليين من حاخامه وضع يده التي عليها وشم في قبر من مقابر غير اليهود وأن يضع بقية جسده الميت في القطعة المخصصة لقبور عائلته.

تحمَّـل اليهـود الأمريكيون استثناءهم من الاتجاه الديني السائد في إسرائيل، لكن التغير الخطير في القانون المتعلق بمسألة (من هو يهودي) هدد وضعهم الشرعي إلى درجة كبيرة جداً. وإذا ما نفذ هذا القانون، فإن عشرات الألوف من اليهود الذين اعتنقوا مذهبهم على يد حاخـامات من الحركة المحافظة وحركة الإصلاح سيصبحون أشخاصاً من غير اليهود في إسرائيل، وسيحيق الخطر الأكيد بشرعية الحركات التي ينضوون تحت لوائها في الدولة اليهودية.

ولم يستطع حزب العمل الإذعان لهذه القضية على الأرجح ليس فقط لأنها سببت امتعاضاً شديداً بين أتباعه ومعظمهم علمانيون، ولكن أيضاً بسبب أن أحد حلفائه المقربين وهـو حركة (حقوق المواطن) ـ واسمها العبري يتكوَّن من الحروف الأولى للكلمات هو راتس "Rats" ـ كان يشتغل ستة مقاعد يعارض معظمها سيطرة الحركات الأرثوذكسية. وكان

تشكيل حكومة بالاشتراك مع حركة راتس وحزب (أغودات إسرائيل) يشبه حكومة يديرها مجلس يضم كلاً من ستالين وريغان وتشرشل وموسوليني. بيد أن الليكود كان قادراً على الاحتفاظ بالسلطة بالرضوخ قليلاً أمام مسألة (من هو اليهودي)، والأحزاب الأرثوذكسية كانت تنضم إلى الليكود في المعارضة التامة لمبدأ التخلي عن الأرض اليهودية المقدَّسة مقابل سلامٍ سيكون غير واضح المعالم وغامض. ولن يساوم الليكود على الأرض وذلك لأسباب عسكرية ووطنية، بينما يعتبر الأرثوذكسي أن التخلي عن أي جزء من الأرض التي وعد الله بها الشعب اليهودي هو إثم وفعل منكر. وربما ينتهج الطرفان أسلوبين مختلفين، لكن الليكود والأحزاب الدينية تجتمع على نفس المفهوم المتعلق بهذه القضية الهامة جداً.

ومن أجل الحصول على السلطة من دون تغيير قانون (من هو اليهودي) أخذ بيريز يتودد إلى زعماء الأحزاب الدينية ومرشديها الروحيين، وعرض دعمه السياسي لإجراء تغييرات أساسية مختلفة وعلى نطاق واسع في المجتمع مقابل الانضمام إلى إئتلافه. واشتم حزب (أغودات إسرائيل) رائحة النصر فرفض العروض الأولى، فزاد بيريز الدعم وأجزل العطاء قاطعاً الوعود بمنح مناصب حكومية عالية، ولكن حزب (أغودات إسرائيل) رفض تلك الطروحات مما دفع بيريز إلى عرض مبالغ مالية ضخمة، ومناصب حكومية جيدة، ومخصصات مالية تدفع نقداً على الفور، ودفعات ظاهرة للعيان من الأموال العامَّة. وبالرغم من ذلك كله، بقي من العسير تشكيل حكومة من دون تعديل قانون الجنسية اليهودية؛ (من هو اليهودي).

جاء بعد ذلك دور شامير، فزادت الأحزاب الدينية من شروطها وزاد شامير من عروضه ووعوده، وقامت هذه الأحزاب بمناورة أفضل عندما أطلعت بيريز على صفقة شامير وطالبت بيريز بصفقة أكثر نفعاً، ولكنها لم تدرك مدى قوة ضغط اليهود الأمريكيين لمنع تعديل قانون (من هو اليهودي). ولم يستطع شامير التصرف بأي شيء حيال ذلك أكثر من قطع وعد بتقديم مشروع قانون إلى الكنيست حول هذه القضية وذلك عندما يضعف ضغط اليهود الأمريكيين، ثم إنه عرض بعض المقترحات الجديدة الممتازة، وتتعلق بتحويل مال الدولة بصورة قانونية إلى وزارات متعددة وإلى أشخاص في مناصب محددة. ووقعت الأحزاب ضحية الخداع والتآمر ولكنها بقيت مصرة على قضية (من هو اليهودي).

استاء بيريز وشامير إلى حد كبير، ولم يبق أمامهما إلا خيار تشكيل حكومة بالتعاون بينهما. وشكلت حكومة بلهاء غير منسجمة ومرقعة بعد قدر كبير من المماحكات، وبحيث يستلم بيريز منصب رئيس الوزراء في العامين الأول والثاني ثم يتركه ليتولاه شامير في السنتين الثالثة والرابعة، ويكون شامير وزير الخارجية في العامين الأول والثاني، وكذلك بيريز في العامين الثالث والرابع على التوالي.

ويجب على القارىء محاولة تخيل النتائج. كان رئيس الوزراء بيريز في العامين الأولين يعلن عن رغبة حكومته في مقايضة الأرض بالسلام، بينما كان يعلن وزير خارجيته في الوقت نفسه أنه لن يتم التخلي عن شبر واحد من أرض إسرائيل المقدَّسة. وفي العامين الآخرين، كرَّس رئيس الوزراء شامير جهده لتوسيع وزيادة المستوطنات في الأراضي المتنازع عليها، بينما كان وزير خارجيته بيريز آنذاك في دول نائية يعمل على منح الأرض المبتوت في أمرها إلى المزايد الذي يدفع مالاً أكثر.

لم تكن هذه الحكومة متعارضة الأهداف فقط، بل كانت أيضاً حكومة تعاني من انفصام شخصيتها، مما شل حركتها وعطَّل قدرتها.

الفصل الثالث

حكومة تتهاوى

أتمت الحكومة مدتها القانونية بالرغم من محاولة بيريز خلال السنتين الأخيرتين إسقاط حكـومـة الاتحاد الوطني هذه، ودعت إلى إجراء انتخابات جديدة عام ١٩٨٨. وخلال الأعوام الأربعة ابتداءً من الانتخابات السابقة، ظهر عامل جديد بإمكانه التأثير بقوة على النتائج اللاحقة، واتخذت حكومة الاتحاد الوطني إجراء موحداً هذه المرة. وكان باستطاعة حزبي العمل والليكود بوصفهما السلطة الحاكمة أن يصدرا قانوناً يحظر الأحزاب الدينية و[يفصل «الكنيسة» عن الدولة]، ولكن لم تتوفر الإرادة لتنفيذ ذلك. وتم على كل الأحوال استثناء الحاخام مئير كاهانا وحزبه المسمى كاخ.

وقد انتخب كاهانا قبل أربع سنوات بسبب تبنيه قضية رئيسية وهي طرد جميع العرب من إسرائيل. وكان برنامجه السياسي ذاك أمراً سيئاً، في حين اعتبر الآخرون نجاحه في الانتخـابـات حظاً عاثـراً وشيئاً مربكاً. وبعد أربعة أعوام من الأعمال الإرهابية الوحشية والعديمة الشفقة، غير الناخبون موقفهم من كاهانا وأفكاره.

وقام معهد جافي للقضايا الاستراتيجية ذو المكانة المحترمة بإجراء استفتاء في شهر تمـوز عام ١٩٨٨ شمـل عينة نموذجية شاملة وعريضة من الإسرائيليين، وتناول موضوع الاستفتاء الأساليب المشروعة! لإخماد الانتفاضة العربية التي كانت قد بدأت قبل ثمانية أشهر. واعتقد معظم الذين خضعوا للاستفتاء (٥١٪) أن أسلوب الإبعاد (وهو تعبير لطيف يُقصد به طرد العرب) هو الخيار الأكثر قبولاً، وأيد (٣٩٪) مبدأ مقايضة الأرض بالسلام.

وتكررت نسبة (٥١٪) المؤيدين للإبعاد في استفتاءات أخرى.

واشتد قلق الأحزاب الكبيرة من استطلاعات الرأي العام التي جرت قبل الانتخابات وأظهرت أن حزب كاخ بزعامة كاهانا سيحصل على مقاعد يتراوح عددها من خمسة إلى أحد عشر مقعداً إذا ما أجريت الانتخابات في العام القادم. وإذا كانت الانتخابات القادمة صعبة ومتشعبة مثل سابقتها، وهو ما أشارت إليه جمع استطلاعات الرأي العام، فلا بد من التوصل إلى اتفاق ما مع كاهانا لتجنب تشكيل حكومة وحدة وطنية مرة أخرى. لم يكن هناك احتمال لأن يعقد حزب العمل صفقة مع كاهانا المنبوذ، أضف إلى ذلك تَشكُّل مصدر قلق آخر لدى الليكود تمثل في جذب كاهانا لمؤيدي الليكود وخفض عددهم، فدفع هذا الوضع الحزبين لطرح مشروع قانون في الكنيست يحظر اشتراك الأحزاب في الانتخابات، وتعاونا على إقراره ثم اتبعاه بإجراء تصويت يعلن أن كاهانا رجل عنصري.

وُجدت بعض الإشكالات المتعلقة بتوجه كاهانا القائم على طرد العرب. فأولاً، دعا الناس من جميع الألوان؛ أبيضهم وأسمرهم وأسودهم إلى الانضمام لحركته، فكاهانا لم يقتصـر على لون وعـرق واحـد فقط. وإن اتُّهم بشيء فهو تهمة التعصب لوطنه! وليس العنصرية. ثانياً، سمح لحزب آخر يدعى موليدت (الوطن الأم) بالاشتراك في الانتخابات حيث فاز بمقعـدين في الكنيست، ويتفـاخـرون اليوم بمنصب حصلوا عليه في مجلس الوزراء، علماً بأن برنامج مُوليدت السياسي لا يختلف عن برنامج كاخ إلا في استثناء العرب الإسـرائيليين من عملية الـطرد، وفي تفضيله فقط التـرحيل القسـري للسكـان العـرب المحليين. وأخيراً، كان كاهانا سياسياً شريفاً يندر أمثاله وغير متورط في فضائح مالية خلال حياته السياسية. واعتبر قسم لا بأس به من الجماهير أن كاهانا ضحية ومظلوم، وأثَّر ذلك جذرياً على النتائج النهائية.

توقع كاهانا مثل هذا التصرف من حزب العمل، وشعر أن الليكود خدعه وغرر به بعد أن اعتبـر الليكـود حليفاً طبيعيا له. (وكانت الدعابة في إسرائيل آنذاك تقول بأن كاهانا سيصبح وزير النقل في أي حكومة يشكلها الليكود). وأدار حملة قوية بين أتباعه لحضهم على ترك الليكـود والتصويت لأي حزب آخر، واستطاع تحقيق أهدافه المرجوة إذ كانت

الحملة قاسية مريرة، إضافة إلى أن حزب العمل اعتمد كلية على حملة تدعو إلى السلام زاعما أنه الحزب الوحيد القادر على التوصل إلى اتفاقية سلام، بيد أن زعم حزب العمل ذاك كان زائفا لأنه خاض أربعة حروب على مدى ثلاثين عاماً من استلامه السلطة، بينما لم يخض الليكود إلا حرباً واحدة منذ عام ١٩٧٧، وكان الليكود أول من عقد صفقة سلام مع دولة عربية في كامب ديفيد في ولاية ميريلاند الأمريكية. لقد ركزَّ الليكود على الجانب الاقتصادي وأعطى وعوداً فارغة للمواطنين المنهكين بتخليصهم من البيروقراطية المطبقة عليهم.

واتضح في النهاية أن القضية الأساسية كانت هجوماً متفقاً عليه ضد كاهانا. واحتفظ حزب العمـل كالعـادة بجمهور ناخبيه الضئيل وفشل في جذب المنشقين عن الأحزاب الأخرى لدعم بيريز. أما الليكود فقد خسر جزءاً مهماً من الأصوات التي دعمت أحزاباً أخرى إضافة إلى دعم اليمين وخصوصاً الأحزاب الدينية. وبعد عملية فرز الأصوات، تبين فوز الأحزاب الدينية بثمانية عشر مقعداً فتحكمت بقوة في تشكيل الحكومة التالية، وهذا ما فكرت فيه الأحزاب الدينية وما فكَّر فيه كل شخص.

كانت لدى بيريز أفكار أخرى. لقد أدرك يقيناً أن بإمكانه تشكيل حكومة إذا ما استطاع بطريقـة ما إقنـاع معظم أعضاء الكنيست الجدد من الحركة الأرثوذكسية بالانضمام إلى إئتلافه المقترح. ولهذا، ارتدى بيريز قلنسوة الرأس الصغيرة اليهودية وتقرب من الحاخامات الـذين يقـدِّمـون النصح للأحزاب السياسية، وعرض مناصب قيادية أكثر، وأموالاً أكثر، ومناصب حكومية أكثر مع سيارات مجانية وموظفي سكرتاريا وطرقاً لكسب مبالغ من الأموال العامَّة، غير أن القضية القديمة نفسها أعاقته مرة أخرى؛ قضية (من هو اليهودي؟).

وبـالـرغم من أن بيريز استعمـل أسلوب التـأخير بالمواربة والحيلة فيما يتعلق بهذه القضية، فقد أعلن شامير عن رغبته في التساهل ودعم التغيير في قانون تحديد اليهودي الحق. ولم يسبق للجالية اليهودية الأمريكية أن تصرَّفت بسرعة إزاء أي إعلان إسرائيلي بمثل تلك السرعة التي تصرَّفت بها إزاء إعلان شامير هذا، فتتابع عليه واحداً وراء الآخر كلٌ من كبار المنتفعين بالضرائب، وأفراد من جماعة الضغط البرلمانية، وزعماء محليون

كبـار وصغـار، وحاولوا تغيير تفكير شامير الذي قرر في نهاية المطاف أن قضية (من هو اليهودي) أسوأ من تشكيل حكومة وحدة وطنية أخرى بالتعاون مع حزب العمل.

كانت لدى شامير في تلك الجولة أوراق أكثر ليلعب بها حيث لم يجد حزب العمل أي فرصة مهما كانت للتوصل إلى اتفاق مع الأحزاب الدينية. غير أن بيريز كان سعيدا في نهـاية الأمر لاستلامه وزارة المالية، ذلك أنها منحته القوة والسلطة على انتشال المزارع التعاونية والصناعات المتدهورة التابعتين لحزب العمل من المأزق الذي وقعتا به وذلك عن طريق توفير المال اللازم لكلتيهما. وأصبح إسحق رابين وزيراً للدفاع بعد أن استقال من منصب رئـاسـة الـوزراء سابقاً بسبب تورطه بأعمال مصرفية غير شرعية، وكان هذا على الأرجح أسوأ جانب من الصفقة الجديدة. وبعد فترة قصيرة من تشكيل الحكومة، اندلعت ثورة سميت الانتفاضة، وكلَّف رابين بمسؤولية إخمادها، وتمخضت عن الأساليب التي اتبعها حالة يمكن تدريسها واعتمادها في كيفية تحويل تمرد ضعيف إلى مأساة دائمة، وليس القضاء عليه.

بعد أن استخدم بيريز أموال الحكومة بما يكفي للحفاظ على مصالحه دائرة لسنين قادمـة، قرر أن الوقت قد حان ليلعب بورقة أريبه درعي في محاولة لنزع السلطة من يد الحكومة. لقد فشل في إحداث أزمة حكومية كبيرة حول قضية وايزمن، لكنه وجد فرصة سانحـة أمامه عن طريق وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر. وبيكر هو وزير آخر من سلسلة طويلة من وزراء الخارجية الأمريكية الذين قرروا الإدلاء بدلوهم وتحمُّل مشاق حل النزاع العربي ـ الإسرائيلي، وقد أجرى مشاورات في القاهرة ثم توجه إلى إسرائيل حاملاً معه خطة من خمس نقاط وافقت عليها الحكومة المصرية واحتاجت إلى مصادقة الحكومة الإسرائيلية عليها.

كانت هنـاك نقطة رئيسية عالقة تمثلت برفض إسرائيل التفاوض مع منظمة التحرير الفلسـطينية لأن أي حكـومة توافق على ذلك ستثير فعلياً حرباً أهلية. واقترح بيكر على إسرائيل الاجتماع بممثلين فلسطينيين ممن طردوا من إسرائيل بسبب ممارسة نشاط لصالح منظمة التحرير الفلسطينية، وأصر على أن تتفاوض إسرائيل مع أشخاص عرب من سكان

LAU LIBRARY BEIRUT

القدس الشرقية. ولم يكن من السهل أبداً التطرق إلى النقطة الأخيرة، إذ أن القدس الشرقية تابعة لإسرائيل، وطرفي اليمين واليسار متفقان على أن القدس لن تُقسم أبداً في أي اتفاقية مستقبلية. وعندما تتفاوض إسرائيل مع سكان القدس الشرقية، فإنها تعطي رسالة واضحة تشير إلى إمكانية تقسيم القدس كثمن لا بد من دفعه. وكان شامير مجبراً على رفض هاتين الفقرتين من خطة بيكر، بينما أكد بيريز أن مسألة كهذه ستطيح بالحكومة فكانت رسالته «قل نعم لبيكر» لأن الفشل في ذلك سيؤدي إلى تقديمه طلب التصويت على اقتراح عدم الثقة في الكنيست. ولم يكن ذلك ليتحقق في الحالة العادية لولا أن شامير قد أغضب الأحزاب الدينية عندما رفض التعاون معها مفضِّلاً تشكيل حكومة اتحاد وطني مرة أخرى. وبالإضافة إلى ذلك، لم يعرف شامير أن بيريز توصل بطريقة ما إلى جعل خمسة أعضاء من حزب شاس يصوتون ضد الحكومة.

وباختصار، قال شامير: «لا» ردّاً على بيكر بينما عمل بيريز على إسقاط الحكومة. كان أمام بيريز طبقاً للقانون الإسرائيلي ثلاثة أسابيع لتشكيل إئتلاف جديد، وفي حالة فشله يأتي دور شامير ليحاول ذلك. وصارع الزعيمان كل منهما الآخر طيلة ثمانية وثمانين يوماً في رشوة الأحزاب الصغيرة للانضمام إلى إئتلافيهما. وأقنع بيريز حزب شاس بدعم طلبه التصويت على اقتراح عدم الثقة ولكنه أخطأ عندما ظن أن طلبه هذا قد عنى أن شاس سينضم إلى الحكومة. وبدا شامير وكأنه هُزم، فحزبه مؤلف من أحزاب عديدة غير متجانسة، وقد انفصل عن الليكود في الأشهر الماضية حزب كبير تزعمه أرييل شارون. وانفصل عنه أيضاً حزب آخر بزعامة إسحق موداعي، يدعى حزب الأحرار وحاز على خمسة مقاعد، وكان عليه إعادة شركائه القدامى إلى حظيرة إئتلاف الليكود قبل أن يكون باستطاعته جذب شركاء، وسيكلِّفه هذا الشيء الكثير.

وبينما كان شامير مشغولاً بتقوية وضعه وسد ثغراته مستخدماً الأموال العامَّة، أدركت قواعد حزب شاس أن درعي قد خدعهم بجر الحزب اليميني الاتجاه إلى الجناح اليساري، وأصبح ضحية تهديدات علنية بالموت حيث طبعت صورته على الملصقات وتلقى تهديدات عن طريق الرسائل والهاتف. وأخذ مؤيدو حزبه ينظرون إليه شيئاً فشيئاً على أنه خائن.

يطيع حزب شاس وحزبان دينيان آخران أوامر حاخام اسمه اليعيزر شاخ وأصله من لتوانيا. ويبلغ عمره (٩٣) عاماً وهو نصف أصم. ولوقف الانقسام والخلاف في حزب شاس، قام هذا الحاخام بمبادرة غير عادية حيث ظهر أمام عشرين ألفاً من مؤيديه الذين تجمعوا في مدرج رياضي. وغير التلفزيون الإسرائيلي مواعيد بث برامجه من أجل نقل هذا الحدث الكبير على الهواء مباشرة. وخاب رجاء معظم مشاهدي التلفزيون لأن الحاخام شاخ ليست له أسنان وليست لديه القدرة على رفع صوته فوق مستوى الهمس. ولم يفهم ما كان يتفوه به إلا ثلة من الناس، بيد أن تفسير حديثه في اليوم التالي كان واضحاً. لقد أدان الإسرائيليين لانصرافهم من أجل «تناول لحم الأرانب» في مزارعهم التعاونية، وأدانهم للحط من قدر القيم الدينية اليهودية. وكانت الرسالة واضحة وتقول: ممنوع على أفراد شاس التعامل مع بيريز.

استمرت الردة الدينية؛ فقد انشق عضوان من أعضاء حزب (أغودات إسرائيل) الخمسة وانضمّا لليكود، واستقال أحد أعضاء شاس ليجرب حظه مع الليكود، وهذا العضو هو وزير الاستيطان الحالي إسحق بيريتزر. وجازى شامير فيما بعد العضوين الإثنين المنشقين عن حزب (أغودات إسرائيل) خير الجزاء حيث استلم كل منهما منصب نائب وزير براتب شهري مقداره (٣٥٠٠) دولار، وخصص لكل واحد ميزانية بلغت مليون دولار وسيارات مجانية وخدمات مدفوعة الأجرة. ويعمل أبراهام فيرديجر الآن كنائب لوكيل مدينة القدس، وهو منصب لا معنى له، أما اليعيزر مزراحي فهو الآن نائب وزير الصحة، وهو منصب يمنح صاحبه سلطة ونفوذاً قوياً.

وكان شامير يحرز المكاسب، إلا أن الأفضلية والتفوق كان لبيريز إذ انضم إليه ثلاثة من أعضاء حزب (أغودات إسرائيل)، وكان قادراً على إبرام صفقة مع حزب الأحرار (الحزب الليبرالي). غير أن المدة الممنوحة لبيريز من أجل تشكيل الحكومة انتهت، فكان عليه إفساح المجال وفقاً للقانون العام أمام شامير اليميني ليحاول بدوره تشكيل الحكومة.

ومهما يكن، فقد هب رئيس إسرائيل حاييم هيرتزوغ العضو في حزب العمل لإنقاذ بيريز من وضعه الصعب. ومنصب الرئاسة هو منصب صوري لتحسين الصورة ويشبه إلى

LAU LIBRARY BEIRUT

حد ما منصب التاج الملكي البريطاني. والرئيس هو القدوة الأخلاقية وضمير الدولة، وبمقدوره فتح البرلمان أو إغلاقه. ويبدو أن هيرتزوغ لم يدرك وجود صراع أخلاقي على المصالح، فمدد الفترة الممنوحة لبيريز خمسة عشر يوماً إضافياً لتشكيل الحكومة. وليس مستغرباً أن يمنح الرئيس فترات إضافية، ولكن تصرُّفه ذاك في مثل هذه الحالة كان عملاً دنيئاً ونابعاً من سياسة المشايعة والمحاباة، وكان الهدف منه إنقاذ بيريز حيث إنه بمثابة وقف تنفيذ حكم صادر بحق مجرم ما.

تحمَّل بيريز ضربة أخرى عندما تدخَّل في ذلك النزاع حاخام من بروكلين، يبلغ من العمر (٨٦) عاماً ولم يأت قط إلى إسرائيل، ويعتبره العديد من أعضاء حزب (أغودات إسرائيل) بمثابة اليسوع المسيح. واسم هذا الحاخام مناحيم شنيرسون ويعرف بلقب «حاخام ليوبوفتشر»، وقد أصدر قراراً يمنع أتباع (أغودات إسرائيل) من دعم حكومة بيريز. ودفع ذلك إلى بيريز إلى استجداء أعضاء حزب الأحرار (أو الحزب الليبرالي) المنشقين عن الليكود، فعرض على ابراهام شارير استلام وزارتين في حكومته القادمة، وزاد من امتيازات عرضه على إسحق موداعي الذي عرض عليه استلام أي وزارة يشاء، غير أنهما قررا عدم إعطاء الجواب إلا بعد استنفاذ شامير مهلته لتشكيل الحكومة.

وتصاعدت حمى التنافس وأصبحت الأمور جدية، فقد أعلن موداعي رفضه الدخول في أية مفاوضات مع شامير ما لم يحصل على سند مالي بقيمة عشرة ملايين دولار وقابل للدفع في حالة فشل شامير في تشكيل الحكومة القادمة. وموداعي حاليا هو وزير المالية، ولم تكن هناك حاجة لصرف السند المالي ذاك. أما شارير فما يزال في منصب نائب وزير. واتبع شامير في تلك الأثناء نفس الأسلوب مع حزب العمل، إذ وجد عضو ساخط من حزب العمل يدعى إفرايم غور فأغراه بصفقة إن هو انفصل عن حزب العمل، وأعلن غور أنه سينضم إلى الليكود إذا كان بيريز غير قادر على تشكيل حكومة. وهو الآن نائب وزير النقل.

استغرقت جميع هذه الصفقات والمناورات وقتاً لا بأس به بين المد والجزر، وكان الرئيس هيرتزوغ مجبراً على منح شامير مهلة إضافية بلغت ثلاثة أسابيع لتشكيل حكومة.

LAU LIBRARY BEIRUT

وفي نهاية اليوم الثامن والثمانين، استطاع شامير تكوين أعظم مجلس للوزراء فساداً وسوءاً في تاريخ الدولة. ودفعت الجماهير ثمناً باهظاً لقاء ذلك المجلس، إذ بلغ مجموع عدد مناصب الوزراء ونواب الوزراء (٣٣) منصباً في دولة لا يتجاوز عدد سكانها خمس ملايين نسمة!، وخصصت ميزانية لكل منصب تتراوح ما بين مليون ومليوني دولار. ولكن الدلالة الوحيدة على انتهاج ما يسمى بسياسة المال كانت تخصيص مائة مليون دولار أمريكي من أموال الخزينة العامَّة وتسليمها إلى الأحزاب الدينية كمنح أو رشوة من أجل الاشتراك في تشكيل حكومة ما.

الفصل الرابع

سجِّل المجرمين

أمضت إسرائيل مدة ثمانية وثمانين يوماً من دون حكومة، وتوقفت معظم الأعمال والأنشطة الحكومية، بينما اندفع زعيما الحزبين الكبيرين بجنون لتكوين إئتلاف مؤقت كيفما اتفق ويمثل مصالح وفلسفات متباينة فيما بينها تباينا شديداً. ولم تكن حكومة عام ١٩٩٠ سوى أكثر جماعة من الناس قصوراً وجشعاً ودوغماتية سبق أن اجتمعت واتفقت على حكم إسرائيل [الدوغماتية ـ أو الجزمية ـ هي توكيد الرأي أو القطع به وكأنه عقيدة بأسلوب متغطرس أو من غير مبرر كاف لهذا الرأي ـ المترجم] وسنعرض فيما يلي نماذج من أعضاء مجلس الوزراء الحالي، أكبر زعماء الأرض، وأكثرهم موثوقية وأمانة كما هو مفترض.

● أرييل (أريك) شارون:

سَيُذكر شارون بأنه أشجع وربما أفضل جنرال في التاريخ العسكري الإسرائيلي وقد انتزع النصر بعد الهزيمة الكاملة في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ حيث قاد بنفسه قواته عبر قناة السويس محسناً التصرف مع تطويق جيشين مصريين. وعمل شارون عام ١٩٧٧ تحت مظلة حزبه الخاص «شلومتزون»، ثم انضم إلى الليكود بعد الانتخابات.

ويمثِّل شارون بوضوح استحالة إزاحة أي سياسي إسرائيلي رفيع المستوى عن منصبه مهما كانت فضيحته ومخازيه. كان شارون وزيراً للدفاع إبان مذابح صبرا وشاتيلا الشهيرة والتي حدثت في لبنان ١٩٨٢. وأجرت لجنة كاهانا تحقيقاً رسمياً في أمر المذابح، واتهمت شارون بالإهمال الشنيع وأوصت بإخراجه من مجلس الوزراء. غير أن

بقية أعضاء مجلس الوزراء بقيادة شامير كانوا معارضين لإخراج شارون من المجلس، إذ بذهابه تذهب أصوات مؤيديه المساندة لهم ومعها عدد لا بأس به من مقاعد حزب الليكود. ولعبت السياسة النفعية دورها في ذلك اليوم، فطُرِدَ من منصبه كوزير للدفاع من دون أن يخرج من مجلس الوزراء حيث عُيِّن أخيراً كوزير للصناعة، فألحق ضرراً بالغاً بالاقتصاد الإسرائيلي أكثر مما ألحقه بالاقتصاد اللبناني.

وسُئل مناحيم بيغن في إحدى المرات عن عدم تعيينه شارون وزيراً للدفاع، فأجاب برد سريع وحاسم أصبح مشهوراً الآن بأنه سيصاب بالذعر لرؤية الدبابات تحيط بالكنيست الإسرائيلي. ولكن حتى بيغن نفسه ـ وهو رجل المبادىء العظيمة ـ كان مُجبراً بقوة على قبول شارون وزيراً للدفاع بعد قيام منظمة التحرير الفلسطينية بشن سلسلة هجمات بالمدفعية والصواريخ على شمال إسرائيل وأدت هذه الهجمات إلى مطالبة الجماهير برد أكثر عداء وقسوة.

لبّى شارون رغبات الجماهير بعد إطلاق الرصاص على السفير الإسرائيلي في بريطانيا مما أدى إلى مصرعه، فأمر قوات جيش الدفاع الإسرائيلي بشن هجوم شامل على لبنان. كان شارون يعطي الأوامر العسكرية لضباطه ويبلغ مجلس الوزراء في الوقت نفسه عن أوامر مختلفة تماماً وزائفة، فقد أخبرهم عند بداية الحرب أن الهدف هو ضمان أمن منطقة تقع على خط يبعد أربعين كيلو متر عن حدود إسرائيل الشمالية، وهو المدى الفعّال لصواريخ الكاتيوشا.

ولم يكن بيغن يعلم أن القوات الإسرائيلية قد توغلت إلى عمق مائة كيلو متر في الأراضي اللبنانية، فأعلن أن الهدف من الحرب هو الوصول إلى عمق أربعين كيلو متر. وركز المراسلون الصحفيون على ما ظهر أنه كذب فاضح تفوهت به إسرائيل، ولكن الحقيقة أن شارون الذي بث ونشر هذه الكذبة. واستمر يكذب على مجلس الوزراء يوما بعد يوم بشأن الهدف من الحرب ومراحلها. وطبقاً لتعليق أحد الوزراء، كانت الطريقة الوحيدة لانتزاع الحقيقة من شارون في أيّ يوم هي قراءة الصحف في اليوم التالي.

LAU LIBRARY
BEIRUT

أضحت الحرب اللبنانية بالنسبة لإسرائيل كارثة محققة على صعيد العلاقات العامّة، ولكنها كانت قبيل مجازر صبرا وشاتيلا حرباً نافعة لإسرائيل، ذلك أن إسرائيل تكبدت خسارة طفيفة بلغت (٢٠٠) قتيل مقابل النجاح في إجبار منظمة التحرير الفلسطينية على الجلاء إلى أراضٍ بعيدة ويصعب الوصول عن طريقها إلى الحدود الإسرائيلية.

ولو أن شارون أعلن إحراز النصر عند هذه المرحلة، لعادت القوات الإسرائيلية إلى بلادها وقواعدها يكللها شرف أبدي. بيد أن خطط شارون كانت أعظم وأوسع من مجرَّد إحراز نصر عسكري متواضع، إذ كان يسعى لضمان ميراث لإسرائيل ألا وهو دويلة صديقة على حدودها الشمالية. وكان سينجح على الأغلب في تحقيق ذلك إلى درجة معينة لولا أن سوريا اغتالت حليفه السيء الرئيس بشير الجميِّل في انفجار قضى عليه.

استخدم شارون ذريعة إعادة النظام بعد عملية اغتيال بشير الجميِّل، فأمر قواته بالدخول إلى بيروت الغربية ذات الأغلبية المسلمة واتخذت مواضعها في النهاية خارج مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين، وهذان المخيمان يمكن وصفهما على وجه أدق بقريتين. رابَط داخل هاتين القريتين مقاتلون مسلحون من منظمة التحرير الفلسطينية مما كان يتعارض مع اتفاقية ترحيل المقاتلين والتي توصَّل إليها فيليب حبيب والحكومة اللبنانية. وأرادت إسرائيل إخراج هؤلاء المقاتلين، لكنها كانت حريصة على ألا يلقي أحد عليها مسؤولية التسبب في وقوع المزيد من الإصابات والكوارث. وكان هذا الهدف في ذهن شارون، فطلب من القوات النصرانية المارونية اللبنانية دخول المخيمين وذلك بعد يومين فقط من اغتيال الرئيس بشير الجميِّل، فنفذت ما طُلب منها باستمتاع وتلذذ وقتلت (٨٠٠) شخص في يوم عطلة نهاية الأسبوع. وأُجبر شارون على الاستقالة من منصبه نتيجة دوره الرئيسي في وقوع تلك الكارثة المفجعة. ولم يكن هو الشخص الوحيد الذي عنفته لجنة كاهانا، إذ تسربت أخبار المذبحة ووصلت إلى أذن الصحفي زئيف شيف الذي كان يعمل مع صحيفة هاآريتز، فحاول الاتصال مباشرة مع أعضاء من مجلس الوزراء ليعرف الإجراء الذي سيتخذ ضد القتلة المجرمين. وكان أول رجل تحدث معه وزير الخارجية إسحق شامير الذي رد عليه بتأنيب رسمي قاسٍ لأنه قطع عليه وجبة عطلته (ويذكر أن

المذبحة وقعت في يوم رأس السنة اليهودية الجديدة). إن قرار شامير الواضح بأن وجبة عشائه أكثر أهمية من القتل الجماعي سيعمل على إطالة أمد القتل وسفك الدماء يوماً فيوماً وسيكلِّف مئات الأرواح.

أصبح شارون بعد ذلك مجرد وزير للصناعة، وساعدته في ذلك بدون شك خبرته في مجال التكنولوجيا التجارية والتي تركمت لديه عندما كان جندياً وبوصفه صاحب مزرعة، فهو يملك أكبر مزرعة لتربية الخراف في إسرائيل، وبوصفه وزير الصناعة، قام بعمل احتكاري من دون تردد حيث رفع قيمة التعرفة الجمركية على الخراف المستوردة مخلِّصاً بذلك دولته من طوفان الحمل الإسكتلندي. ثم بدأ بجعل البضائع المحلية غير مجدية اقتصادياً، إذ توصَّل مع الولايات المتحدة الأمريكية إلى اتفاقية التجارة الحرة التي كان من المفترض أن تخفض التعرفة والرسوم الجمركية المفروضة على البضائع المتبادلة بين الدولتين إلى أن تلغى في نهاية المطاف. وتبدو فكرة هذه الاتفاقية للوهلة الأولى مفيدة لإسرائيل، ذلك السوق الصغير الذي يملك ميزة الوصول والتعامل المباشر مع أكبر سوق في العالم.

لقد بقيت المنتجات الإسرائيلية منتعشة في سوقها المحلي قبل اتفاقية التجارة الحرة نظراً لارتفاع نسبة الجمارك المفروضة على البضائع الأجنبية التي يصل سعرها إلى ضعف سعر مثيلاتها الإسرائيلية. وما إن طبِّقت بنود الاتفاقية حتى بدأت تعطي عكس النتائج المرجوة، فالبضائع الاستهلاكية الإسرائيلية بدت رديئة جدا بالمقارنة مع البضائع الأمريكية، ولم تستطع القلة المنتجة ذات الجودة العالية أن تدخل السوق الأمريكي الشديد المنافسة لأن هؤلاء المنتجين كانت تنقصهم الإمكانيات المالية ومهارات ترويج سلعهم نتيجة العيش طويلاً تحت ظل نظام سوق يتمتع بالحماية.

وبدأت شركة الدخان الإسرائيلية المحتكرة (ديوبك) تتجه نحو الإفلاس منذ أن انخفضت أسعار لفافات التبغ من نوع مارلبورو وزادت بشدة مبيعات معجون الأسنان من نوع (كريست) مقارنة بنظيره الإسرائيلي الصنع الذي بدا وكأنه مادة الحوار الكلسية المغموسة في غسول الضأن [غَسول الضأن هو سائل كيميائي تغطس فيه الخراف لتطهيرها

LAU LIBRARY BEIRUT

من الحشرات الطفيلية]. وتفوّق مذاق رقائق الذرة الأمريكية من نوع (كيلوغ) على نظيراتها الإسرائيلية من منتجات (تيلما).

وسبب دخول شارون المتحمس ميدان التجارة الدولية أصداء أخرى في الكنيست. كانت الحكومة تكسب أموالاً عن طريق الرسوم الجمركية على المستوردات أكثر مما تكسبه عن طريق فرض ضرائب الدخل. وفي كل مرة يشتري فيها أحدهم في إسرائيل أسوأ وأصغر وأرخص سيارة متوفرة هناك، تضيف الحكومة إلى خزينتها مبلغ سبعة آلاف دولار كرسوم. وإذا دخلت السيارات الأمريكية السوق الإسرائيلي من دون رسوم جمركية فستخسر الحكومة من عائداتها أكثر مما تستطيع تعويضه عن طريق فرض الضرائب على المنتجات الإسرائيلية المصدَّرة إلى الخارج مثل قشور البرتقال المكسو بالشوكلاته والمحولات الكهربائية. لقد تمثلت خطة شارون في استنزاف الشريان المالي الحيوي للدولة، في الوقت الذي لم توجد فيه طريقة سهلة للحصول على مقادير مالية مكافئة من الشعب المنهك مادياً مقابل تلك التي اكتسبت من غير جهد ولا مهارة. وزبدة القول أنه، توجَّب على شارون إخراج بلاده من الورطة المتمثلة بتلك الاتفاقية المشهود عليها والقانونية والموقعة بين الدولتين.

انتهج شارون أسلوباً إسرائيلياً نموذجياً صرفاً، فبحث عن نقاط في الاتفاقية تظهر تعسفات من الجانب الأمريكي ومثيرة للخلاف، وادعى أن أمريكا كانت تحتال على إسرائيل. وحول التناقضات الثانوية إلى قضية عامَّة ذات أهمية حيث أثار مسألة تشكيل الأمريكيين لجنة للإشراف على إدارة الاتفاقية. وبعد أن سافر وفد إسرائيلي إلى واشنطن للتعبير وبث شكاويهم، توصَّل الأمريكيون إلى استنتاج صحيح مفاده أن الإسرائيليين كانوا يبذلون جهوداً كبيرة للتخلص من الاتفاقية برمتها ونقضها. ولا تزال تلك المعاهدة على الورق، ولكن لا وجود للسيارات الأمريكية من نوع (فورد) و(بويك) المعفاة من الرسوم في دولة تزخر بسيارات متواضعة من نوع (فيات) و(مترو).

قرر شارون وقف نشاطه في المسائل المتعلقة بالجانب الصناعي بعد أن فَتَّتَ المعاهدة التي استنبط فكرتها. وأقام دعوى على مجلة تايم الأمريكية للتشهير به بعد أن

ادَّعت المجلة أنه خطط لمذبحة صبرا وشاتيلا بالتعاون مع قادة حزب الكتائب. وبافتراض صحة ما جاءت به مجلة التايم، يكون شارون شريكاً في جريمة القتل الجماعي وليس فقط مهملاً. إلا أن مجلة التايم ارتكبت خطأً جسيماً، وتمت تبرئة شارون وإبعاده عن دائرة الشبهات.

أمضى شارون أربعة أشهر في الولايات المتحدة، فقام خلال الشهرين الأول والثاني بجمع أموال الضرائب من أجل محاكمته، وقضى الشهرين الأخيرين في جناح فاخر جداً في فندق بلازا. وقرر أن لا يغيب عن مسرح الأحداث لفترة مؤقتة، فغادر إسرائيل من دون أن يضع شخصاً مسؤولاً عن شؤون وزارته لمدة ثلث العام، ولم يكن هناك خلال تلك الفترة مسؤول عن إيجاد فرص عمل في ميدان الصناعة، وجلب التقنية الحديثة أو خلق منتجات مفيدة. تملك الحكومة (٨٠٠) مصنع من أصل (١٣٠٠) مصنع هام بشكل مباشر أو غير مباشر، ولهذا السبب تباطأت وتيرة النشاط الاقتصادي إلى أن تحولت إلى حالة من الركود التام خلال غياب شارون عن عمله.

ومن ناحية أخرى، أزيح الستار في فترة غيابه في الخارج عن مثال صارخ يتعلق بالمحسوبية السافرة الواضحة، فقد أوردت صحيفة هاآريتز في عددها الصادر بتاريخ ١٩/أيلول/١٩٨٥ [وهي الصحيفة الحسنة السمعة] بأن شارون هدف إلى ضمان سيطرته «عن طريق تعيين (٢٣) مديراً من المؤيدين لحزب الليكود خلال فترة عمله في منصب وزير الصناعة والتجارة. وهذا العدد هو من أصل (٢٧) مديراً تم تعيينهم حديثاً آنذاك. وكون المرء مديراً يعني حصوله على راتب كبير والعيش بسعادة وراحة. وقد انحصرت معظم هذه المناصب بأتباعه وليس ـ طبعاً ـ بالخبراء في ميدان الصناعة والتجارة.

وفي تقرير لها عام ١٩٩٠، أشارت مراقبة النفقات الحكومية مريم بن بورات المحترمة والمستقيمة تماماً إلى «الطريق العشوائية غير المدروسة، والتخطيط السيء، والانتهاكات الفاضحة للقانون، والتي تميَّزت بأجمعها نشاطات وزارة الصناعة والتجارة». وقد وجدت عدداً من النماذج الجيدة على أخلاقية عمله، ومنها على سبيل المثال استخدام أحد مؤيديه بأجر ليكون مستشاره في المسائل الزراعية. ولسوء الحظ، لم يكن هناك وجود لمثل هذا

LAU LIBRARY BEIRUT

المنصب في الوزارة ولم توافق عليه سلطة الخدمات المدنية، وقد اتَّبع شارون أسلوب المراوغة والحيلة فاستأجر ذلك الشخص على أنه «مقاول خارجي». ولم يعرف أحد المجال الذي تم التعاقد عليه مع ذلك المقاول، وبدا أنه بارع جداً في عمله لدرجة قيام شامير بمنحه منصباً آخر هو «مستشار الوزير لشؤون التنمية». ولم يُستحدث هذا المنصب من قبل أبداً، ولكنه لم يتطلب حتما إلا جهدا يسيرا ومهمات بسيطة لأنه يطلب من المستشار الجديد هذا التخلي عن عمله كمقاول خارجي.

وباختصار، تقاضى ذلك التابع المحظوظ راتبين اثنين من دون عمل أو امتهان شيء. وكما أشارت مريم بن بورات: «كان من الواضح أن حصوله على الوظيفة واستمراره فيها يعتبر انتهاكاً للقانون». وحسب رأي مراقبة نفقات الدولة، يجب النظر إلى سلوك الوزارة.. «باهتمام وتنبه».

وأساء شارون استخدام سلطته بطرق أخرى عديدة أخرى، فمثلاً حصل على منح مالية هامة لصرفها على تطوير وإجراء بحوث خاصة بمشاريع تم إنهاؤها. وفي قضية أخرى (بعد رفض سلطة الخدمة المدنية طلبه لتحويل هذه المنح إليه) استطاع إغراء امرأتين من وزارات أخرى بالعمل لديه عن طريق دفع رواتب ضخمة لهما مقتطعة من أموال الدولة.

ويبدو أن شارون قد أدار وزارة صناعة فاسدة، ومع ذلك أوكلت إليه بعد تشكيل الحكومة الجديدة في آيار عام ١٩٩٠ مهمة أكثر أهمية ليقوم فقط بتنفيذ بأسلوب خاطىء، إنها مهمة إيجاد أماكن سكن جديدة بوصفه وزيراً للإسكان. كان توقيت توليته هذا المنصب توقيتاً دقيقاً وهاماً جداً، وهو أكثر المناصب ارتباطاً بالإيديولوجية في الحكومة الإسرائيلية التي كان ينقصها رئيس وزراء مقتدر. وبحلول شهر أيار عام ١٩٨٨ أدت سياسة البيروسترويكا والغلاسنوست السوفييتية إلى هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل بموجات هائلة. ويرجَّح أن هذا الطوفان البشري قد زاد عدد السكان اليهود بنسبة (٢٥٪).

وتنتظر إسرائيل منذ وقت طويل زيادة عدد سكانها اليهود لتلحق بمعدل ولادة السكان العرب المخيف ضمن حدودها. وكانت الهجرة اليهودية ما تزال آنذاك مسألة حساسة جداً في الكرملين مع مجمل روابطه الحيوية بالعالم العربي، ولم يكن يسمح لشيء أن يُغضب

LAU LIBRARY BEIRUT

المشاعر النزقة للقيادة السوفييتية.

قررت القيادة الإسرائيلية الاهتمام بالإيديولوجية على حساب الهجرة الضخمة. وعبَّر شارون عدة مرات علناً عن تصوره المستقبلي بتوطين عدة ملايين من اليهود في وادي الأردن (المعروف باسم الضفة الغربية). وبيَّن السوفييت ضمنياً أنّ وضع وتوطين اليهود السوفييت في الضفة الغربية سيعرض مشروع الهجرة كاملاً لخطر داهم. وإذن، مَنْ أفضلُ من شارون في وزارة الإسكان لتهدئة مخاوفهم؟!

لم يخذل شارون أحداً، وهو يمتلك مزرعة لتربية المواشي مساحتها ألف آكر(*) - الآكر: (٤٠٤٧) متراً مربعاً -، وشعر مع ذلك بضيق - وهو أمر مفهوم لمن هم في مثل حالته - فاشترى بيتاً في الحي الإسلامي في المدينة القديمة في القدس، حيث يوجد قانون غير مكتوب يقسم المدينة القديمة ويبقي سكانها في أحياء منفصلة. وكان بيت شارون يمثل استفزازاً متعمداً ورسالة تقول بأن باستطاعة أي يهودي العيش في أي مكان يرغب في طول بلده! وعرضها - وربما كان ذلك عاطفة نبيلة ولكنها تلقي حملاً ثقيلاً على الإسرائيليين الذين لا يشاطرونه الرأي فيها. وبالإضافة إلى كلفة البيت، يرابط ثمانية حراس خارج بيته بشكل دائم، وتدفع رواتبهم من الأموال المأخوذة من الشعب الذي أنهكته الضرائب والمحاصر في حياته.

يوم عيد الفصح السابق حصلت مفاجأة أخرى لسكان الحي النصراني وكانت تلك المرة في المدينة المسوَّرة، إذ انتقل مائة وخمسة عشر يهودياً إلى مبنى واقع في حيهم. واحتج رجال الدين المسيحي، وشاهد العالم كله إسرائيل تتلقى صفعة أخرى تشوه صورتها في المحافل الدولية حيث اشتبك القساوسة المرتدين عباءات سوداء والحاملين صلبان كبيرة مع الجنود في مواكب عيد الفصح الاحتفالية. ولم يكن جمهور ناخبين تستطيع إسرائيل تجييره لحسابها، فالنصارى المتدينون وخاصة في الولايات المتحدة هم من بين أشد المؤيدين إخلاصاً لإسرائيل، والسبب الأكبر هو أنهم يرون في قيام الدولة اليهودية إرهاصات تبشر بالقدوم الثاني للسيد المسيح (عليه السلام).

(*) آكر = فدان.

كانت عملية شراء المبنى صحيحة من الناحية القانونية. وتلقى صاحبه مبلغ (٤,٦) مليون دولار ثمناً له، وهو سعر أعلى بكثير من القيْمة الحقيقية إذ افتتح به صاحب المبنى محلاً تجارياً خارج إسرائيل. ولم تكن الأرض مقدّسة، بل مجمدة وغير مستغلة، ولو تمت الصفقة في غير مدينة القدس لاعتبرت صفقة نزيهة، ولهذا نُظر إليها كتدخل كاف لإحداث شرارة العنف. وبالرغم من ذلك كانت صفقة خاصة، أليس كذلك؟

لم تكن في الواقع صفقة خاصة حيث ساهمت وزارة الإسكان التي كان يريدها ديفيد ليفي بمبلغ كبير لشراء تلك الملكية. وهكذا استُخدم المال العام مرة أخرى لتحريك مشكلة تتعلق بتعزيز أيدولوجية حزب الليكود. وغضب الأمريكيون بشدة لدى اكتشاف ضلوع حكومة إسرائيل في عملية شراء المبنى، فأسقطوا المبلغ الذي ساهمت فيه من المساعدة الاقتصادية التي كان من المقرر دفعها لإسرائيل في العام المقبل.

واستمرت الاستفزازات، فأعلن شامير أن إسرائيل ستحتاج إلى رقعة أرض أكبر نظراً لعدد السكان الهائل القادمين حديثاً من روسيا. أما الدول العربية، فقد شعرت بالخوف جرّاء الهجرة السوفييتية، فاستخدمت إعلان شامير ذاك كدليل على أن حكومة إسرائيل كانت تستخدم اليهود السوفييت لملء الأراضي المحتلة المتنازع عليها. ونجحت في إجبار غورباتشوف على التهديد بوقف الهجرة إذا ما كان شامير يدلل فعلاً على السياسة الإسرائيلية. والحقيقة أن شامير أشار إلى تلك السياسة بعينها، بيد أن ما نسبته أقل من (١٪) من اليهود السوفييت قد اختار العيش في الأراضي المحتلة، واستاء وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر بشدة من تهديد الزعيم السوفييتي بوقف الهجرة وأجبره على التراجع عن موقفه. واستمر اليهود السوفييت بالتدفق أفواجاً على إسرائيل بالرغم من سوء إدارات شارون لعملية الاستيطان.

استمر شارون في توقيت أعماله بشكل متعمد مدروس، فعندما زار جيمس بيكر إسرائيل بعد انتهاء حرب الخليج بهدف دفع مبادرة سلام جديدة قُدُماً إلى الأمام والتي تمثّل فرصة له، أمر شارون ببناء مستوطنتين جديدتين. ونتيجة لذلك، وعندما زار شارون واشنطن بعد مرور شهر، وصفه بيكر بأنه عقبة في طريق السلام ورفض السماح له بحضور اجتماع

في البيت الأبيض مع وزير الإسكان الأمريكي جاك كيمب.

كانت مدة رئاسة شارون لوزارة الإسكان بمثابة كارثة ليس فقط بالنسبة للمتزوجين الجدد الذين أُجبروا على الخروج من ميدان سوق الإسكان الباهظ بسبب سياسات الدولة، وإنما أيضاً وبشكل خاص لأولئك المهاجرين الجدد الذين تم توزيعهم مبدئياً على معسكرات الجيش أو إسكان كل ثلاث أسر في شقة واحدة. وسيبحث موضوع الإخفاق التام لعملية الإسكان بتفصيل مسهب، ولكن من الجدير ذكره أن أحد أسباب هذه الكارثة هو العداوة المتأصلة بين شارون ووزير المالية إسحق موداعي.

• إسحق موداعي:

يتذكر القارىء أن إسحق موداعي وافق على الانضمام إلى الإئتلاف الحكومي الجديد إذا منحه شامير شيكاً بمبلغ عشرة ملايين دولار قابلاً للصرف في حالة إخفاق شامير في تشكيل الحكومة. وتمّت مكافأته لقاء مهارته في الأمور المالية وذلك بأن عُين وزيراً للمالية. ولحسن حظه لم يكن متبجحاً وصفيقاً في تسليم أموال الحكومة إلى مؤيديه كما كان يفعل سلفه بيريز، بل كان أسلوبه في الحفاظ على النظام والوضع الراهن آنذاك أشد خبثاً ومكراً، إذ احتجز تلك الأموال. ومن الأمثلة الجيدة على ذلك رفضه تمويل برامج دعم الأطباء السوفييت التي جمدّت سابقاً والذين بلغ عددهم آنذاك سبعة آلاف طبيب. ولا يستطيع الأطباء الإسرائيليون كسب مال كاف إلا بعد إنهاء ساعات الخدمة الصحية الحكومية إذ يمكنهم بعد ذلك ممارسة مهنة الطب في عياداتهم الطبية الخاصة والمكلفة. وكان الأطباء السوفييت المزاحمون لنظرائهم يحصلون على أجر قليل ولا سيما أنهم متواضعون في عيشهم.

وأظهر موداعي قلقه على الصالح العام فنبّه جميع الإسرائيليين إلى وجوب خفض مستوى معيشتهم للتكيّف مع وضع المهاجرين الجدد، ثم اقترح سَنّ تشريع لخفض الحد الأدنى للأجور بحيث يصل إلى أقل من دولارين في الساعة، ولفرض الضرائب على الفنادق سواء كانت حكومية أم خاصة وعلى الأموال المدخرة. ولم يرغب في إعطاء شامير

LAU LIBRARY
BEIRUT

ما يحتاجه لبناء الوحدات السكنية. ووصل الأمر إلى ذروته في شهر أيار عام ١٩٩١ عندما كشف الإثنان عما يجول في ذهنهما وذلك في أحد الاجتماعات الوزارية. وحسب ما ذكره بعض مشاهدي الحادثة، اهتاج شارون بشدة وأذهل الحضور الذين انفضوا باستياء واشمئزاز، وعلّق أحدهم قائلا: «تقوم الحكومتان بأعمال تخريبية ضد بعضهما بعضاً». واعترف شاهد آخر من الليكود قائلاً بحزن: «هذا العمل لا يفيد شيئاً». وهكذا إذاً، يضع شارون خططاً للإسكان بينما يرفضها موداعي. والنتيجة هي نقص خطير في المساكن ممّا سيجعل مئات الآلاف من الإسرائيليين يملأون الشوارع إما للعيش فيها أو لإثارة الشغب والإخلال بالأمن. واكتمل بناء (٤٥٠٠) وحدة سكنية من أصل (٤٥) ألف وحدة خطط شارون لبنائها عام ١٩٩٠. وهذا الرقم يماثل عدد العائلات التي تصل إلى إسرائيل كل أربعة شهور. ويظهر لنا بعملية حسابية بسيطة أن مشكلة الإسكان تتزايد وتتفاقم بسرعة.

وكانت أشنع أعمال موداعي فيما يتعلق بالمحسوبية هو استغلال منصبه لتعيين مستشاره (سلفان شالوم) البالغ من العمر (٣٢) عاماً رئيساً لمؤسسة الكهرباء الإسرائيلية وبراتب قدره (٦٠) ألف دولار. وكان سلفان قبل ستة أعوام رئيساً لاتحاد طلبة الليكود. وقد عبَّر الكاتب غوئيل باينرمان في صحيفة (جيروزالم بوست) عن ازدرائه لموداعي وشارون، وأشار إلى النظام الفاسد الذي يدعمهما، فقال: «يستطيع موداعي بوصفه وزيراً للمالية وضع ميزانية تبلغ (٢,٨) مليار شيكل (ما يعادل (١,٨) مليار دولار) بين يدي شخص لا يملك أية خبرة تشير إلى ذكائه وفطنته المهنية.. ومن الواضح تماماً أن موداعي كان يخدم مصلحته الخاصة».

لم تَخْفَ سياسات موداعي عن بقية أعضاء الحكومة أيضاً، وهذا ما يبينه آشر ولفش، فيذكر: «.. يصف حزب الليكود موداعي كمبتزّ يعرف كيف يشق طريقه.. وأسوأ أنماط المبتزين هم المبتزون الناجحون.. ويخلق كل ذلك مخططا جيدا لعمليات الخداع والاحتيال التي تمارس في البرلمان، والتي تكون بصورة رئيسة على حساب الاقتصاد الوطني».

ولكي لا نكون متحيزين، يجب أن نذكر أن بقية أعضاء مجلس الوزراء قد وقفوا في

وجه موداعي إزاء كل مشروع طرحه. هذه هي حالة الشؤون المالية في دولة إسرائيل، إذ يمقت كل عضو في الحكومة وزير المالية ويمنعه من أداء عمله. فيا لهذه الفوضى السياسية التي تضرب أطنابها في إسرائيل!!

● ديفيد ليفي:

ينقسم تجمع الليكود إلى ثلاثة أحزاب رئيسية، وأقوى هذه الثلاثة يتزعمه شامير ويمثل شامير حزب حيروت (الحرية) الأصلي الذي ترجع جذوره إلى دولة بولندا في عقد الثلاثينات. وبقي حيروت الحزب المعارض في الكنيست منذ تأسيس دولة إسرائيل إلى انتخابات عام ١٩٧٧ عند ترشيح بيغن للسلطة.

ويتزعم شارون الحزب الرئيسي الثاني بعد أن ترك الميدان العسكري كبطل واستخدم شعبيته لتوحيد ولم شمل بعض السياسيين المتنفذين والذين لا ينتهجون خطاً سياسياً معيناً، ووضعهم تحت جناحه، ويعتبر هذا الحزب أشد أحزاب الليكود تعصبا، وعندما جرت المساومة على إشغال منصب وزاري خلال تشكيل الحكومة عام ١٩٩٠، اختار شارون بحبور وزارة الإسكان التي كانت بمثابة نقطة انطلاق مثالية للتحكم بتسوية النزاع حول الأراضي المحتلة.

ويضم الليكود أحزابا صغيرة، مثل الحزب الليبرالي الذي يتزعمه موداعي، ولإشباع نهم موداعي وتعطشه للسلطة، سمح له شامير بالإشراف على الإنفاق الحكومي، مانحاً إياه منصب وزير المالية.

أما الحزب الثالث الرئيسي فيقوده ديفيد ليفي، وأفضل ما يوصف به أنه حزب الناخبين العمال من الطبقة الكادحة، وهذا الحزب له دور هام جداً في تجمع الليكود لأن معظم اليهود العمال المدلين بأصواتهم يختارون دعم الاتجاه اليميني في جميع الانتخابات. وإذا ما قرر ليفي ومؤيدوه ترك الليكود، فلن يكون باستطاعة الحزب الاستحواذ على السلطة مرة ثانية. وبينما أراد شارون الحصول على منصبه الوزاري من أجل تعزيز أيديولوجيته، وأراد موداعي الفوز بمنصب في وزارة المال لا ينازعه فيه أحد، كان ليفي يسعى للحصول على

LAU LIBRARY BEIRUT

مركز محترم ومكانة مرموقة أكثر من سعيه وراء الأشياء الأخرى. ووجد في شهر أيار عام ١٩٩٠ الوسيلة الفضلى لتحقيق هدفه حيث أصبح وزيراً للخارجية. ولسوء الحظ، كان عدد قليل من الأشخاص في الحكومة بأسرها أقل كفاءة من ديفيد ليفي لشغل هذا المنصب الحيوي، وتمنى معظم المعنيين ألا يقبل هذا المنصب، ولكن آمال الأمة ضاعت ولم تتحقق.

يرجع الفضل في نجاح مناحيم بيغن في الانتخابات إلى أصوات العمال من يهود السفارديم، ولهذا بدا له من المنطقي أن يعين هؤلاء العمال من السفارديم في منصب وزاري هام. وأصبح ليفي أعلى المرشحين رتبة، وهو مقاول يتحدر من أصل مغربي، وكان يعيش في بلدة قيد التطوير والنماء في شمال إسرائيل.

إن سيرة ليفي ومؤهلاته العلمية لا تؤهله لاستلام منصب وزاري رفيع المستوى، فهو مقاول بناء عصامي بنى نفسه بنفسه، ولم يكمل قط تعليمه الثانوي في المدرسة. ومما يزيد الأمر سوءاً وتثبيطاً أنه لم يخدم في القوات المسلحة على الرغم من قدرته البدنية الكاملة التي تؤهله للخدمة. وقد خرّج الجيش الإسرائيلي عدداً كبيراً من رجال السياسة وزعمائها من أمثال الجنرال دايان والجنرال رابين والجنرال شارون.

ويمكن تلخيص الوضع الحالي الباعث على الحزن بإشارة إلى أن وزير خارجية إسرائيل الذي له تأثير كبير على القرارات العسكرية العليا لم يخدم يوماً واحداً في الجيش، وأن ذلك الوزير الذي يتوجب عليه السفر إلى واشنطن ليدير حواراً مع خريجي جامعتي (جورج تاون) و(هارفارد)، لم يستطع إكمال المرحلة الثانوية في مدرسته، غير أن الوضع يزداد سوءاً، إذ تختار إسرائيل دوماً وزراء خارجيتها ممن يتكلمون الإنكليزية مثل أبا إيبان وموشي أرينز نظراً لروابطها الحيوية مع الولايات المتحدة الأمريكية، ولذلك يكون الإلمام الجيد باللغة الإنكليزية شرطاً أساسياً لاستلام منصب وزير الخارجية بسبب خطورة الفوارق اللغوية الدقيقة في استخدام اللغة. ويبدو وكأن الأخذ بهذا الشرط قد توقف عند مجيء ديفيد ليفي الذي يعتبر أول وزير خارجية في تاريخ إسرائيل لا يعرف شيئاً من قواعد اللغة الإنكليزية الأساسية.

أدرك بيغن نقاط ضعف ليفي فعرض عليه منصباً وزارياً أقل أهمية آنذاك وهو منصب وزير الإسكان، غير أنه اضطر لتعيينه نائباً لرئيس الوزراء أيضاً لاسترضاء يهود السفارديم. واستغل ليفي وزارة الإسكان ليجعلها نقطة انطلاق للاستحوذ على السلطة، وقد حاول أتباعه في أحد مؤتمرات الليكود شق طريقهم إلى القمة عن طريق رمي الكراسي على الآخرين وضرب منافسيهم وخلق صخب وفوضى عارمة. ورغم سوء وبشاعة هذا العرض الذي خيب آمال المواطنين، قام حزب شارون بتكريره مرة أخرى قُبَيْل سقوط الحكومة عام ١٩٩٠.

أهين ديفيد ليفي بعد استلامه فعليا منصب نائب رئيس الوزراء لأن شامير غادر إسرائيل في رحلة عمل واحتفظ لنفسه فقط بسلطة اتخاذ القرارات الهامة بالرغم من أن ليفي كان من الناحية النظرية يقود الدولة أثناء غياب رئيس الوزراء الحقيقي خارج البلاد. وبعد أن أدرك ليفي زيف منصبه كنائب لرئيس الوزراء الذي كان مجرد خدعة، ظهر في نهاية المطاف في حديث متلفز أمام حشد مؤيد له وأعلن عن رأيه في منصبه بكلمات رديئة حيث قال: «زنجي سيء يعمل بينما زنجي آخر سيء خارج البلاد».

أصيب المجتمع الإسرائيلي بالفزع لشدة وقاحة ليفي ولكنه لم يندهش لأن ليفي كان موضوع نصف النكات التي استنبطها المجتمع هناك. فكما يتداول الأمريكيون نكاتاً بولندية، ويتداول البريطانيون نكاتاً إيرلندية؛ يتداول الإسرائيليون أيضاً نكاتاً تتعلق بديفيد ليفي. ويقال بأن حريقا أصاب منزله وأتلف مكتبته، ففقد كتابين ولم يكن قد أتم تلوين أحدهما بعد. وبالرغم من استئجاره مزين وجوه قام بالاعتناء بشعره وتزويده بنظارات ثمينة تجعله يبدو كأحد المفكرين اللامعين، ولم يستطع منع المثقفين الإسرائيليين عن اتخاذه هدفاً للنكات، إضافة إلى شريحة كبيرة من بقية المجتمع ممن يمتلكون فطرة سليمة.

وما إن حل البلاء بتعيين ليفي وزيراً للخارجية حتى شاعت في إسرائيل سلسلة من الدعابات حول ليفي. ومن هذه الدعابات تلك التي أطلقت قبيل سفره إلى واشنطن أول مرة كوزير للخارجية: كلمة (كولونيا بعد الحلاقة) في اللغة العبرية هي نفسها في الإنكليزية (affer shave). كان ليفي في واشنطن في إحدى الصيدليات، فسأل المترجم

LAU LIBRARY BEIRUT

المرافق له: «كيف تقول كلمة "affer shave" في اللغة الإنكليزية؟».

كانت رحلته إلى واشنطن دعابة في حد ذاتها ولكنَّه لم يفهمها، وكان معجباً أيما إعجاب بلقاءاته مع وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر الذي يدعوه ليفي حاليا «صديقي الحميم»، مما يسبب غماً وكدراً لبيكر.

وادعى أنه حمل بيكر على تغيير آرائه وجعلها توافق مواقف إسرائيل الأساسية إزاء حرب الخليج وإزاء المحاولة المتوقعة للوصول إلى حل النزاع العربي الإسرائيلي بعد انتهاء الحرب. وفي الواقع، وبفضل العلاقة الوثيقة الفريدة بين ليفي وجيم تعززت العلاقات الأمريكية الإسرائيلية وعادت الثقة إلى مكانها، وتم التمهيد لمرحلة جديدة وجيدة من التفاهم. وسيكون هو وجيم من الآن فصاعداً على اتصال مستمر وجاهزين لتبادل الأفكار ووجهات النظر في الأوقات الحرجة.

وفات ليفي كعادته إدراك حقيقة الموقف، فأعلن مخاطباً حشداً من زعماء اليهود الأمريكيين: «نحن الآن في مستهل عهد جديد من العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة. أنا سعيد جداً بذلك، وسعيد لأنني كنت الأداة التي ساهمت في تحقيق ذلك». غير أن أحد الأمريكيين ممن حضر الاجتماع أدرك أن ليفي قد خُدع بسبب الجو الودي الذي أحاط الاجتماع الأول، ولم يكن ليفي قد غادر الولايات المتحدة عندما أعلن جيمس بيكر أنه سيسافر إلى سورية لتقوية العلاقات مع ألد أعداء إسرائيل.

لم يترك ليفي انطباعاً قوياً في واشنطن، واستعمل بعض مسؤولي وزارة الخارجية الأمريكية كلمة «خفيف الوزن» لوصفه، إلا أنه لم تكن لوزارة الخارجية اعتراضات على خفة وزن وزراء إسرائيل، وبإبداء القدر الكافي من التملق والمديح مع بعض التحقيقات واللقاءات الصحفية البرَّاقة والمنمقة، يمكن جعل المسؤولين الإسرائيليين طيِّعين ومساندين للمصالح الأمريكية. وكان ليفي متلهفاً للعمل مع الأمريكيين بنفس درجة تلهف الأمريكيين لاستمالته إلى جناحهم. وإذا ما تم التوصل إلى اتفاقية سلام، فإنها ستعيد إليه اعتباره واحترامه بعد أن سخر منه بعض المسؤولين في إسرائيل.

LAU LIBRARY
BEIRUT

فاوض ليفي الأمريكيين حول موضوع قرض بقيمة (٤٠٠) مليون دولار مخصصة لإيواء اليهود السوفييت القادمين إلى إسرائيل، وأرسل رسالة إلى بيكر تبين الشروط المتعلقة بالقرض. ولم يكن القرض ولا الرسالة مقبولين بالنسبة للغالبية العظمى من الإسرائيليين سواء أكانوا يساريين أم يمينيين، وقد وعد ليفي أولاً بعدم توطين اليهود السوفييت في المناطق التي لم تكن تحت سيطرة إسرائيل قبل عام ١٩٦٧، ويشمل ذلك عدداً من المناطق في القدس، ووافق ثانياً على إخبار الأمريكيين عن كل مشروع بناء جديد تتم المباشرة به في أي منطقة في إسرائيل، وعلى أن يخبرهم بصورة سرِّية إن كان المشروع في القدس الشرقية.

كانت تلك غلطة حمقاء وشنيعة جداً ارتكبها ديفيد ليفي، فاغتنم بيكر هذه السقطة واستغلها إلى أقصى حدٍ ممكن. واستطاع بيكر إقناع الرئيس بوش ليعلن أن القدس الشرقية وجميع المناطق البعيدة المجاورة لها والتي كانت سابقاً في يد الأردنيين بشكل خاص هي أراض محتلة. وهكذا، تم اعتبارها أراض محتلة بفضل ديفيد ليفي. إن المناطق المجاورة للقدس والتي نتكلم عنها، مثل راموت والتلة الفرنسية وجيلو هي مأوى لما يزيد عن نصف سكان القدس من اليهود، ثم سيتوجب إخبارهم أنهم يعيشون في مناطق يتعلق مصيرها بمفاوضات تجرى مع أي إدارة أمريكية، هذا إن تجاوزنا عن ذكر وزير خارجيتهم. ولم يخرج ليفي من ورطته تلك إلا بعد ممارسة اليهود الأمريكيين البارزين لضغوط كبيرة على بوش وبيكر.

ولم يهب أي يهودي فرنسي لإخراج ليفي من مأزقه مع الرئيس الفرنسي ميتران، ففي حوار خاص، أخبر الرئيس ميتران الوزير ليفي بأن حكومته تعرف أهمية القدس بالنسبة لإسرائيل من الناحيتين الاستراتيجية والتاريخية، وأنها تدرك سبب رفض إسرائيل بيع مدينة القدس في مزاد علني. وكان كلامه ذاك حديثَ دبلوماسيٍّ عابر لم يقصد منه التعبير عن حقيقة السياسة الفرنسية، بيد أن ليفي نقل كلام ميتران عندما تحدث أمام وسائل الإعلام عما جرى من حديث بينه وبين ميتران، وكان لا يزال آنذاك في فرنسا. ووقع ميتران في حرج شديد بسبب تصريحات ليفي وأنكر ما ذهب إليه ليفي، لكن ليفي أصر على موقفه مما

سبب إذلالاً أكثر للزعيم الفرنسي.

وكان فشله الأكبر في الولايات المتحدة عندما أساء إليه صديقه الجيد جيم بالرغم من حصانته الدبلوماسية. كانت مصر وإسرائيل منذ توقيع اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٧ لا زالتا تتلقيان مقادير متساوية تقريباً من المساعدات الأمريكية. واستطاعت مصر تحويل القروض الميسرة إلى دين يبلغ مقداره (٧) مليارات دولار حتى الآن بينما بلغت ديون إسرائيل (٤) مليارات دولار. ووافقت الولايات المتحدة في الأيام التي سبقت حرب الخليج على إلغاء ديون مصر كمكافأة لها مقابل انضمامها إلى التحالف المضاد للعراق، لكن الأمريكيين لم يقدموا نفس العرض الإسرائيلي بالرغم من أن ديونها كانت مفروضة عليها كإحدى نتائج معاهدة السلام نفسها، إضافة إلى أنه كان يتوجب على الولايات المتحدة إظهار قدر يسير من الإنصاف في التعامل مع كلا الطرفين.

قام ليفي بزيارة واشنطن من أجل تقديم طلب إلى الرئيس بوش بإلغاء الديون الإسرائيلية أيضاً. وعبَّر بوش عن تقديره لابتعاد إسرائيل عن التدخل في أزمة الخليج، وأكد للوزير ليفي أن العلاقات الأمريكية الجديدة مع العالم العربي لم تغير من طبيعة علاقات دولته مع إسرائيل، ولكن الديون لم يتم إلغاؤها. وتحدَّث ليفي إلى المراسلين الصحفيين بعد لقائه مع بيكر، فبالغ في السذاجة عندما قال: «لم نأت إلى هنا لنناقش قضايا مالية». لكن ذلك كان مخالفاً تماماً لنظرة السياسيين الإسرائيليين إلى الأمور، فهذا شمعون بيريز يقول متحدثاً أمام أعضاء من حزبه: «ينادي ديفيد ليفي نظيره جيمس بيكر باسم (جيم)، والحقيقة أن تلك هي المرة الأولى التي تلغي فيها الولايات المتحدة ديوناً مستحقة لها على طرف واحد دون الآخر، بينما كانت في الماضي تساعد كلا الطرفين. إن واقعاً سياسياً مراً يقبع تحت هذه الوجوه البشوشة والابتسامات».

وبعد انتهاء حرب الخليج، أصبح ليفي رجل سلام في مجلس الوزراء الإسرائيلي، يؤيد الموقف الأمريكي مرة تلو الأخرى بما يتعارض مع موقف حكومة دولته. وانقلب ليفي إلى رجل مدافع عن التناقضات والتحولات التي طرأت على آخر طروحات بيكر المتعلقة بالسلام. لقد بدأت إسرائيل عملية السلام بمرونة وتكيف مهم حيث وافقت على اقتراح

LAU LIBRARY BEIRUT

بيكر بالاشتراك في مؤتمر إقليمي لحل الخلافات، بيد أن سورية والمملكة العربية السعودية رفضتا الاشتراك في مؤتمر كهذا فتراجع بيكر عن موقفه وقبل اقتراحهما بعقد مؤتمر دولي تشترك فيه الأمم المتحدة. وباستثناء ليفي الذي استمر في دعم بوش بكل إخلاص ومن أعماق قلبه، أدرك الجميع أن اقتراح عقد مؤتمر دولي سيكون فرصة مثالية لجميع الأطراف للانقضاض والهجوم على إسرائيل.

غضبت الحكومة الإسرائيلية بشدة من هذا الموقف، وتعالت أصوات تطالب باستقالة ليفي بعد ملابسات وخصومات حدثت بينه وبين وزراء آخرين مثل: شارون وموادعي ويوفال نيئمان (وزير العلوم)، إلا أن الخوف من سقوط الحكومة وخسارة الجميع منعه من المضي قدماً في موضوع استقالته. نعم، لقد شق ليفي الحكومة إلى نصفين بتغيير أيديولوجياتها من منابعها الأصيلة، فهو لم يمتلك البراعة الفكرية الفائقة أو الأعصاب القوية ليتمكن من التعامل بثقة مع واشنطن، وخلق بغبائه خلافاً بين الحليفين لم يوجده أحد ممن سبقه من الوزراء. ومع ذلك، يَعتَبر الرأي الخارجي أن تصلب شارون وشامير هو السبب الأساسي الأكبر لعدم التفاهم السائد بين الدولتين وليس ضعف وعجز ديفيد ليفي.

ووصل الوضع إلى درجة عالية من التوتر حتى أشيع أن شامير يستمتع كثيراً برفض اقتراحات ليفي. وبرغم احترامه المحدود لوزيره ليفي، فإن شامير لن يضحي بالدعم الذي يحصل عليه من العمال الكادحين مقابل تنحيه ليفي عن منصبه. ويسأل الشعب الإسرائيلي عما فعله ليفي خلال سنواته الثلاث الشاقة من العمل، والجواب سيء لا يسر أبداً. وبالكاد تغطي الدعابة الغضب العارم، ويتمثل ذلك في كتابات يوسف غوئيل، وفيما يلي نموذج عنها:

«ليفي هو الرجل غير المناسب في المكان غير المناسب وفي الوقت غير المناسب. ويوجد ضمن صفوف الليكود مرشحون أفضل منه.. [ومنهم بالتأكيد بنيامين نتينياهو صاحب الوجه الوسيم واللسان الطلق] وقد وافق رئيس الوزراء شامير على حسابات الليكود الداخلية وأعطى ليفي منصب وزير الخارجية بعد إلحاحه الشديد وذلك من أجل هدف وحيد تمثل في استخدام ليفي كوسيلة للوصول إلى منصب رئاسة الوزراء، وكان ذلك

أساس جميع أسباب الكارثة الشاملة التي منيت بها إسرائيل.

● موشي أرينز:

بُعدّ أرينز من أقرب حلفاء شامير وأوثقهم لديه في مجلس الوزراء. كان وزير خارجية كفوءاً في عام ١٩٩٠ عندما أخرجه ليفي من منصبه وحل مكانه. يزخر مجلس الوزراء الذي يترأسه شامير بالغادرين الخونة والمحرِّضين ضد الدولة والمتدينين المتعصبين. ولهذا هو بحاجة إلى حليف واحد على الأقل يمكن الاعتماد عليه مما دفعه إلى تعيين موشي أرينز وزيراً للدفاع بالرغم من إدراكه الكامل عدم أهليته لاستلام هذا المنصب. كان أرينز سابقاً وزيراً للدفاع لفترة قصيرة (١٩٨٣ ـ ١٩٨٤) كثرت خلالها الآلام والأتراح فكانت سببا في جعل تعيينه مرة أخرى عام ١٩٩٠ أمراً يتعذر تبريره.

حل أرينـز مكان شارون الذي استقال من منصبه لِما لحقه من خزي وشنار بسبب توريطه إسرائيل في حرب لبنان والتي أودت بحياة مئات من المواطنين العرب العزَّل من السلاح. وبحلول عام ١٩٨٣ اتّضح لغالبية الإسرائيليين عدم وجود سبب مقنع للبقاء في الأراضي اللبنانية، فقد تم ترحيل منظمة التحرير الفلسطينية وطردها وهو هدف الحرب. وباغتيال الرئيس بشير جميِّل، أصبح من العسير جداً تحقيق الهدف الثاني وهو معاهدة السلام.

ورفض أرينز التراجع عن موقفه إزاء لبنان، وأخذ الجنود الإسرائيليون يلقون مصرعهم بالعشرات بسبب تفجيرات قام بها مسلحون شيعة، بينما غرقت الدولة في حالة من الفوضى الشديدة. وخـاف جنـود الاحتياط من أن تصلهم إشعارات تطلبهم للخدمة الفعلية في الجيش، واعترى من وصل منهم إلى لبنان رعب شديد من الموت جراء ركوب سيارات مفخخة عند العودة إلى إسرائيل، ومع ذلك لم يترك أرينز لبنان وشأنه. وجاء وزير الدفاع التـالي إسحق رابين ليتخذ قرار الانسحاب من لبنان بعد أن ظل أرينز طيلة عام بأكمله يتعامى ويغض الطرف عن تبديد أرواح الشبان الإسرائيليين وإضاعتها سدى.

أما عمل أرينز المدمر الثاني فكان مشروع بناء طائرة مقاتلة دعيت باسم لافي. وقد

اُتخذ قرار بناء طائرة لافي في أواسط عقد السبعينات عندما كان أرينز سفير إسرائيل لدى الولايات المتحدة. وساهم أرينز سابقاً في تصميم الطائرة الناجحة من طراز كفير، واستغل مكانته في واشنطن للحصول على مبلغ (١٥٠) مليون دولار من أموال الحكومة الأمريكية بهدف دعم مشروع الطائرة لافي والذي أولاه عناية خاصة منذ ذلك الوقت وكأنه ولده.

وعنـدمـا أصبح أرينز وزيراً للدفاع، غدا مشروعه باهظ التكاليف لدرجة أن إخراج النموذج الأولي فقط كان يستهلك (٢٠٪) من ميزانية الدفاع. والأدهى من ذلك أن آلافاً من أفضل مهندسي الأسلحة في إسرائيل [حوالي ثلث الرجال الموهوبين والمبدعين ككل] ارتبـطوا بمشـروع تصميم سلاح واحد فقط، واعتمد عشرة آلاف عامل على الأقل على مشروع لافي في كسب قوتهم. وتماماً كما حصل في لبنان، ذهب العمل في مشروع لافي أدراج الرياح ومن دون منفعة، إذ كانت الطائرة ستكلف (٧٥) مليون دولار فيما لو تم بناؤها حقاً، وهو مبلغ أكبر بكثير من كلفة طائرة أمريكية من طراز (إف ـ ١٥). والأهم من ذلك كله كان طلب الولايات المتحدة من إسرائيل وقف العمل في مشروع لافي، حيث تدنت احتمالات النجاح في تعويض الخسائر عن طريق المبيعات الخارجية إلى الصفر، وخاصة بعد إعاقة الولايات المتحدة بيع طائرة كفير إلى الإكوادور وتايوان.

وأظهر أرينز عناده المشهور فجرَّ البلاد إلى الدخول في نقاش عام كريه حول جدوى فيله الأبيض؛ الطائر كفير. وبعد جلاء الغمة والأخذ والرد، أُلغي مشروع لافي وتم تسريح آلاف الأشخـاص من وظـائفهم. وقيل إن عشـرات من أعلى مستـويات المهنـدسين الإسرائيليين أغروا بالذهاب إلى دولة جنوب إفريقيا حيث كانت احتمالات الحصول على وظائف في قطاع الصناعات العسكرية قوية وشبه مؤكدة. وهكذا، لم تجن إسرائيل شيئاً وللمرة الأخرى من وراء صرف ملايين الدولارات.

تعتبر قضية (الحافلة رقم ٣٠٠) أسوأ إخفاق للحكومة الإسرائيلية والذي ألحق ضرراً بالغـاً بكيان الـدولـة أكثر مما ألحقته بها مغامرة بناء طائرة لافي المتقدمة تقنيا في عالم الطيران. ووقعت الحادثة قرب مدينة أشدود الساحلية، إذ استولى أربعة شبان مسلحون ببنـادق آلية وقنـابل يدوية على حافلة تابعة لخط المدينة، ورأى أرينز في حادثة خطف

LAU LIBRARY BEIRUT

الحافلة فرصة لتغيير صورته من رجل مفكر إلى رجل مقاتل، وذلك تبعا للتقليد العظيم الذي سنّه رابين ودايان وشارون، فظهر على مسرح الأحداث مرتدياً خوذة حربية منحنية فبدا مظهره مضحكاً، وأعلن أمام عدسات التصوير أن أي إرهابي يشن هجوماً ضد إسرائيل لن يفلت من العِقاب.

واقتحمت قوات إسرائيلية الحافلة، فحررت الرهائن باستثناء فتاة يافعة لاقت حتفها. وأعلن الجيش أن الإرهابيين الأربعة قُتلوا عند تبادل إطلاق النار، ولكن لسوء الحظ، تمكّن أحد المصورين الصحفيين من التقاط فيلم يظهر أحد الإرهابيين على قيد الحياة ويقوده الجنود بعيداً عقب اعتقاله. والحقيقة أنه قبض على «إرهابيَيْن» اثنين وهما على قيد الحياة وتم استجوابهما وقتلهما على يد جهاز الشين بيت، وهي وكالة المخابرات الإسرائيلية التي تكون مسؤولة في العادة أمام مكتب رئيس الوزراء وليس أمام مكتب وزارة الدفاع.

ويعلم معظم الإسرائيليين أنه عندما يعلن الجيش عن مقتل جميع الإرهابيين في هجوم ما، فإن بعضاً منهم لا يلقون حتفهم فعلاً، وهذه الحقيقة العامَّة يؤكدها كثير من الأشخاص الذين شاركوا في عمليات ضد الإرهابيين، وهي ليست قضية هامَّة أو لم تكن كذلك إلى أن جاء أرينز وجعلها مسألة متأزمة بتصريحه العلني المسبق بأن أحداً من الإرهابيين لن يبقى على قيد الحياة جرَّاء استيلائهم على الحافلة، ثم ظهرت صورة السجين يقوده الجيش بعيداً فزادت من أهمية القضية، وبدا أن وزير الدفاع نفسه هو الذي أصدر أمراً بقتل المعتقَلَيْن.

اندرجت تلك القضية تحت بند القضايا الأساسية؛ إن إسرائيل يحكمها قانون ديمقراطي، وكل شخص يتهم بجريمة له حق الدفاع عن نفسه أمام المحكمة بغض النظر عن مدى بشاعة جريمته. وعم الاستياء مؤيدي مبدأ الحرية الإسرائيليين بسبب حرمان المتهم من حقه القانوني، واتهموا الجيش بجريمة قتل الإرهابي المتهم، وأحيلت القضية إلى المحكمة العليا التي أيدت هذه الاتهامات ضد الجيش. وتقرر محاسبة الجيش ومحاكمته أمام القضاء، ولكن من الذي يضع ويقرر سياسة الجيش؟ الجواب هو رئيس وكالة الشين بيت ذي الهوية السرية المجهولة حرصاً على سلامته وخوفاً من قيام العدو

LAU LIBRARY BEIRUT

باختطافه. وبالرغم من ذلك، أرسلت الحكومة طلباً له للمثول أمامها لاستجوابه بشأن قضية الحافلة ـ ٣٠٠، بيد أن ظهوره الحقيقي في المحكمة كان سيكشف شخصيته.

ودخلت البلاد مرة أخرى في دوَّامة خلاف عويص ذي شجون. ووقفت المحكمة العليا ضد الرأي العام لأغلبية كبيرة من الإسرائيليين الذين سُعدوا بمقتل الإرهابيين وتمنوا لمؤيدي مبدأ الحرية ألا يواجهوا نفس المصير. وتسلم رئيس وكالة الشين بيت رغم ذلك طلباً من المحكمة للمثول بين يديها، مما كان سيؤدي إلى كشف هويته وبالتالي كشف هوية أعلى قائد سري في الدولة.

وظهر أنه لا يوجد حل لتلك القضية التي خلقها أرينز بيديه من دون تعريض أسرار الدولة للخطر مقابل البت في مشكلة قانونية. وهنا، هب رئيس الدولة حاييم هيرتزوغ لانتشال بلده من هذه الورطة.

إن دور الرئيس حاييم في معظمه دور رمزي، ويستطيع بوصفه ضمير الأمة الحي أن يمنح العفو عن مجرمين مقدمين إلى القضاء. ويعتبر من الأسمى والأجل عادة أن ينأى رئيس الدولة بنفسه عن التورط في النزاعات والترفع عنها، لكن هيرتزوغ لا يكترث كثيراً بهذه الأعراف الأدبية الدالة على الذوق واللياقة، فأظهر تشابهاً كبيراً بينه وبين سياسيين من مستوى أدنى وذلك عندما أبدى رغبته في الحصول على ما يستطيع من أموال الشعب خلال فترته الرئاسية.

وفي محاولة واضحة لضمان تقاعد وظيفي مريح لنفسه، قدم التماساً إلى الكنيست يطلب فيه تزويد رؤساء البلاد والرؤساء السابقين بمستشار لكل واحد منهم، إضافة إلى مساعد وناطق رسمي وسكرتير وسائق وسيارة يبقى معه إلى مدى الحياة.

اجتمع الرئيس هيرتزوغ برئيس وكالة الشين بيت، وخطرت لهيرتزوغ فكرة بارعة مفاجئة أثناء اللقاء تقوم على أن يعترف رئيس الشين بيت بتجاوز الجيش لقانون الدولة وأن يقوم رئيس الدولة بمنح العفو. وبهذا أصبح حاييم هيرتزوغ بمثابة (جيرالد فورد) إسرائيل [إشارة إلى قيام جيرالد فورد بإصدار عفو عن نيكسون في قضية ووترغيت].

أُغلق ملف قضية الحافلة ـ ٣٠٠ بعد أن أساءت إلى نزاهة الرئيس هيرتزوغ إساءة بالغة، وبعد أن أضرَّت بمنزلة الرئاسة وعلو مكانتها شبه المقدسة فحطت من سموها ورفعتها. وشاعت في طول البلاد وعرضها تخمينات وتصورات حول ما بحوزة رئيس وكالة الشين بيت من مستمسكات ضد الرئيس هيرتزوغ، وبرزت نظرية عامَّة أشارت إلى التورط في عمليات مالية غير قانونية في صفقات عمل مع دول إفريقية، ومهما كانت حقيقة الأمر، فقد تلوثت سمعة منصب الرئاسة. وكان الأدهى والأمَرّ أن عُين هيرتزوغ نفسه في منصب الرئيس مرة أخرى ولفترة رئاسية جديدة ثانية، وتم تعيين موشي أرينز وزيراً للدفاع للمرة الثانية عام ١٩٩٠.

● إيهود أولمرت:

سنختتم هذه النظرة الناقدة نوعاً ما والمتعلقة بأعضاء الليكود في المجلس الوزاري بفقرة عن وزير الصحة إيهود أولمرت، إيهود هذا هو الوزير الوحيد المعروف على نطاق واسع خارج إسرائيل. وأصبح ناطقاً رسمياً مهماً وخاصة في بريطانيا بفضل وسامته ولغته الإنكليزية المقبولة. وقد ظهر اسمه في العناوين الرئيسية في الصحف الإسرائيلية عام ١٩٩٠ بعد أن رتبت له هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) مناظرة مع عضو من منظمة التحرير الفلسطينية، وكسب أولمرت هذه المواجهة غير المرغوب بها وحصل على قدر كبير من الاحترام.

إذا رجعنا إلى إسرائيل في الوقت الحالي، فسيشعر المرء بإرهاصات وأمارات فضيحة أوشكت على الانفجار أو أنها ما تزال تعتمل وتتفاقم. ولا مانع أن نبين مرة أخرى أن النزاعات على المصلحة لا علاقة لها بكون المرء عضواً في الكنيست. ويحتفظ مثل هؤلاء البرلمانيين بأي عمل يختارونه خارج نطاق عملهم الرسمي، بينما يضعون القوانين المفيدة لأعمالهم المذكورة آنفاً ويدعمونها عن طريق السلطة الداخلية.

إن أولمرت من أبرز المحامين الذين يتقاضون أجوراً عالية في إسرائيل. وقد اكتشف عرضاً أنه من أكبر الرجال تجرداً من المبادىء الأخلاقية وانعدام الضمير، وذلك عندما

تحرت الشرطة عام ١٩٨٧ وحققت في ملفات بنك الشمال الأمريكي الذي كان متورطاً في اختلاس مبلغ (٣٧) مليون دولار على الأقل، فكشفت التحريات معلومات تثبت تورط إيهود.

يبدو أن أولمرت قد أرشد وكيلاً واحداً إلى البنك أودع مبلغ (١,٦) مليون دولار، وطبقا لتوضيح أولمرت، كان الوكيل مجرماً يواجه تهماً ومطلوباً بموجب معاهدة خاصة تكفل تسليم المتهمين بين البلدين، وشعر أولمرت أن أمواله ستكون بمأمن في هذا البنك المجهول. وكان البنك شاكراً لتعامل هذا الزبون معه. وحصل أولمرت على قرض بمبلغ (٥٠) مليون دولار كمكافأة له، بيد أنه لم يُرجع ولا بنساً واحداً من هذا المبلغ. ومن الطبيعي أن تشكل قضية فساد تقليدية كهذه نهاية عمل أولمرت في أي مكان آخر عدا إسرائيل، ولكنه سيعتبر في إسرائيل مرشحاً لزعامة تجمع الليكود في وقت ما بعد أن ينقرض الجيل الحالي.

● موليدت:

تدعم تجمع الليكود ثلاثة أحزاب لا دينية حسب ما تشير إليه برامجها السياسية، وهذه الأحزاب هي: موليدت، وتحيا (النهضة)، وتسوميت (مفترق الطرق). ويتشابه حزب تحيا وحزب سوميت في طروحاتهما الفلسفية المغالية في القومية، ويقع معظم الاختلاف بينهما في أسلوب العمل. وقد انفصلت الأحزاب الثلاثة عن الحكومة في شهر كانون الثاني عام ١٩٩٢، حيث احتج موليدت وتحيا على مشروع السلام الذي جاء به بيكر بينما طالب تسوميت على نحو رائع بإجراء إصلاحات انتخابية.

ولكن.. لا تخف أيها القارىء، فهذه الأحزاب ستعاود الظهور في مجلس الوزراء القادم الذي سيشكل على الأرجح في شهر تموز/١٩٩٢، وكان خروجهم من الإئتلاف الحكومي قد عجَّل في إجراء انتخابات عام ١٩٩٢. إن حزب تحيا منمق الكلام، يقوده اثنان: غوئيلا كوهين التي تصاب بين الفينة والأخرى بنوبات هستيرية، والتي قاطعت خطاب الرئيس المصري أنور السادات في الكنيست فطردت إلى خارج القاعة. والرجل

LAU LIBRARY BEIRUT

الثاني هو وزير العلوم يوفال نئيمان، عالم الفيزياء النووية المحترم على الصعيد العالمي. أما تسوميت فهو حزب أكثر تفكيراً ووعياً ويتزعمه وزير الزراعة رفائيل إيتان. ولم يسقط كلا الحزبين في شراك الفساد الذي طغى على الأحزاب الأخرى.

أظهر إيتان في الواقع قدراً كبيراً من الاستقامة والنزاهة وأصبح الآن الرمز والصوت الأخلاقي القوي في الكنيست، مما يثير دهشة أولئك الذين يذكرونه باعتزاز قليل لشغله منصب رئيس أركان الجيش إبان الحرب في لبنان، والذين لاموه لوقوع مذابح صبرا وشاتيلا المحرجة ولمصرع (٦٠٠) جندي إسرائيلي في الحرب. واعتقد الكثيرون عند ولوجه ميدان السياسة أن هاجسه سيكون موضوع الأراضي المحتلة المتنازع عليها، وقد سبب في الحقيقة في مستهل عمله السياسي موجة نقد بسبب تصريح ذكر فيه أن المستوطنات ستحيط بالمواطنين العرب وتطبق عليهم «مثل حشرات الصرصار المخدّرة في قارورة». وبالرغم من صحة هذه الصورة المجازية من الناحية العسكرية، لم يرض العرب تشبيههم بالصراصير، وتعاطف العديد من اليهود معهم عندما أعربوا عن غضبهم.

بدأ إيتان سيرته السياسية بصورة مناسبة، واستمر على نزاهته وثبت على استقامته منذ ذلك الحين، وهو رجل مزارع وبقي أحد الوزراء القلة المؤهلين فعلاً لشغل مناصبهم، وقام بجهود كبيرة لم يقم بها أي وزير سابق في تحذير الجماهير من سرعة نضوب الموارد المائية وتدهور الوضع المائي، وأعلن عن حالة الطوارىء وتقنين استخدام الموارد المتوفرة عندما يكون الوضع السياسي مناسباً.

أنفق تجمع الليكود (٣٠) مليون شيكل (أي ما يعادل (١٣,٥) مليون دولار) لتمويل حملة انتخاباته الأخيرة حسب ما أوردته نشرة إخبارية خاصة. وذكرت تلك النشرة أن السبب يعود إلى إفراط إيهود أولمرت في الإنفاق. وطلب التصديق على تشريع يجبر الشعب على تحمل عجز الحزب المالي من أجل تغطية خسائره، وقدم اقتراح القانون مرتين في عام ١٩٨٨. وكان طبيعياً أن يؤيد الليكود مثل هذا القانون، إذ أعجبته فكرة تحمل الشعب دفع نفقاته، وكذلك أيدته الأحزاب الصغيرة العديدة.

رفض حزبا تسوميت وشينوي أن يأخذا أموالاً من ميزانية الدولة لتغطية نفقات حزبيهما، وبسبب ذلك الموقف النزيه علت مكانة إيتان الشخصية حتى بين أعدائه المعروفين في الجناح اليساري، بيد أن نجم إيتان لمع عند إثارته قضية إصلاح النظام الانتخابي.

إن الشيء الوحيد الأعظم أهمية والذي ينتشل إسرائيل من مستنقع سياسة قذرة صنعتها بيدها هو إحداث تغيير جذري في طريقة انتخاب أعضاء الكنيست. وطرح إيتان مشروع قانون يدعو إلى انتخاب مباشر لأعضاء البرلمان، مما يجعل كل عضو مسؤولا شخصياً أمام جمهور ناخبيه. ويعني هذا التغيير نهاية نشاط معظم السياسيين البارزين، لأن كل واحد منهم تقريباً ممن يديرون دفة الحكم حالياً سيخسرون المنافسة في الحصول على شعبية جماهيرية فيما لو افترضنا إجراء مثل هذه المنافسة. والأجدى نفعا من ذلك كله، أن قانوناً كذاك سيقرع الناقوس إيذاناً بموت واختفاء الأحزاب الصغيرة التي تحتاج إلى دعم أغلبية معينة من الناخبين لتتمكن من الحصول على مقعد واحد في الكنيست، وليس مجرد نسبة (١٪) من مجموع أصوات الناخبين كلهم.

وقف حزب الليكود الذي رغب في إحداث إصلاح في النظام الانتخابي إبّانَ وقوفه في صف المعارضة سابقاً ـ وقف بشدة إزاء أية إصلاحات انتخابية، مدفوعاً من الأحزاب الدينية التي ستخسر قوتها غير المتكافئة فيما لو جرت أية انتخابات نزيهة وعادلة. وأطبقت تلك المؤامرة الدنيئة بفكيها في شهر تشرين الثاني عام ١٩٩٠، إذ أعطى إيتان الحكومة إنذاراً نهائياً هدد فيه بالانشقاق عن الحكومة إن لم تقدم مشروع قانون الإصلاح الانتخابي، ولو خرج إيتان بمقعديه الإثنين من الحكومة لسبب حرمان شامير من الأغلبية التي يتمتع بها. ولكن شامير كان أكثر مكراً وخبثاً من الجنرال إيتان «المستقيم»، فتدبر أمر شراء تأييد (أغودات إسرائيل) ومقاعده الخمسة بثمن باهظ، وأصبح غير خائف من عجز حكومته في مواجهة إيتان فالتف من ورائه وباغته عشية يوم الإنذار.

تم إجهاض عملية إصلاح النظام الانتخابي مرة أخرى، لكن إيتان وحزبه تسوميت كسبا منزلة سامية. يقول زيلدا هارس أحد المؤيدين لإيتان والمخلصين له إلى درجة يُحسد

LAU LIBRARY
BEIRUT

عليها، وهو سكرتير لجنة تسمى (لجنة المواطنين الحريصين) وهي منظمة نشطة رائدة في الـدفاع عن قضية الإصلاح الانتخابي. . يقول زيلدا: «إيتان هو رجل واقعي وفيّ، إنه مزارع يمتلك صورة واضحة تميز بين الخطأ والصواب. ولا يمكن إفساده، وهي ميزة فضلى تعلي مرتبته. إن الالتزام بالسلوك الصحيح والخلق القويم هو خصيصة قليلاً ما تفوز أو تؤخذ بعين الاعتبار هذه الأيام».

يوجد في الحقيقة دليل قوي ضد حزب موليدت حول أعمال ملتوية قام بها، وهذا الدليل موجود على شريط تسجيل.

إن حزب موليدت هو حزب يقوم برنامجه السياسي على أساس طرد العرب القاطنين في الأراضي المحتلة من إسـرائيل. واتخـذ الحـاخام مئير كاهانا نفس الموقف، فطرده الكنيست والليكـود من البرلمان بتهم ملفقة تتعلق بالعنصرية. وكانت ترقية شامير لزعيم موليدت واسمه رحفعام زئيفي ومَنْحِه منصباً وزارياً مصدراً آخر من مصادر المشكلة. ففي عام ١٩٧٩، أدانت وثيقـة صادرة عن مكتب المبـاحث الفيدرالي زئيفي بتهمة مصاحبة مهربي المخدرات، وقاد ذلك إلى التنصت على هاتفه. وكشفت إحدى الاتصالات حديثاً بين زئيفي ورجل يدعى أوشر أدين فيما بعد بارتكاب جريمة قتل، وناشد فيها أوشر زميله زئيفي لمساعدته في حل مشاكله مع الشرطة. ووافق زئيفي على بذل جهده لمساعدته. وحصل إيهود أولمرت بطريقة ما على ذلك الشريط المسجل ثم عرض محتوياته على شامير لإقناعه بالعدول عن تعيين زئيفي في المنصب المقرر، ولكن شامير لم يكترث لذلك ولم يغير موقفه، وتم تهديد أولمرت بإيذائه جسدياً.

وأثـار عضـو الكنيست فيرشـوبسكي قضية صداقـة زئيفي مع مجرمين قتلة ومهربي مخدرات، وكان ذلك خلال مناقشة موضوع الموافقة على تعيين زئيفي. وصرَّح مردخاي على نحو أقل مما تقتضيه الحقيقة قائلاً: لم يحصل أبداً أن صاحب أحد الوزراء أي مجرم».

والحق يقال أن ذلك حصل ولأسباب سياسية وجيهة جداً؛ لقد دلت استطلاعات الرأي

آنذاك أن حزب موليدت سيفوز بخمسة مقاعد في الانتخابات العامَّة القادمة وهو ما كان سيحدث مع حزب كاخ في وقت لاحق. وإذا خصص لزئيفي منصب في التركيبة الوزارية فسيضم الليكـود إليه مقـاعد حزبه، مما يعني التقليل من اعتماده على الأحزاب الدينية وإمكـانية الاستمـرار في التملص وتجنب تشكيل حكـومـة وحدة وطنية مع حزب العمل المتقلب والمتآمر عليه. وبوجود مثل هذه الفوائد، ما هو الفرق بالنسبة لشامير إن كان الرجل الجـالس إلى جانبـه في مجلس الـوزراء رجـلاً جيداً أم رجـلاً له علاقة بعالم الجريمة المنظمة؟ ومن يدري! فقد يأتي يوم يحتاج فيه رئيس الوزراء إلى استخدام قاتل مأجور ينفذ مآربه.

LAU LIBRARY
BEIRUT

الفصل الخامس

أحزاب دينية فاسدة

ربما لم يسبق أن حصل تغير سياسي سبب خلافات وانشقاقات كبيرة في الآونة الأخيرة كما حصل للأحزاب الدينية التي تقلبت بين الرخاء حيناً والشدة حيناً آخر، وأظهرت جشعاً يتعارض مع مظاهر التقوى والورع، فأوغلت في سلب ونهب أموال الخزينة العامَّة بينما كانت تفرض بالقوة على الأغلبية اللادينية قوانين جائرة وقمعية.

وقصة حياة الأحزاب الدينية ليست جديدة، وإنما أخذت تزداد حدة منذ عام ١٩٤٨ عندما التف الناخبون اللادينيون بأعداد متساوية تقريباً حول الحزبين الرئيسيين والأحزاب الأخرى الحليفة لهما بصورة طبيعية. ولأن الحزبين لم يتمكنا من تشكيل إئتلاف قوي فيما بينهما يستطيع إدارة الحكم، اتجه كلاهما إلى كسب ود الأحزاب الدينية التي تتباين برامجها وخطط عملها تبايناً شديداً عن برامج هذين الحزبين الرئيسيين.

ويقال أن التحالف بين اللادينيين والمتدينين قد بدأ رسمياً في عام ١٩٤٧ عندما أرسلت الأمم المتحدة لجنة تحقيق حول مسألة تقرير مشروعية الدولة اليهودية. وأدلى الجميع بأصواتهم حتى (أغودات إسرائيل) الذي مثل مصالح أتباع المذهب الأرثوذكسي قبل قيام دولة إسرائيل. وقد تأسس الحزب الأرثوذكسي عام ١٩١٢ كحركة سياسية هدفها مقاومة الصهيونية، فبدا أنه يعارض تأسيس الدولة اليهودية.

لم تكن مخاوف الأرثوذكس من أن تطيح الدولة اليهودية بمكانتهم المزعومة على الإطلاق، إذ أدار بن غوريون وأتباعه الوكالة اليهودية ثم مجلس الحكومة اليهودية الرسمية.

وكان كل واحد منهم في الواقع إما لا دينياً أو ميالاً إلى الجدال والمراء، فشعروا بامتعاض غير ظاهر من فكرة إقامة دولة تعتمد على معتقدات دينية خرافية تقليدية تعود إلى أيام الأحياء اليهودية الخاصة (الغيتو).

اضطر بن غوريون إلى وضع يده بيد (أغودات إسرائيل) بسبب خوفه من خسارة تأييد الأمم المتحدة لإنشاء دولة إسرائيل. واعتقد (أغودات إسرائيل) آنذاك أن حقوقه ستصان بشكل أفضل تحت ظل حكومة نصرانية أو حتى مسلمة. وقطع بن غوريون عهداً على نفسه أمام (أغودات إسرائيل) بأنّ القوانين المدنية للدولة اليهودية (التحكم بالزواج والطلاق والولادة والموت) سيكون تحت إشراف وسيطرة الأرثوذكس، وأن كل المطاعم التي تملكها الدولة ستقدم الأطعمة المباح أكلها حسب الشريعة اليهودية، وأنه سيفرِّق بين المدارس الأبرشية [مدارس ابتدائية أو ثانوية تديرها وتمولها منظمة إكليركية. . . - المترجم] والمدارس الأخرى السائدة، وسيخصص لها إدارات منفصلة لها حقوق شرعية مكافئة لنظيراتها.

زاد النفوذ الديني بعد إنشاء الدولة بظهور الحزب الديني الوطني المؤيد للصهيونية وانضمامه إلى الكنيست. وبالرغم من كونهما متنافسين حقيقيين، إلا أن تعاضد الحزبين الدينيين الكبيرين وتعاونهما لتحقيق أهداف عامَّة قد ضغط على أول حكومة في الدولة الجديدة للعمل على تسوية الخلافات. وكان من عادة بن غوريون أن يعد بوضع قوانين لصالح الأحزاب الدينية، ثم يماطل ويماطل إلى أن تطالب هذه الأحزاب بوضعها موضع التنفيذ، ثم يماطل ويعترض إلى أن تسقط الحكومة، ومن ثم يصار إلى تشكيلها مرة أخرى لتسير على نفس النهج السابق.

وكان مما طبق من القوانين تقييد السفر والتجارة أيام السبت، ومنع بيع لحم الخنزير، بيد أن فرض القوانين بالقوة أضحى مستحيلاً بسبب الأغلبية العلمانية التي رفضت الانصياع لأقلية دينية بغض النظر عن قوة القانون الذي وقف إلى جانبها. وكان تجنب القانون أحياناً مكلفاً وينم عن أمور سخيفة تافهة، فمثلاً توجب على مزرعة «لاهاف»، وهي مزرعة تعاونية يهودية (كيبوتس) تربي الخنازير، أن تثبت للمحكمة أنها تربي الخنازير لأغراض إنسانية (تستخدم جلودها بصورة رئيسية في تطعيم النسيج الحي جراحياً وخاصة للأشخاص

LAU LIBRARY BEIRUT

المصـابين بحـروق). وبعـد إثبـات ذلك، يجب نصب ألواح خشبية كبيرة تحت أقدام الخنازير لكي لا تدنس أرض إسرائيل المقدسة.

ويعلّق الكاتب المراقب يوسف غوئيل قائلاً: «أفرزت اللعبة السياسية نظاماً غامضاً، وحلولاً منطقية غير عقلانية، وازدراءً عميق الجذور للقانون الذي كان ينظر إليه غالباً كمجرد قطعة ورق يمكن تجاهلها، وشعوراً بالاشمئزاز متزايد الحدة إلى درجة كره أي شيء يتعلق بأمور دينية رسمية أو بالمؤسسة الدينية ككل. وانتشرت هذه المشاعر في صفوف الجيل الإسرائيلي اللاديني والأحدث سناً».

لم تحقق الأحزاب الدينية كل ما هدفت إليه وكان على جداول أعمالها، ولكنها مع ذلك استطاعت جني مكاسب عن طريق خوض عدد من المغامرات. وبما أنها كانت جزءاً من الإئتلاف الحاكم المتعدد الأطراف والاتفاقيات، كان يعهد إليها بوزارات مثل وزارة الشؤون الدينية ووزارة الداخلية، مع السيطرة على كل الأموال المخصصة لتلك الوزارات، واستطاعت الأحزاب الدينية بوصفها حامية حمى الوظائف المدنية أن تجمع الرسوم المالية المدفوعة لقاء الشهادات والإجازات المختلفة والمعاملات الرسمية المتعددة، وكانت كافية لإبقاء الأحزاب حية في البدن والروح. والواقع أن جباية تلك الرسوم حافظ على ازدهار ونمو الحزب الأرثوذكسي إذ أن عدد أفراده ليس كبيراً.

في كل الأحوال، كان النجاح يزرع بذور الفشل والانهيار من الداخل، إذ اقتصرت معاهد التعليم الديني العالية في فترة ما قبل إنشاء الدولة على الطلاب اللامعين والواعدين من النـاحية الدينية، وذلك لأسباب مالية، حيث أدار اليهود الأشكناز الأرثوذكسيون هذه المعاهد. ولم يستطع المواطن اليهودي الأوروبي الذي عاش في فقر مدقع أن يوفر لابنه فرصة دراسية مثالية فيتخلى عنه لمجرد احتمال أن يلحظ أحدهم ذكاءه، ومن ثم يدعم المجتمع الأرثوذكسي أو معاهده الدينية ذلك الطالب وينفق على دراسته.

ومع التدفق المفاجىء وغير المتوقع للأموال من أعضاء المنظمة الصهيونية، وسعت الجماعة الدينية نظام معاهدها الدينية العالية ليشمل كل فتىً يافع في سن التعليم، سواء

أكان يستحق ذلك أم لا، وسواء كان بمقدوره تحمل نظام الصفوف الدراسية التي تدرس (١٢) ساعـة يومياً أم لا، وذلـك بدون وجـود فترات للراحة أو ممارسة بعض النشاطات الرياضية. وأبعد نظام التعليم ذاك الطلاب عن ميدان الأعمال اليافعة التي يمكن ممارستها بعد التخرج لأن المهارات التقنية أو العلمية أو الإدارية لم تكن من ضمن المناهج الدراسية.

يلتزم الأرثوذكسي حرفياً بوصيه الإله «كن خصباً وكثير النسل»، ولهذا تكون أسرهم كبيرة العدد. وبسبب مصلحة «الرب» أيضاً، يُرفض تنظيم إنجاب الأولاد ويحرَّم الإجهاض عندهم، فيظل معدل الولادة مرتفعاً وبالتالي يسجلون أعلى معدل إصابات بمرض المنغوليا في إسرائيل. ويمنع الإجهاض حتى لو اكتشف في رحم المرأة كائن غريب، كأن يكون مثلاً خروفاً من خراف مرتفعات جنوب بريطانيا!!

لم يتعلم هؤلاء سوى علم التوراة، فأصبحت غالبيتهم العظمى طلاباً فقراء أو من طبقة النـاس العـاديين، وغير مدربين على ممارسة أي نوع من الأعمال. وبهذا يكون زعماء الأرثـوذكس قد ساهمـوا في تكـوين جيل من الرجال العاجزين عن كسب قوت يومهم، والحاصلين على إعفاء من الخدمة العسكرية، وأصحاب عائلات كثيرة الأفراد ما دام ذلك هو إرادة الله! واعتمـدوا في عيشهم على الأمـوال التي انتزعها زعماؤهم السياسيون من الحكومة وبأي قدر كانت. وفي كل الأحوال، كانت مبالغ الأموال التي استطاعوا الحصول عليها تمنح لهم على حساب التعليم اللاديني وتقلص مقدار المال الذي تدفعه الحكومة إلى معاهد التعليم العليا إلى مبلغ (٤٥) مليون دولار من أصل (٣٠٠) مليون دولار خلال عشـر سنـوات ابتداء من عام ١٩٨٠، وأدى ذلك بالتالي إلى خفض المعايير الأكاديمية ومستويات الدراسة وعجّل من وقوع إضرابات قام بها الطلاب وهيئات التدريس على حد سواء. وعندما نعقد مقارنة، نرى في نفس نهاية الفترة السابقة الذكر أن المعاهد الدينية العليا قد تلقت (٩٨) مليون دولار، أي زيادة بمقدار (٧٢) مليون دولار. ومنحت أيضاً (٩٠) مليون دولار «كمخصصات مالية خاصة».

ولتأمين عمل لجيل الطلاب هؤلاء، أُنشئت معاهد دينية جديدة. ولملئها بالطلاب،

LAU LIBRARY BEIRUT

أمسى الطلاب المراهقون الكسولون والأغبياء طلاباً بالغين ودائمين، مهمتهم انتظار انتهاء الشهر حتى يقبضوا رواتبهم من معاهدهم التي تتلقى المال بدورها من دافعي الضرائب اللادينيين أو الإسرائيليين أصحاب التدين التقليدي الذين يكرهون مساعدة المتسكعين الأتقى منهم حَسب المفهوم الشائع هناك.

وفي أواخر عقد الثمانينات، عانت إسرائيل من أشد فترات الركود الاقتصادي حيث تعدت نسبة البطالة (١٠٪)، وزادت الديون القومية على (٢١,٥) مليار دولار. ولم تستطع الـدولـة الاستمـرار في الوفاء بجميع المتطلبات المالية للحزب الأرثوذكسي الذي نمت تفرعـاتـه وزادت أعـداده، فأصبـح من المتعذر حمايته من دون تقديم مساعدات مالية ضخمـة، وهذا هو أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت الأحزاب الأرثوذكسية إلى ممارسة أعمال السرقة.

وطغت على السطح قضية المكان الذي سيأوي إليه مؤيدو الأرثوذكس. لقد سجل الآباء الآلاف من أبنائهم الطلاب (والقسم الأكبر منهم من الأشكناز) في المعاهد الدينية العليا، ثم أخذت أعدادهم بالتناقص لعدم الإهتمام أو المقدرة على تحمل قساوة نظام التعليم الديني الصارم. وضل هؤلاء الطلاب طريقهم في اللحظة التي تركوا فيها المعاهد الدينية وانغمسوا في عالم الإجرام بسبب عدم حصولهم على تدريب يلائم الحياة العملية، وبسبب عزلتهم عن شريحة المجتمع الإسرائيلي التي تكسب قوتها بعرق جبينها ومن غير الاعتماد على مساعدات مالية.

توجد مدرسة واحدة غير مدعومة ماليا تسمى مدرسة (بني ريم)، وتحاول إعادة تأهيل طلاب السفارديم المتخلفين عن المعاهد الدينية. ويبين مدير المدرسة أنها مهمة صعبة ومثبطة للعزيمة، ويضيف المدير شلومو فريدمان قائلاً: «إذا أخذنا بعين الاعتبار عدم وجود عمل، فما المدة التي تعتقد أن الطلاب سيستغرقونها إلى أن يكتشفوا المخدرات ويمارسوا عمليات إجرامية؟. . نحن نضم هؤلاء المتخلفين عن الدراسة إلينا، ولكن ما الذي نستطيع فعله بعد أن نضع في أذهانهم بعض الأمور الإنسانية والشعور بالثقة؟ إننا نعيد معظمهم إلى معاهدهم الدينية لأنه لا مكان لهم للعمل في الأسواق. ويتمتع معظم هؤلاء الشبان

بمواهب يدوية أو ميكانيكية كان يجب تطويرها وتنميتها سابقاً. إن المعاهد الدينية ليست في المقام الأول بالمكان المناسب والطبيعي لهم».

أما الوضع في طائفة الأشكناز الأرثوذكس فهو أكثر سوءاً وكآبة. لقد استطاع نصف جيل المتخـرجين سابقـاً الحصـول على أعمال كمدرسين أو موظفين مثل ناسخين كتبة ومـطهرين روحيين، واعتاشوا من هذه الأعمال. أما اليوم، فقد نضبت مصادر المال ولا يستطيع أولئك المتخرجون أنفسهم تأمين مورد رزقهم إلا عن طريق تلقي رواتبهم الشهرية من الحكومة لقاء الاستمرار في التعليم، أو عن طريق ما يسمى بالعبرية «شنورينغ» أي التسول.

ويدير ناحوم فريدمان منظمة مشكينوت أورشليم التي تساعد الأفراد الأرثوذكس في تأمين مساكن لهم. وقد نقلت الصحافة الإسرائيلية عن لسانه التنبؤ بسقوط مجتمع الـ "Hasidic" في إسرائيل، إذ لا يوجد مال كاف في إسرائيل لدعم الأسس الجوهرية التي تقوم علَيها الدولة. وزعم أن ما نسبته (٥٠٪) من الرجال الأرثوذكس المغالين (حاريديم) يسافرون إلى الخارج أحياناً لطلب المال من أجل إعالة أزواجهم.

وبالرغم من ذلك، لا يعمل الأفراد الذين اكتسبوا مصالح لهم ضمن طائفة الحزب الأرثوذكسي على تغيير النظام، لا بل إنهم في الواقع يقاومون إحداث تغيير ما بكل ما أوتوا من قوة وعنف. وها هو الحاخام المجهول (هـ ـ H) الذي يدرس في معهد ديني معتبر قد نشـر كتـابـاً ناجحاً في أوساط المجتمع الأرثوذكسي، ويعمم فيه هذه الملاحظات التي سجلت منـذ سنين، فيذكـر: «هنـاك جنـاح متطرف في صفوف الجماعات الأرثوذكسية المتعصبـة ولـه مصـالـح في الإبقاء على الحالة الراهنة. ولنسمح لأنفسنا بالقول بأنهم يتورطون في أمور خارجة عن القانون عندما تسمح لهم الظروف بذلك».

ويدير الحاخام (D ـ دي) المعهد الديني الأعلى مستوىً والوحيد الذي يدرِّس طلابه مواضيع دينية ويشجعهم لاحقاً على الاختيار بين الالتحاق بكلية ما أو معهد ديني في مدينة القدس، ولكن همته فاترة بسبب الإقبال الشديد على المعاهد الدينية الأخرى والإصرار على تدريس الـطلاب وفق نظام تعليمي أحـادي البعـد. إضافة إلى ذلك، يعيش هذا

LAU LIBRARY BEIRUT

الحاخام في خوف من أن تمارس عناصر تنتمي إلى طائفته العنف ضده وتؤذيه لأنهم بدورهم يخافون من اعتداء اللادينيين عليهم. وحدث في أحد المعاهد المتشابهة أن هرب الحاخام باروخ شايت من بلدته بعد تعرضه للهجوم حسبما تناقلته الأنباء، وأجبر على السكن في منطقة تبعد (٤٠) ميلاً وفي بلدة معزولة تدعى ماتتياهو.

زيفي واينبيرغر هو مدير كلية القدس للتكنولوجيا، وهي كلية تقنية ينتمي طلابها بصورة رئيسية إلى فئة يهود السفارديم المتدينين، وقد أحزنه الوضع فقال: «بقيت في إسرائيل مدرسة واحدة فقط في مدينة القدس تحاول تدريب فتيان الحاريديم من الآباء المتعصبين على الدخول في مستقبل متعدد الخيارات. ولن يكون في مقدور هؤلاء مساعدة أنفسهم مطلقاً ما لم يستحدث تغيير في منهجهم التعليمي. لقد ترعرع جيل كامل ومضى من دون أن يقدم للمجتمع أطباء أو صيادلة أو كيميائيين أو مهندسين. وسيقترب ميعاد الإفلاس والانهيار بسرعة إذا لم يتم تعديل وضع المجتمع هذا».

إذن، ذاك هو الوضع الذي وجدت الأحزاب الأرثوذكسية أنفسها غارقة فيه. فالعائلة النموذجية تتألف من عشرة أفراد تعيش في شقة مكونة من غرفتين أو ثلاث غرف، وكل جيرانها المحيطين بها هم من الأرثوذكس. وتعتني الأسرة بالأطفال جيداً ولكنها تسيء تغذيتهم أحياناً، فقد نُقِل في إحدى الحالات التي كتبت عنها الصحافة أن امرأة مذقت بيضة واحدة بالماء لكي تطبخ عجة البيض لأطفالها الثلاثة، أما الشقة فهي خالية من الأثاث، والجدران غير مزدانة بالصور ولوحات الرسم، والتلفزيون ممنوع، والأطفال يتشاجرون ليل نهار. ومكان وجود الأب الدائم هو معهده الديني، لذا تقوم الأم المثقلة بأعباء المنزل بالواجبات الدنيوية كدفع كشوف الحسابات (ماء ـ كهرباء.. الخ) والإشراف على ميزانية الأسرة المالية، بيد أنها لا تستطيع تدبير الأمور المعيشية بالاعتماد على راتب زوجها الذي يحصل عليه من المعهد لقاء تلقي العلم والمعرفة فيه. إنه عالم من المناظرات والنقاشات الدينية الحامية تتفجر فوق أحياء الغيتو البائسة المجدبة والمكتظة بالسكان الأرثوذكس، ولكن أين؟ إنها أحياء الغيتو الأرثوذكسية القائمة في إسرائيل!

وهكذا، يقع على عاتق رجال السياسة الأرثوذكسيين مسؤولية حماية كيان طائفتهم

وضمان الموارد المالية طوال حياتهم، لا بل زيادة مقدارها إن أمكن. ونتيجة لمعارضة معظم الإسرائيليين تقديم مساعدات مالية إلى الطائفة الأرثوذكسية، يتطلب ابتزاز الأموال من الحكومة استراتيجيات جديدة لم تكن دائماً مستساغة ومقبولة.

وفيما يلي استعراض للسياسة الدينية الإسرائيلية للأحزاب الدينية كل بمفرده، فلنبدأ بالحزب الذي أوقع نفسه بحبائله وخدعه الذاتية.

● حزب شاس:

جاءت انتخابات عام ١٩٨١ بسابقة لم تكن من قبل، فغيرت وشوهت صورة السياسة الإسرائيلية إلى يومنا هذا، وتمكن أهارون أبو حصيرة [وهو سليل عائلة مغربية كبيرة ومتدينة] من دخول الكنيست تحت راية حزب جديد يدعى تامي والذي مثل مصالح يهود السفارديم الدينية. وحقق نجاحاً عظيماً عندما فاز بمقعدين من أول مرة، مما أعطاه قوة طالب من خلالها رئيس الوزراء مناحيم بيغن بالاستحواذ على وزارة الشؤون الدينية، وقد تم له ذلك فعلاً. وبحلول نهاية فترة ترؤسه للوزارة، أُعتقل أهارون وحوكم ثم أدين بتهمة تحويل مبالغ كبيرة من مخصصات الوزارة واستخدامها لمصالحه الشخصية وحصوله على مبالغ غير مشروعة مقتطعة من الأموال المدفوعة بموجب القانون إلى المؤسسات المختلفة التابعة لوزارته. وحكم عليه بالسجن ستة أشهر لكنه لم يُمض لحظة منها داخل السجن، وأُمر بدلاً من ذلك أن يثبت وجوده لدى مركز الشرطة في القدس مرتين اسبوعياً. ونفَّذ أهارون الأمر حيث كان متوارياً عن الأنظار في فندق فخم على حساب الجمهور الذي خدعه.

ولمرة أخرى، يتبين أن الجريمة تجدي نفعاً وتحقق المكاسب في ميدان السياسة الإسرائيلية، فها هو أبو حصيرة اليوم تابع مخلص لحزب الليكود ويتبوأ مقعداً في الكنيست. غير أن نجاحه في الالتجاء إلى ناخبي السفارديم لم يمر هكذا من دون أن ينتبه إليه مجلس حكماء التوراة، وهو عصبة من رجال طاعنين في السن يقودهم الحاخام شاخ المولود في جمهورية لتوانيا والبالغ من العمر (٩٣) عاماً، ولهذا المجلس تأثير كبير على توجيه مسار الشؤون الدينية ليهود الأشكناز. لقد شعر أن وجود حزب للسفارديم يقوده

LAU LIBRARY BEIRUT

خريجـون من النمط الأوروبي الـذين درسـوا في المعاهد الدينية سيزيد من قوة وسيطرة الأرثوذكس المتعصبين الذين يقودهم (أغودات إسرائيل). وكان تأثير الحزب الجديد عميقاً جداً، إذ جمع في أول محاولة له أصواتاً جعلته رابع الأحزاب الكبيرة في الكنيست.

أقرتَ انتخابات عام ١٩٨٨ شرعية شاس بعد أن حصل على خمسة مقاعد، فكانت له يد طولى في تقرير سياسة الإئتلاف الحكومي أكثر من أي حزب ديني آخر، وحاول شامير من دون كلل تشكيل إئتـلاف يضم الليكود وأحزاباً دينية، لكن تبين أنه تخلى عن ذلك بسبب الثمن الباهظ الذي سيدفعه لقاء تشكيل إئتلاف كذاك. وبالرغم من تشكيل حكومة وحدة بين الليكود وحزب العمل، أدرك هذان الحزبان قوة شاس، وتم تعيين أرييه درعي وزيراً للداخلية مع أنـه لم يكن عضـواً في الكنيست. . وقـد أوْجـزتُ جرائم درعي في صفحـات سابقـة، ولا مانـع الآن في إيراد مثـال عن وسـائله الملتـوية فننعش ذاكرتنا، وسنتحدث الآن لا ريب عن جريمة رسمية معتبرة، أنشأ حزب شاس معهداً سماه «مركز تعليم التوراة لليهود الشرقيين التقليديين». ورغم هذا الاسم الرنان غير المفهوم والدال على العُجب والغرور، لم يكن المعهد سوى واجهة لتحويل ربع مليون دولار من خزينة الدولة إلى مؤسسات شاس الأخرى، أو كما علقت مراقبة نفقات الدولة فقد كان «أسلوباً تم عن طريقه تجنب القوانين الرسمية».

كان هذا جزءاً من نظام اتبعته حركة شاس في إدارة وزارة الداخلية واعتمد على هوس وولع بالسرقة. كان درعي يحتجز الأموال المخصصة رسمياً للمجالس المحلية ولا يصرفها لتلك المجالس حتى توافق على إعادة نسبة ما من تلك الأموال إلى وزارته، ومن ثم تستخدم الوزارة الأموال المعادة لتمويل مؤسساتها ومعاهدها التي كانت واجهات يتستر الحزب وراءها.

ويبقى السؤال قائماً: لماذا يتحول حزب مبني على مبادىء دينية (وأخلاقية بالنتيجة) إلى حزب جِدّ فاسد؟ ولماذا يقف مؤيدوه إلى جانبه بدلاً من الاحتجاج على جميع انتهاكاته للمبادىء الأخلاقية؟

ويكمن الجواب في جمهور الحزب الديني. إن زعماء شاس متزمتون ومتعصبون بينما

أتباعه أقل صرامة وتمسكاً ويرغبون في لي المبادىء، وتكييفها حسب ما يلائم، إن أتباعه هم جمهور السفارديم الفقراء، ويهود دولة المغرب وهم يشكلون أغلبية اليهود الذين قدموا إلى إسـرائيل من كافة الدول الشرق أوسطية (السفارديم). وشعر هؤلاء أن الأشكناز قد خدعوهم وحكموهم طيلة حياتهم، وأن اليهود الأوروبيين استولوا على حضارتهم وثقافتهم ثم حرموهم من فرص تكوين ثروات وتحقيق عيش رغيد، وهكذا، تم تبرير سرقة النظام لأنه كان ولا يزال يسرقهم.

وإضافة إلى ذلك، يمتلك يهود السفارديم المتطرفون نظام معاهد دينية عليا ومؤسسات خيرية خاصة بهم، وكذلك تعاني مدارسهم الكثيرة المتشابكة وجمعياتهم الخيرية ـ مثلما هو الـوضـع عند الأشكناز ـ من ضائقة مالية كبيرة وهي على وشك الانهيار، مما يجعل الزعماء بحاجة ماسة إلى المال. والفرق هو أن الأشكناز لديهم خيارات تساعد على تجنب الانهيار. ويستـطيع اليهود الأوروبيون التحول إلى أقاربهم والمتعاطفين معهم في أرض الشتات، وخاصة في الولايات المتحدة حيث يبلغ عدد اليهود الأرثوذكس حوالي مليون فرد يمارس معظمهم أعمالاً لكسب عيشهم. وفي المقابل، أجبر السفارديم على الخروج من الأراضي العـربية، ولـم تتح لهم فرصة تحسين وضعهم المعاشي، واستقر معظمهم في إسرائيل. ولا توجد مراكز خارجية لتدعم المركز الرئيسي في إسرائيل.

إن الأشكناز أكثر اطلاعاً على الأساليب الأوروبية في جمع الأموال. وعندما يبدؤون حملة جمع الأموال، لا يخجلون من ممارسة ضغوط كبيرة حتى يذعن الضحية ويقبل دفع تبرعات لكي يخلص نفسه من الشخص المزعج طالب التبرع. ويكتب اسم المتبرع بعد ذلك في قائمة المتبرعين التي تنظم وتدخل في الملف من أجل الاستخدام المستقبلي. وتدير مؤسسات الأشكناز بنوك معلومات، بينما يدير أناس غير مؤهلين منظمات السفارديم وخاصة حزب شاس.

يمتلك الأشكناز أيضاً القدرة على إدارة الأعمال والحصول على المال من المال نفسه من أجل دعم طائفتهم في إسرائيل، والعديد من أعمالهم شرعية وبعضها دنيئة. والعديد من الصـرافين العـاملين في السوق السوداء في القدس هم من الـ حاريديم الأوروبيين،

LAU LIBRARY BEIRUT

وهـذا مثـال من أمثلة عديدة، وهم مراقبون حاذقون للأسواق المالية الغربية ويعرفون أي المجـازفـات التي تعود عليهم بالربح الوفير. أما الـ حاريديم من السفارديم فهم مقيدون بنوعية المهتدين إلى المذهب الجديد والذين يمكن جذبهم إلى جمهور مؤيديهم. ويأتي زعمـاؤهم بشكل رئيسي من الطبقات الفقيرة في إسرائيل. ويبحث الـ حاريديم الأشكناز عن أتباع جدد من يهود الشتات (دياسبورا)، معتقدين أن أسرهم في الخارج ستسهم في تحقيق الخير والرفاه لهم وللجميع إضافة إلى توفير الحماية لهم. ويوجد في القدس حي كبير للأرثوذكس يقطنه بشكل رئيسي يهود أمريكيون واعون وحريصون على التقيد بالقانون، ويعتمـدون في الجـزء الأكبـر من معيشتهم على أمـوال ترسل إليهم من مصادر معينة في الولايات المتحدة.

لم يتمتـع شاس بالـدعم المالي الذي يحصل عليه الأشكناز، فصار أكثر يأساً من إمكانية جمع الأموال الضرورية لدعم الحاجات غير المنقطعة لطائفته. واكتشفت مخالفات شاس لعـدم توفـر الحصافة المالية لديه واللازمة لتغطية اختلاساته المالية. والحقيقة أن موظفي دائرة مراقبة نفقات الدولة حققوا في قضايا شاس المالية وأصابتهم الدهشة نتيجة السهولة الكبيرة في كشف الأموال المسروقة على يد أشخاص بسطاء غير فطنين وظّفهم شاس كمحـاسبين، وعـانى شاس أيضـاً من نقص الحنكة والمهارة اللازمتين للحفاظ على استمـرارية أي حزب سياسي في إسـرائيل. لقـد استطاع حزب العمل منذ تأسيس دولة إسرائيل أن يغري العمال للانضمام إلى نقابة العمال العامة (الهستدروت) التابعة له، واعداً إياهم بامتيازات وأوضـاع أفضل، فحصل بالتالي منهم على رسوم مالية لدعم الحزب. ويمتلك تجمع حزب العمل أيضاً بنكاً وعقارات ثابتة على شكل قطع أراض واسعة اكتسبها بصـورة طبيعية، ونفوذاً سياسياً على المستوى المحلي. وليس من المهم ضعف شعبية حزب العمل، إذ أن الحصول على دعم مالي من ذلك المصدر أو ذاك سيحافظ على بقاء الحزب حياً في الميدان السياسي.

حاولت الأحـزاب السياسية الأشكنـازية تقليد أنموذج عمل حزب العمل، ويمتلك أحـدهـا وهـو الحزب الوطني الديني، بنكاً هاماً اسمه مزراحي، بينما يمتلك (أغودات

LAU LIBRARY BEIRUT

إسـرائيل) أسهمـاً في بنك أقل مستوى. أما شاس فلا يمتلك بنكا ولا نقابة عمال، بل عقارات قليلة وعدد كبير من أفراده المتهمين بارتكاب الجرائم.

احتجزت الشرطة عام ١٩٩١ كبير المساعدين الماليين للوزير درعي في وزارة الداخلية وهو يوم توف روبن، ووجهت إليه تهماً تتعلق بالكسب غير المشروع والسرقة، وقد عينه درعي في منصب رئيس مجلس بلدة ليهافيم قرب بئر السبع، ثم اشترى أرضاً عديمة القيمة في تلك المنطقة بثمن زهيد. وزادت قيمة تلك الأرض بعد أن حصل على إذن حكومي للبناء فيها، وهو أمر يصعب جداً الحصول عليه في إسرائيل.

وأعيد سجن مسـاعد مقرَّب آخر من درعي على سبيل الاحتياط للاشتباه بممارسته الرشوة، والاختلاس والاحتيال، واسمه موشي واينبرغ. واعتقل أيضاً مساعد مقرَّب جداً لدرعي هو زفي جاكبسون للاشتباه باختلاسه أموالاً. بيد أنه كان من الجيد أن عُيِّن محامي حزب شاس ديفيد غلاس شقيق درعي كمحام، بينما درعي ومساعدوه يخضعون لتحقيق بشأن اختلاس أموال الدولة. وطالت حبائل الخداع وزارة أخرى أدارها شاس، فعاث فيها فساداً.

كان رفائيل بنحاسـي وقت تأليف هذا الكتاب (وليس وقت نشره لحسن الحظ) وزير الاتصـالات وأحد أعضاء شاس في مجلس الوزراء. ويتحرى جهاز الشرطة حاليا تهمة وجهها عضو سابق من شاس في الكنيست هو ياكوف يوسيف، ويوسيف هذا هو ابن الزعيم الـروحي لشاس أوفاديا يوسيف الذي كان الرئيس السابق لحاخامات يهود السفارديم في إسرائيل. وقد تلقى يوسيف عندما كان عضواً في الكنيست شيكاً بمبلغ (٢٢٥) ألف دولار (لأسباب لم يعلن عنها بعد)، وذكر يوسيف أن بنحاسي أخذ الشيك وزوّر توقيع يوسيف وقبض قيمته. وأضاف يوسيف: «أين الموضع في التوراة الذي يذكر أن السرقة مباحة؟ أيبيح لنفسه السرقة لأنه وزير؟ يجب استبدال هؤلاء جميعاً بآخرين. إنهم جميعاً لصوص».

لقد كشفت عودة يوسيف المفاجئة إلى ضميره الحي اشمئزازه من سياسة شاس في تأجيج مشاعر الظلم لدى السفارديم، ومما صرَّح به: «إن رئيسهم متورط في جناية تزوير

التـواقيع . . ويصرخون أنهم يُستجوبون لأنهم فقط من السفارديم . إنهم سيدفعون ثمن أعمالهم تلك» . وتلقى يوسيف تهديدات قانونية وأخرى بالاعتداء عليه بسبب ابدائه مشاعر السخط .

وتحقق الشرطة حالياً مع عضو آخر في الكنيست ومن حزب شاس اسمه يائير ليفي بشبهة تزوير شيك بقيمة (٢٧) ألف دولار ووضع أموال عامَّة في حسابه الخاص في البنك . واجتمع ليفي مع مفتشي الشرطة واستطاع الحصول على إذن بالسفر إلى الولايات المتحدة لمدة شهر واحد، لكنه لم يرجع بعد مضي ستة أسابيع ولم ينبه إلا أنه سيعود . وعلَّق أمنون روبنشتاين من حزب شينوي قائلاً : «يجب على إحدى الشخصيات الرسمية أن تتعاون مع الشرطة وتعود إلى الوطن بسرعة» . وأضاف عضو في الكنيست من حزب راتس : «سيكون ذلك سابقة تاريخية فاجعة أن يتغيب عضو في الكنيست من دون عذر هرباً من القانون» .

وأثنـاء تسـاؤل الحكومة فيما إذا كان ليفي سيعود ليواجه التهم الموجَّهة إليه، اتخذ الحاخام غامليل عضو الكنيست في شاس قراراً من طرف واحد بالوقوف ضد الحكومة في أي اقتراح تطرحه، وذلك احتجاجاً على «التحقيق المتحيز» ضد شاس . ولا شك أن ما حفـزه على اتخـاذ موقف كهذا هو النظر قضائياً في السابق فيما يتعلق بتقديمه مساعدة للتنصت على هاتف ومنزل أحد المراسلين الصحفيين، مع احتمال أن ينكشف دوره إذا ما عقدت محاكمة، ولهذا ادَّعى أن دوافعه كانت معارضة معاملة الدولة المعادية للسفارديم .

بدا حزب شاس بقضه وقضيضه وكأنه أسرة من أسر عصابات المافيا، مما دفع مراقبة نفقات الدولة إلى القيام بتحرك يقصم ظهر الحزب ويكسر شوكته . إن الحكومة تمول فعلياً مصاريف الحزب في نشاطاته السياسية، ولهذا قررت مراقبة نفقات الدولة في أواخر شتاء عام ١٩٩١ أن تستقطع مبلغ (٦٧٥) ألف دولار من المخصصات الحكومية الخاصة بحزب شاس كعقاب له على جميع الأعمال غير القانونية والتي بينتها في أربعة تقارير منفصلة . وبسبب مراقبـة الشـرطة المُحكمة لأي عملية اختلاس، شحَّت مصادر المال المختلس وأصبح مبلغ (٦٧٥) ألف دولار المستقطع بمثابة الخط الفاصل بين الموت والحياة بالنسبة لشاس . ووقع شاس على اتفاقيات شديدة الوطأة وذات أجل طويل لصالح معاهده الدراسية

العديدة ومؤسساته، فمن دون المخصصات الحكومية كان الموظفون سيتركون وظائفهم من دون الحصـول على أجـورهم، وهـو انتهاك لبنود الاتفاقيات السالفة الذكر، وبهذا كان الحزب سيجبر على السير في طريق الإفلاس .

إن استمرار شاس في انتهاجه أسلوب حكومة تقوم على السرقة والاختلاس سيؤدي إلى سقوطه، ولكن أقول ثانية أنه ربما من السابق لأوانه التنبؤ بانهيار شاس ومحاولة إثبات ذلك . لقد بدا أن حزب العمل سمح لشاس بالتورط في السرقة تحت بصر وسمع وزارة المالية لكي يضغط على الحزب ويرغمه على إسقاط حكومة الوحدة الوطنية، ومن ثم الانضمام إلى إئتـلاف حكـومي جديد بزعـامة حزب العمل . وفشلت هذه الخطة واحتفظ الليكود بوزيرين من شاس في مجلس الوزراء من أجل تجنب سقوط حكومة أخرى، وذلك على الرغم من الاتهامات القاسية وتحقيقات الشرطة التي كشفت عدداً كبيراً من الأدلة ضد شاس .

ويصعب على المـرء تخيل أي نظام ديمقـراطي آخـر في العـالم يسمـح لوزيرين بالاستمرار في شغل منصبيهما الرسميين على الرغم من شبهات قوية تدور حولهما وتتعلق بالسرقة والاحتيال والتزوير وابتزاز المال واختلاس مبالغ مالية . وهذه هي الحالة المروعة البالغة السوء في إسرائيل .

● إسحق بيرتز :

بيرتز هو حاخام وعضو سابق في حزب شاس، ويشغل الآن منصب وزير الهجرة بعد انضمـامـه إلى تجمـع الليكود، وهو منصب على قدر بالغ من الأهمية نظراً إلى الهجرة الجماعية الضخمة التي تحدث حالياً حيث يتجه يهود الاتحاد السوفييتي سابقاً إلى إسرائيل بأعداد هائلة . ومن البدهي أن وصولهم إلى إسرائيل قد خلق مشاكل عديدة، ولم يتصرف بيرتز وفقاً للتحذيرات التي تم تبليغه بها حول حجم موجة الهجرة العارمة لليهود السوفييت والوشيكة الوقوع، فمثلاً لم يعين موظفين جدد في مكتب الهجرة الذي يتعامل الآن مع (٢٥٠) ألف طلب هجرة سنوياً (مقابل عشرين ألف طلب سنوياً في السابق)، ولم يُمنح

LAU LIBRARY BEIRUT

الموظفون علاوة رواتب للتعويض عن أتعاب العمل الإضافي أو يتم تزويدهم بمترجمين سوفييت للإسراع في وتيرة العمل. والأكثر غباءً من ذلك عدم زيادة ساعات العمل اليومية، بل بقيت من الساعة الثامنة صباحاً إلى الواحدة ظهراً، وهي ساعات كان من الأجدى أن يقضيها اليهود السوفييت في البحث عن عمل أو مكان سكن أو تعلم اللغة العبرية، لا أن يقضوها في الانتظار أمام مكتب الهجرة في طوابير لا نهاية لها. ومن الصعب أن يتعرف المرء على النواحي الأخرى التي اتبعها بيرتز لعدم تأمين دخول سهل ميسر للمهاجرين إلى إسرائيل.

كان من صميم عمل بيرتز أن يوجد روتيناً حكومياً فعالاً وخفيف الوطأة بهدف تشجيع عملية الهجرة أكثر فأكثر، ولكنه فشل فشلاً ذريعاً في القيام بأعباء المهمة التي اختار توليها. ولم يكن أبداً بالرجل القادر على تحمل واستيعاب مئات الآلاف من اليهود القادمين حديثاً ومعظمهم من اللادينيين، ذلك أنه لم يتحمل مجرد كون اليهودي غير متدين، وقبل منصب الوزير كوسيلة لضمان جعل اليهود الوثنيين أفراداً صالحين أتقياء! بعد وصولهم بالآلاف شهرياً. والأهم من كل ذلك أن وزارة بيرتز كانت متميزة بإصراره على المحافظة على صفاء العقيدة اليهودية لدى المهاجرين، وإقناع العديد منهم ليصبحوا أكثر تمسكاً بالمذهب اليهودي عن طريق اتباع شعائر رمزية مثل إعادة طقوس الزواج وفقاً للتعاليم الأرثوذكسية، وإعادة إجراءات اعتناق الدين وتطهير الروح. لقد جعل من الهجرة إلى إسرائيل عملية تعذيب نفسي وجسدي تتزايد قساوتها عندما يلوح في الأفق شك ولو بعيد حول الأصل اليهودي لشخص ما.

● ديغل هاتوراه:

إنه حزب آخر منضوٍ تحت جناح مجلس حكماء التوراة الذي يترأسه الحاخام شاخ، وبعد إعلان نتائج انتخابات عام ١٩٨٨، وجه حزب تحيا اتهاماً لحزب ديغل هاتوراه باللجوء إلى الغش والاحتيال في مركزين اثنين من مراكز الاقتراع، وقدّم دليلاً مقنعاً عن الوسائل المستخدمة، ومنها جمع بطاقات شخصية لأشخاص أموات لا زالت أسماؤهم على قوائم الناخبين والتصويت لصالح الحزب. وكان الدليل مقنعاً بدرجة كافية حتى أن

المحكمة العليا أمرت بإعادة الانتخابات لأول مرة في تاريخ إسرائيل في مركزي اقتراع متنافسين.

وفي انتخابات شتاء عام ١٩٩١، فاز حزب ديغل هاتوراة مرة أخرى مع مزاعم حول استخدامه عمليات تزوير مرة أخرى. وقام حزب تحيا بتحرير شكوى رسمية لدى جهاز الشرطة حول رشاوى مزعومة، وذكر تقريره أنه عرض على امرأة عجوز في الستين من عمرها مبلغ مائة شيكل، ونقلها مجاناً بواسطة سيارة أجرة إلى مركز الاقتراع، وتقديم هدية مناسبة لها بعد ذلك إذا ما صوتت لصالح ديغل هاتوراه. وأورد التقرير عشر حالات مشابهة للرشوة تلك.

عندما نناقش موضوع الرشوة، نرى أن ديغل هاتوراه ليس مميزاً من بين باقي الأحزاب. وبعد نشر نتائج الانتخابات العامّة لسنة ١٩٨٨، كان المواطنون الإسرائيليون المرتبكون غير قادرين على تفسير سبب تصويت ما يزيد عن ألفين من العرب لصالح ديغل هاتوراه، ومنهم رجال من بدو صحراء النقب مع أنهم لا يكترثون بسياسة (هارودي). وتم حل اللغز، وسجن أحد مؤيدي الحزب لدفعه رشاوي مالية إلى ناخبين عرب. ولا حاجة للقول أن حزب ديغل هاتوراه يجلس مطمئناً في الكنيست لحيازة عضوين منه على مقعدين فيه، ويتمتع بكل المكاسب المالية باعتباره جزءاً من الإئتلاف الحاكم وبغض النظر عن كيفية وصوله إلى الحكم.

● الحزب الديني الوطني (NRP):

وهو حزب صهيوني ديني منقسم حالياً إلى مستوطنين متشددين وإلى مستوطنين معتدلين. وبالرغم من أن زعيمه غارق إلى أذنيه في الفساد كما هو مزعوم، فذلك ليس صفة مميزة للحزب، وإنما يتميز بكونه يضم أقوى الجماعات وهي جماعة غوش إمونيم، الجماعة النشطة التي أنشأت أول مستوطنة في الأراضي في عام ١٩٦٧.

وَيُدَرَّسُ في المدرسة الدينية التابعة للحزب معتقد يقوم على أساس أن ملء أراضي إسرائيل الموغلة في القدم هو عمل مقدَّس للخلاص. وفي عام ١٩٦٧، احتل خريجو

LAU LIBRARY BEIRUT

وطلاب المعاهد الدينية للحزب الوطني الديني أرضاً بصورة غير قانونية لإنشاء أول مستوطنة لهم، واستطاعوا في نهاية المطاف انتزاع موافقة حزب العمل على إنشائها، أي على إقرار حكومي لمبادرة الحزب الوطني الديني. وانضم إليهم منذ ذلك الحين (١٠٠) ألف يهودي ليسوا جميعاً من مؤيدي الحزب الوطني الديني. وبهذا يكون أتباع حزب واحد قد لفتوا انتباه العالم إلى قضية «التوسع الإسرائيلي».

لا يوافق الإسرائيليون بالإجماع على أن المستوطنين يمثلون عقبات في وجه السلام، وتنظر الأغلبية إلى المستوطنين على أنهم آخر جيل من الرواد والأشخاص المثاليين الذين يقبلون مواجهة المخاطر اليومية بهدف ضمان أمن إسرائيل. ومع أن حركة الاستيطان النابعة من الحزب الوطني الديني هي قضية تسبب الانقسام والخلاف في إسرائيل، إلا أنها على الأقل لا تعتمد على السرقة والابتزاز واختلاس الأموال والمحسوبية والرشوة، بل تعتمد على أساس أيديولوجي.

وربما تكون أيديولوجية الحزب غير فاسدة، ولكن أساليب جمع أمواله دنيئة بالتأكيد، فقد تم تحويل ملايين الدولارات إلى الحزب خلال الخمسة عشر عاما الماضية عن طريق ماركوس كاتز، وهو تاجر سلاح يتخذ من دولة المكسيك قاعدة لأعماله وغارق من قمة رأسه إلى أخمص قدميه في مستنقع الأعمال غير الشرعية في أمريكا الوسطى (انظر كتاب علاقات خطرة للمؤلفين لسلي وألكساندر كوكبيرن).

وعودة إلى إسرائيل لنرى أن رئيس الكنيست أفنير شاكي العضو في الحزب الوطني الديني قد أخضع لتحقيق مع الشرطة حول تحويل (٤٠٠) ألف دولار من أموال الدولة إلى أفراد من أسرته. وانهار شاكي أثناء عملية التحقيق في إحدى غرف فندق تل أبيب، وطلب من الله أن ينقذه، لكنه بقي في الكنيست بدلاً من إيداعه السجن.

● أغودات إسرائيل:

رفض حزب «أغودات» الانضمام إلى الإئتلاف الحكومي الحالي إلا بتوفر ثمن مناسب مقابل انضمامه، لا سيما وأنه من أعداء الدولة من غير الصهيونيين. وقد انضم «أغودات»

إلى الإئتلاف الحكومي بزعامة شامير عشية يوم الإنذار النهائي الذي وجهه رئيس حزب تسوميت واسمه رفائيل إيتان إلى شامير بشأن إجراء إصلاحات في النظام الانتخابي. وحصل «أغودات» على عدد قليل من مناصب نواب وزراء التي يكسب من ورائها ملايين الدولارات، ولكن الأهم من ذلك بالنسبة لهم أن شامير وافق على طرح ودعم تشريعات تحظر الإجهاض وإنتاج وبيع لحم الخنزير، وتمنع تسيير مركبات النقل العامّة أيام السبت، وتمنع الإعلانات التجارية التي تستخدم صور نساء جميلات حيث اعتبر ذلك مشجعاً على الأعمال اللاأخلاقية.

وبالنسبة للفقرة الأخيرة من القانون المذكور آنفاً، استمرت طيلة العقد الماضي أعمال تشويه صور النساء الجميلات الملصقة على لوحة الإعلان ومظلات مواقف الحافلات في جميع أنحاء البلاد. ولم يكن تشويه الصور كافياً في مدينة القدس، بل أحرقت عشرات مظلات مواقف الحافلات لأنها كانت تحمل ملصقات عليها صور النساء. واستشاط سكان القدس اللادينيين غضباً جراء تلك الأعمال، فاقتحموا أحد المعابد اليهودية قبل عدة سنوات ماضية وأحرقوا كتب الصلوات.

اعتبر المتدينون أن ذلك لم يكن رداً انتقامياً من نفس النوع. وهم لا يدركون عمق مشاعر العدد الكبير من الإسرائيليين الذين يعتبرون أن حرية التعبير هي أكثر أهمية في حياتهم من حرية أداء الصلاة. إن حرق مظلات مواقف الحافلات بسبب صورة امرأة كاشفة عن ذراعها هي بالنسبة لذلك النمط من الناس انتهاك صارخ لحقهم في الحصول على حرية التعبير الفني، إضافة إلى الحماية من الإصابة أثناء حدوث العواصف الرعدية.

وتم الإيقاع بالمسؤولين عن الحرق حيث اعتقلوا واحتجزوا، ولكن كما هي العادة دوماً أطلق سراحهم من غير محاكمة، وشعروا رغم ذلك بالمهانة لوضع الأصفاد في أيديهم وأقر قانون «أغودات» الجديد أعمال تخريب الملصقات في السنوات الماضية والتي كانت شبه قانونية.

لم يكن الدافع وراء إشعال الحرائق مجرد حماية كرامة المرأة، وظهر في الحقيقة أن

LAU LIBRARY BEIRUT

مشعلي الحرائق مصابون بإحباط جنسي شديد ويريدون الابتعاد عن كل شيء عام يذكرهم بما يفتقدونه أو ينقصهم. إن الأرثوذكس المتشددين يتبعون قاعدة الزواج في سن المراهقة من دون أن يختار أحدهم بالضرورة المرأة التي تناسبه، وإنما يخضع زواجه لنزوات صانعي الزيجات الذين يجمعون بين الرجل والمرأة؛ وهي ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها في عالم المدرسة الدينية المعزول عن بقية أجزاء العالم. ويحدث أن تكون المرأة جميلة جذابة مثل النساء الأخريات في أوساط السكان، ولكنها تصاب بالإنهاك والتعب عند سن الأربعين بعد إنجاب عدد كبير من الأولاد، وهي بعكس نساء الحركة الأرثوذكسية الجديدة، لا تعرف وضع مواد التجميل ولا ارتداء الأزياء الحديثة، فوجود شيء يذكر دوماً إمكانية حصول الإسرائيليين اللادينيين غير المتدينين على نساء جميلات يدفع بعض رجال الأرثوذكس المتشددين إلى النزوع بصورة لا تقاوم إلى إشعال الحرائق، فيصبح هوساً عندهم.

ونرجو ألا يزعم عدم وجود نقاق في مواقفهم تلك، إذ يصرِّح أصحاب المواخير وبعض بائعات الهوى (حيث لم يقم أحد بإحراق محلاتهم) أن معظم زبائنهم هم من العرب ومن الأرثوذكس المتعصبين ممن يعانون كبتاً جنسياً.

وبعد الموافقة على منع نشر صور النساء الجميلات في الإعلانات، قبل شامير مطلب «أغودات» القاضي بمنع الإجهاض، إذ من المفترض أن يقدم هذا العمل الخير الكثير. وأُقر عام ١٩٧٨ قانون مشابه بضغط من «أغودات»، وتزايدت حالات الإجهاض باضطراد في إسرائيل بسبب انغماس الإسرائيليين في الثورة الجنسية. ويتجاهل معظم الأطباء اللادينيين المحرمات الدينية، وتظهر الدولة فتوراً في مقاضاة أكثر مواطنيها ثقافة وعلما ونفوذاً.

إن تقييد خدمات النقل العام أيام السبت يضر بالشريحة الكبرى من الأتباع شبه التقليديين المؤيدين للأحزاب الدينية والأحزاب اليمينية، إذ لا يملكون غالباً سيارات جيدة تستطيع تحمل رحلة إلى الشاطىء في يوم حار. وليس للقرار تأثير على المؤيدين الأكثر غنى من الليبراليين واليساريين اللذين لن يضطروا إلى تحمل معاناة جر أسرهم لركوب الحافلة عند الخروج في نزهة.

ولم يتأثر الناس الفقراء فقط، ففي الجليل الأعلى حيث يحتاج المرء إلى مدة ثلاث أو أربع ساعات للوصول إلى التجمعات السكانية إلى جنوب البلاد قدَّم المجلس المحلي التماساً إلى المحكمة العليا للوقوف بوجه مشروع منع تسيير وسائل النقل العام أيام السبت والذي يدعمه حزب أغودات إسرائيل. واتهم رئيس المجلس الحكومة بإخضاع «أمورها الإدارية وحرية التصرف قانونيا إلى سياسات تمليها عليها اتفاقيات تشكيل الإئتلاف الحكومي». وهذه ملاحظة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار. وعلى الرغم من الاعتراض القانوني ذاك وغيره كثير، فإن القوانين المتعلقة بحظر النقل يوم السبت سيطبق بقوة وإلا فلن يتم الاعتماد على تصميم الحكومة لإبقاء أغودات إسرائيل في الإئتلاف.

حظرت الحكومة في الماضي لحم الخنزير عدة مرات، وصممت في تلك المرة على إضاعة جزء من أموال دافعي الضرائب لتنفيذ رغبة «أغودات» ولو بالقوة. وبعد إعلان قانون حظر لحم الخنزير، اندفع الجزارون إلى الشوارع وهم يوزعون لحم الخنزير المطهو مجاناً على الناس. وفي حين أبدى الناس ردود فعلهم بأشكال متعددة - إلى درجة العنف ضد الاحتجاج الذي قام به آكلو الأطعمة المخالفة للشريعة اليهودية - أيد الجزارين عضوان من مجلس بلدية القدس هما موشي عميراف وأورنان بسبب استيائهما على الأغلب من الاتفاق المثير للسخرية بين الليكود و«أغودات» الذي حدث في شهر تشرين الثاني عام ١٩٩٠ بهدف الدخول في الإئتلاف الحاكم. وأنشأ الإثنان منظمة تدعى «جمعية مناهضة القذارة الحكومية» وكان شعار أورنان هو «ابتعد عن أطباق طعامنا».

والأخطر من ذلك هو اختفاء المراقبة الصحية بعد انتزاع حق تداول لحم الخنزير من أيدي المواطنين. واضطر من يريد شراء اللحم إلى التعامل مع مربي الماشية من النصارى العرب الذين لا تنطبق مواصفات ذبحهم دوما على المعايير القانونية أو المقبولة نوعاً ما. إن تطبيق القانون سيؤدي إلى التحريم، وسيمول كالعادة من الأموال العامَّة، فإغلاق مزرعة الخنازير الكيبوتسية المسماة لاهاف ومنشأة المعالجة في منطقة مزراح سيكلف الحكومة ملايين الدولارات، ثم ما الفائدة التي ستُجنى من وراء ذلك؟ سيتوقف بعض الناس عن المجاهرة بارتكاب الآثام وسيشترون اللحم المحرَّم في الشريعة اليهودية من المواطنين

LAU LIBRARY BEIRUT

العرب. وسيتساءل الإسرائيليون مرة أخرى عن مصير الضرائب التي يدفعونها، وهم يعانون من مشقة الوفاء بمتطلبات الغذاء لهم ولأسرهم، بينما يستخدم قسم من أموالهم في منع الآخرين من تناول فخذ الخنزير بدلاً من إنفاقه على سد رمق أسرهم.

ويلوح في الأفق شعاع أمل، إذ أن أغلب أعضاء الليكود أشخاص لادينيين. وطبقا لما ذكره أحد المقيمين في كيبوتس لاهاف، يشتري أرييل شارون لحم الخنزير منذ عدة سنوات من هذه المزرعة. غير أن النفاق متغلغل في أوساط الحكومة، وحتى شارون سيكون راغباً في التخلي عن وجبة طعام دسمة مقابل بناء المزيد من المنازل في منطقة المرتفعات فوق مدينة الخليل. وهكذا، سيضطر الإسرائيليون في المدى المنظور إلى شراء قطع لحم الخنزير من أشخاص انتهازيين وغير أخلاقيين.

لم يهز ذلك التشريع بطبيعة الحال جميع المواطنين الإسرائيليين الخاضعين للقانون. وكما صرّح المذيع إيدل روس: «سيزداد الوضع تعقيداً وغموضاً من الآن فصاعداً، ولكن على الأقل لن ترى بائعات الهوى أو لحم الخنزير أو ملصقات النساء».

وكان من الطبيعي أن يتزايد التعسف الديني بصورة ملحوظة منذ الاتفاق بين حزب الليكود و«أغودات» في شهر تشرين الثاني عام ١٩٩٠. ومن الأرجح أن أكثر المتضررين هم العاملون في قطاع المؤسسات الترفيه واللهو والاستجمام، والذين يقومون بجزء هام من عملهم في ليلة وحيدة من الأسبوع؛ تلك هي ليلة الراحة والمتعة المعروفة رسمياً في إسرائيل.. ولكنها تأتي يوم السبت (نعم، فإسرائيل هي آخر دولة ديمقراطية في العالم يبلغ فيها عدد أيام العمل في الأسبوع ستة أيام). لقد أجبر هؤلاء الأفراد على إغلاق محلاتهم أيام السبت، ويعتمد ذلك على حماس السلطات المحلية في تنفيذ ذلك.

اعتبر مجلس المدينة مدينة تل أبيب المخالفين لتعليمات يوم السبت كمصدر يدر الأموال عليه. فمثلاً، تراكمت الغرامات على يائير سيناي الذي يمتلك محلاً للوجبات الخفيفة بسبب فتح المحل أيام السبت ومخالفات أخرى ملفقة كعدم الترتيب وما إلى ذلك، ووصل مقدار الغرامات إلى (٤٥٠) ألف دولار. وظن رجال أعمال آخرون أن مسؤولي مدينة

LAU LIBRARY
BEIRUT

تل أبيب لن يقوموا فعلياً بتحرير مثل هذه المخالفات، فسجلت ضدهم غرامات وصل مقدارها إلى مبالغ قريبة من المبلغ السابق، ووقعوا تحت دين لا يستطيعون الانفكاك منه طيلة حياتهم. واستمروا في العمل أيام السبت رغم ما حدث وذلك لأسباب تجارية وأخلاقية، فكانت تُقيّد ضدهم كل يوم سبت غرامات يصل مقدار الواحدة منها إلى (٩٠) دولاراً كحد أدنى. وطبعاً، يحصل من لديه واسطة ونفوذ على ترخيص العمل أيام السبت، وهو امتياز لا يحصل عليه إلا عدد قليل جداً من الناس، أما الآخرون غير المحظوظين والذين لا يجدون مساعدة أو دعما من مسؤولين متنفيذين في المدينة، فيتم إشباعهم بالمحاضرات والخطب الرنّانة عن حرمة يوم السبت.

ويعلم يائير سيناي أن أحد رجال الأعمال يقلّب الرأي في تحوله إلى المذهب النصراني ليتجنب القانون، ويشكو من تلقي العرب معاملة مميزة إذ يسمح لهم بانتهاك حرمة السبت. إلا أن أناساً من غير العرب يعملون أيضاً يوم السبت، وهذا ما يبيّنه رجل الأعمال موشي شاؤول المثقل بغرامات كبيرة: «إنهم يتركون العاهرات واللصوص ومدمني المخدرات ويعملون على مضايقة من يكافح لتأمين حياة شريفة». وجمع موشي مبالغ الغرامات وقال بشيء من الأمل: «ستأتي يوماً ما حكومة أخرى لتبطل قانون يوم السبت وتلغي جميع الغرامات المتعلقة بنا». وهذه عاطفة نبيلة ولكن يستحيل تجسيدها وتحقيقها من دون حصول تغيير شامل في نظام الانتخابات الإسرائيلي.

تبدو مدينة القدس المقدسة وكأنها ليبرالية متحررة وذلك بعكس مدينة تل أبيب. وقد أعلن القاضي أيالا عام ١٩٨٧ أن قضية قانون يوم السبت برمتها كانت خارج نطاق سلطة المجلس البلدي، ورفض محاكمة أي مواطن يخالف ذلك القانون، وأراد الأعضاء المتدينون في مجلس البلدية إعادة فرض التعليمات الخاصة بيوم السبت، لكن عدداً كافياً من الأعضاء العلمانيين أيدوا رأي أيالا، فكانت النتيجة أن غدت القدس أنشط مدن إسرائيل وأكثرها حيوية في أيام السبت. ولم تبذل العاصمة جهداً كبيراً للحصول على اعتراف الجميع بذلك، لا سيما وأن المناطق الأخرى في البلاد تبدو راكدة ومشلولة الحركة عند مقارنتها بالقدس يوم السبت.

تعتبر السنوات التي قضاها عمدة القدس المشهور تيدي كوليك سنوات فشل ذريع،

في حين توجد تصورات غير إسرائيلية تقول خلاف ذلك. وقد حاول إدارة القدس بوضعها الفاسد دينيا وفقاً للأسلوب اللاديني. ويعكس اسم حزبه «قدس موحدة» وجهة نظره التي تتناقض مع الواقع المر للمدينة المقسمة إلى مناطق معزولة عن بعضها البعض؛ فالسكان العرب في القدس الشرقية منعزلين عن اليهود، وجميع مناطق اليهود الأرثوذكس مغلقة علىٰ المواطنين غير المتدينين، بينما وضعت مناطق اللادينيين المجاورة عوائق اجتماعية واقتصادية لاجتثاث الموجة الدينية من جذورها. وجرت مؤخراً دراسة ومسح للمدن المقسمة، فوضعت القدس في صدارة مدن العالم الأكثر تقسيماً، وقبل برلين وبوسطن وبلفاست من ناحية الفجوات الاجتماعية الموجودة بين مجموعات سكانها الرئيسية.

تم التخطيط سابقاً لجعل نصف سكان الحي اليهودي في مدينة القدس القديمة المسوَّرة من اللادينيين بعد أن فتحت أمام المقيمين اليهود في أواخر الستينيات، وأول من تجرأ وفكّر في الاستملاك هناك كان من اللادينيين الذين أثبتوا إمكانية العيش بأمان قريباً جداً من العرب خلف جدران القرن السادس عشر للميلاد والتي بناها الأتراك، وبدأ المواطنون الأرثوذكس يشترون حصصهم من الأراضي والملكيات المتوفرة ليكونوا قريبين من الأراضي المقدسة التي يقع فيها جبل الهيكل! (وما يسمى بحائط المبكى هو جزء من تلك الأرض).

ودخل الأرثوذكس في عدة صدامات مع اليهود اللادينيين بسبب معتقدات دينية لها صلة مباشرة بالوضع آنذاك، فأخرجوا معظمهم من الحي عن طريق استخدام المضايقات وتكرارها باستمرار. وعلى سبيل المثال، ربما يؤدي رفع صوت التلفزيون مساء الجمعة إلى قطع التيار الكهربائي بشكل كامل عن طريق سرقة الصمامات الكهربائية (فيوزات) من صندوق اللوحة الكهربائية للبناية كلها. وظهور المراهقات المتساهلات بمظهر تحظره الشريعة اليهودية قد يؤدي إلى تحطيم النوافذ. أما الاشتباه باتباع عادات مخالفة للدين فقد يؤدي إلى إثارة رد فعل الجيران وتخريب المنزل أو الشيء المملوك. وأصبح معظم سكان المناطق المجاورة حالياً من الأرثوذكس بعد طرد اللادينيين منذ عشر سنوات.

وبقدر تعصب الأرثوذكس الشديد ضد اللادينيين، فإننا نرى نشوء صداقات عديدة بين الأرثوذكس والعلمانيين. بيد أنه يتوجب على الفرد اللاديني التراجع عن كل ما يؤدي إلى صدام وشجار، فهو يقيم حفلةً يوم السبت بدلاً من مساء الجمعة خوفاً من إيذاء أصدقائه المتدينين، ويقدم الطعام في أطباق من الورق لأن أطباقه الخاصة قد تتلوث من غير قصد باللحم الممزوج بالحليب. ويجب على اللاديني أن يكون أكثر مراعاة لشعور المتدين أثناء تجاذب أطراف الحديث. إن كل ذلك أشياء لا يمكن اجتنابها ولا مفر من الأخذ بها، ويصبح الحفاظ على صداقة (أو العياذ بالله.. زواج) بين متدين وآخر لاديني أمراً مثبطاً مع مرور الزمن، وقد تنفصل عرى الرابطة فيبتعد الإثنان أحدهما عن الآخر.

برز حزب أغودات إسرائيل وأخذ يستغل ويفاقم الخلافات ويعمل على تعميق الهوة بين الأحزاب المتعددة. وهو مقتنع بأن جميع النصارى في إسرائيل وأولئك الذين يدعمون الدولة من الخارج هم في الحقيقة مهتمون فقط في تحويل اليهود إلى المذهب النصراني. واعتبر مؤيدو «أغودات» وزعماؤه أن كل إسرائيلي يتعاطف ويتعامل مع جماعات نصرانية هو شخص متخلٍ عن اليهودية ومنجذبٍ إلى النصرانية. ووصل الأمر إلى درجة اعتبار الأرثوذكسي ناثان شارانسكي عدواً «لأغودات» بسبب جمع أموال لصالح جماعة نصرانية هولندية مؤيدة لإسرائيل، وذلك بالرغم من قضائه ثلث حياته متنقلاً بين السجون السوفييتية بسبب إيمانه بدولة إسرائيل.

وتعدى حقد أغودات النصارى ليصل إلى زملائهم.. وتوجَّب على الكنيست إقرار قانون جديد في أيام عام ١٩٩٠ لمنع المدارس من رفض الطلاب وفق اعتبارات دينية، حيث أثيرت هذه القضية بعد اكتشاف أن مدارس «أغودات» في مدينة بني براك لم تقبل انتساب طلاب إليها لكونهم من السفارديم.

يعتبر نائب وزير العمل مناحيم بورش من أنشط أعضاء الحكومة، وكان ولا يزال رئيس حزب «أغودات». وتمثلت أول أعماله في منع موظفي المطار من العمل أيام السبت، مما أجبر الخطوط الجوية الأجنبية على إحضار رجال الميكانيك معها وغير ذلك من اللوازم إذا ما أرادت الإقلاع من إسرائيل يوم السبت. ونجم عن ذلك أيضاً إلحاق ضرر بثالث أكبر

LAU LIBRARY BEIRUT

صناعة وطنية وهي السياحة، إذ طال الأذى الفنادق والمرشدين السياحيين وسيارات الأجرة والمقاهي وكل شيء له صلة بقطاع السياحة، حتى أن علاقة شركات طيران العال الإسرائيلية بالمطارات الأجنبية قد تزعزعت وتعرضت للخطر.

وبالإضافة إلى ذلك، ضم بورش جهوده إلى جهود وزير الهجرة بيريتز لجعل القادمين إلى إسرائيل من الاتحاد السوفييتي أيام السبت ينتظرون إلى اليوم التالي، وحتى قبل أن تبدأ فترات تأجيل لا تنتهي من أجل دراسة طلبات الهجرة وإجراءات أخرى معينة. ولم تسلم الثقافة من تدخل بورش، إذ أصدر تهماً بحق العاملين أو القائمين بفعاليات المهرجان الإسرائيلي في يوم السبت، وهو مهرجان سنوي عبارة عن فورة نشاط أدبي يلقى فيه الشعر وتمثل المسرحيات وتصدح ألحان الأوبرا.

وعندما يُقدِم أي وزير على انتقاد أو تحدي أعماله الظالمة وتعسفاته، يرد بورش بهدوء ناعتاً ذلك الوزير بأنه «نازي»، وهي إهانة كبيرة في دولة يهودية أسسها الناجون من المحرقة التي نفذها الألمان النازيون ضدهم!

إن اندهاش الشخص الأجنبي من درجة التعصب الديني الكبيرة في إسرائيل هذه الأيام قد يؤدي إلى استنتاج خاطىء فحواه أن البلاد تغص بالمتشددين المتدينين الذين يخافون الله. والحقيقة أن (٢٠٪) فقط من السكان هم من الأرثوذكس المتعصبين، وتبين عند التدقيق والنظر عن كثب أن السلطة التي تستحوذ عليها الأحزاب الدينية هي مجرد سلطة فارغة ضعيفة، وتشبه حالة ذنب يهز الكلب وليس العكس. إن الأقلية الحاكمة لا تعمل فقط على خفض مستوى معيشة الشعب عامَّة، بل تدفع بالناس للسير باتجاهات لا يرغبون في السير فيها. وغالباً ما يتناهى إلى سمع المرء أنه لا جديد في أسلوب القسر الديني، وأن ما يحدث الآن يختلف أبداً عما كان يحدث في أي وقت من تاريخ الدولة الإسرائيلية القصير. ولكن يبدو الآن وكأن هناك محكمة تفتيش إسرائيلية تمارس نشاطها
[محكمة التفتيش هي محكمة كاثوليكية نشطت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بشكل خاص، ومهمتها اكتشاف الهرطقة ومعاقبة الهراطقة المخالفين للعقيدة الكاثوليكية، وقد ذاق المسلمون الويلات على يدها في بلاد الأندلس (إسبانيا) ـ المترجم].

LAU LIBRARY BEIRUT

خلال عطلة نهاية الأسبوع الطويلة في شهر أيار عام ١٩٩١، نشر نائب الوزير بورش وحدة جيدة من فرق التفتيش الدرزية وطلب منها التطواف في أنحاء الدولة لتخبره عن المصالح والأعمال التي تبقى مستمرة خلال العطلة الدينية. وكانت نقاط الهجوم الرئيسية منطقة المهرجان الإسرائيلي الممل، ومنشآت الكيبوتس الصناعية، وأماكن اللهو والترفيه. لقد شن بورش حربه الشاملة أيام السبت على منتهكي حرمة العطلة مستخدماً قواته البغيضة غير اليهودية، ولم ينتج عنها سوى توجيه تهم ضد أصحاب مصالح بريئين، تهم توجهها وزارة حكومة مستعدة لإنفاق مبالغ ضخمة من الأموال العامَّة من «أجل دفع تكاليف معاقبة المخطئين وإخضاعهم».

ونلمس تغيير المواقف على كافة الأصعدة، فالنصارى الذين عاشوا في إسرائيل طيلة عقود من الزمن يجدون فجأة صعوبة في تجديد تأشيرات جوازات سفرهم، ويشعرون أنهم مطرودون فعلياً من البلاد التي كرَّسوا حياتهم من أجلها.

ولكن اليهود هم الضحايا بشكل رئيسي، وفي إحدى الحالات التافهة، رفض طلب امرأة عمرها (٧٠) سنة للحصول على جواز سفر لأن صورتها الشخصية مغرية جنسياً، إذ كانت ترتدي فستاناً من دون كُمَّيْن يعتبره الأرثوذكس غير محتشم. واضطرت المرأة العجوز إلى تغيير ملابسها والتقاط صورة جديدة من أجل قبول منحها جواز سفر، وكل ذلك تفادياً لأن يرى أحد ضباط مطار ما في بلد أجنبي صورة العجوز فينشغل بها عن دراسة التوراة بصورة مركزة ويقل إخلاصه لله.

إن الفارق الرئيسي بين الفضائح الماضية والفضائح الحالية في السياسة الإسرائيلية هو أن انتهاكات حرية القانون في وقتنا هذا يرتكبها أشخاص يفترض أنهم متدينون وشرفاء من أمثال أرييه درعي زعيم حركة شاس ويائير ليفي، ولكنهم يتظاهرون بالتدين. كان أرييه درعي قبل ستة أعوام مجرد طالب في المدرسة الدينية، في حين كان يائير ليفي بائع أسماك. وأتاحت الأزمات السياسية للرجال المبتدئين فرصة دراسة النظام والإحاطة بنقاط ضعفه، فحرمت بذلك الجماهير التي لا حول لها ولا قوة من أموالها، ومن حق كسب لقمة العيش، ومن حق الحماية من إساءة استعمال القانون المدني، ومن أعمال اللادينيين.

لقد شُوِّه الاسم الناصع ليهود السفارديم جرَّاء التخريب والضرر الذي سببه حزب شاس، وتراجعت صورته إلى الوراء، وذهبت أدراج الرياح جهود سنين في بناء نظام اجتماعي يعتمد على المساواة، وفشلت هذه المساعي بسبب نشوء مفهوم جديد يقول بأن رجال السياسة من السفارديم هم لصوص. وحتى وإن أحصى حزب العمل أعماله السيئة السابقة، فإن الأحزاب الأرثوذكسية ستتبوأ مكان الصدارة فيما يتعلق بأخطاء سلوكية فادحة في فترتي الثمانينات والتسعينات. ومتى سينتهي ذلك؟ الله وحده يعلم.

LAU LIBRARY BEIRUT

الفصل السادس

معارضة خائنة إلى حد بعيد

لم يفز حزب العمل وحلفاؤه اليساريون بالانتخابات في أربع محاولات قاموا بها على مدى السنوات الخمس عشرة الماضية. ومنع ذلك من انتشار الفساد على نطاق واسع طالما أن حزب العمل كان خارج السلطة، ولكن لم يتحسن الوضع بتقلص الفساد عندما شارك حزب العمل في السلطة بإئتلافه مع تجمع الليكود. وسنسلط الضوء هنا على زعيمين من حزب العمل هما شمعون بيريز وإسحق رابين، وذلك بالرغم من وجود شخصيات أخرى في الحزب ثبتت عدم جدارتها عند استلامها مناصب في السلطة؛ إنهما السياسيان الوحيدان من حزب العمل اللّذان يساندان أي موقف دولي يساري في الكنيست، إنها نتيجة طبيعية لحزب زادت بسرعة أعداد مؤيديه من المهاجرين الجدد إلى إسرائيل، ونتيجة لابتعاده عن السلطة المطلقة لمدة تقارب عقدين من الزمن، ويمكن عقد تشبيه مناظر في السياسة الأمريكية، إذ يحتفظ الجمهوريون بمنصب الرئاسة ويشددون قبضتهم عليه بسبب الذكريات الأليمة لحرب فيتنام في عهد الرئيس جونسون ولقضية إيران في عهد الرئيس كارتر. أما الذكريات الأليمة بالنسبة للإسرائيليين فهي حرب أكتوبر (يوم الغفران) في عهد غولدا مئير وقضية معالوت في عهد إسحق رابين.

● رابين وعثراته وسقطاته:

إذا سألت أي إسرائيلي من كان أسوأ رئيس للوزراء في تاريخ إسرائيل فسيبرز على الفور اسم غولدا مئير وبسرعة لا يتوقعها الغرباء عن هذه الدولة. ولم تنجح أي سياسة من

سياستها على المدى الطويل، وإن نجح بعضها فهي قليلة جداً، وعلى سبيل المثال، كان توثيق العلاقات الإفريقية ـ الإسرائيلية أحد هواجس غولدا، فأنفقت مبالغ طائلة من خزينة الدولة على إرسال الخبراء في شتى المجالات إلى دول إفريقية كشكل من أشكال المساعدة الخارجية. وعندما نفذَّ العرب حظر تصدير النفط عامي ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤، تغلَّب الضغط العربي على إحسان وعطاء إسرائيل، وقطعت الدول الإفريقية علاقاتها مع إسرائيل واحدة تلو الأخرى.

وكان الأخطر من ذلك كله تعرُّض إسرائيل لاحتمال الفناء التام في الأيام الأولى لحرب أكتوبر بسبب تغطرس حكومة مئير وليس غبائها. ولم تقرأ وتحلل تقارير الاستخبارات بصورة صحيحة، ولم يكن الجيش مستعداً لاستيعاب هجومين على جبهتين شنهما السوريون والمصريون في السادس من تشرين الأول عام ١٩٧٣. واستطاعت سوريا عندها استعادة مرتفعات الجولان خلال (٤٨) ساعة، وكانت على وشك الاستيلاء على منطقة الجليل الشرقي. ولم تسلم نسبة كبيرة من الأراضي الإسرائيلية من الاحتلال السوري إلا بشجاعة بعض المقاتلين الإسرائيليين الذين كانوا يؤدون واجبهم العسكري آنذاك، وفشل خطوط الإمداد السورية في عملها.

وحقق المصريون أيضاً نتائج طيبة باستعادة قناة السويس والسيطرة خلال يومين على معظم المراكز الإسرائيلية التي كانت على مرأى من مياه السويس. وخسرت إسرائيل حياة (٣٥٠٠) مقاتل حتى استطاعت إصلاح خطأ الحكومة. ولو كانت الدولة مهيأة سابقاً لصد أي هجوم لتلقى العدو هزيمة منكرة خلال ساعات قليلة.

أدى غضب الجمهور العارم إلى فتح تحقيق مع الحكومة، فشكِّلت لجنة سُميت لجنة أغرانات لتقرر على من تقع مسؤولية كارثة الحرب. وبرِّئت ساحة الحكومة وخرجت نظيفة. أُعلن ذلك من دون أدنى خجل من استعمال الكذب والتمويه، ووجِّه الجزء الأكبر من اللوم إلى ديفيد اليعازر رئيس قوات جيش الدفاع الإسرائيلي آنذاك، واستقالت مئير من منصب رئاسة الوزراء تاركة وراءها إسحق رابين ليقود حزبها عام ١٩٧٤.

وأقل ما يقال عن رابين أن تاريخه السابق كجنرال عسكري كان مؤثراً وجيداً. وفي

استعراض منقَّح لتاريخ إسرائيل صدر مؤخراً عن الكاتب يري مليستاين، يصف يوري رابين كأحد أسوأ قادة حرب الاستقلال عام ١٩٤٨، فهو الذي خطَّط لمعارك فاشلة مثل معركتي اللد والرملة، وتسبب بمقتل عدد من الجنود أكثر مما سببه أي ضابط آخر عالي الرتبة.

كانت حادثة «ألتالينا» "Altalena" سيئة في العديد من جوانبها. لقد حاولت عصابة الإرغون بزعامة مناحيم بيغن إفراغ سفينة مليئة بالأسلحة خلال فترة قصيرة توقف فيها إطلاق النار أبان الحرب (والإرغون هي قوة مقاتلة سريَّة تُعتبر السلف المباشر لحزب الليكود). وأبدى رئيس الوزراء بن غوريون خوفه من أن يقع مخبأ السلاح الضخم ذلك في يد عصابة الإرغون مباشرة فتقوم بإزاحته عن السلطة بقوة السلاح، ولكن مخاوفه هدأت وخفَّت حدة شكوكه عندما سمح بتفريغ الشحنة في إحدى المستعمرات التابعة لحزب العمل. وأراد بن غوريون رغم ذلك تأكيد سلطته، فأمر الجيش بمهاجمة السفينة وطاقمها اليهودي، لكن موشي دايان رفض قتل إخوانه من اليهود بينما لم يظهر رابين المطيع أي تردد وأعطى أوامره بإطلاق النار، ونجم عن ذلك التصرف خسارة الأسلحة وبضع عشرات من الإسرائيليين الوطنيين.

كان رابين الشجاع نفسه قائد قوات جيش الدفاع الإسرائيلي في حرب الأيام الستة، وحدث أن أصيب عشية يوم المعركة بانهيار عصبي. وطبقاً لما ذكره عيزر وايزمان، فقد توجَّب إقناعه بعدم الاستسلام قبل إطلاق رصاصة واحدة. وأكد رابين في وقت لاحق إصابته بانهيار عصبي، لكنه عزا السبب إلى محاولة القضاء عليه باستخدام السم.

وعانت الدولة بشدة من العمليات الإرهابية خلال مدة عمله القصيرة كرئيس للوزراء. وقُتل خمسون شخصاً أغلبهم من طلاب المدارس الثانوية العليا جرَّاء هجمات على منطقتي معالوت وكريات شمونة في الجليل. ولئن تسبب رابين في نشوء أعداء ضده غير معروفين ضمن صفوف الجماهير بسبب عجز حكومته في الوقوف في وجه الإرهاب، فقد كان له بالمرصاد عدوَّان قويَّان داخل حكومته قررا رؤية نهايته وزواله. وأولهما هو شمعون بيريز (شمعون البسيط) الذي غضب بشدة لتجاهله ومنح منصب رئاسة الوزراء إلى رابين. وثانيهما هو الحزب الوطني الديني الذي طرد أعضاؤه من الحكومة بقرار من رابين في تصرف

LAU LIBRARY
BEIRUT

نادر إزاء اتهام من جانب اللادينيين، ذلك أنهم رفضوا دعم رابين في وقوفه وجهاً لوجه أمام فضيحة سياسية ليس لها معنى إلا في إسرائيل.

لقد خُطِّط لإقامة مراسيم استقبال الدفعة الأولى من طائرات (إف ١٥) الأمريكية القادمة إلى إسرائيل في يوم الجمعة الذي يصادف العاشر من كانون الأول عام ١٩٧٦، غير أن الطائرات وصلت بعد مضي (١٧) دقيقة على دخول يوم السبت، فردَّت الأحزاب الأرثوذكسية بإسقاط الحكومة. لم يكن هناك العديد من رجال الطيران الأرثوذكس العاملين في القواعد الجوية ذلك اليوم، وإن وُجد رجال فهم على الأغلب موالين بشدة لقواتهم الجوية بحيث يستحيل أن يخبروا الصحافة عما حدث. إذن من الذي فعل ذلك؟ شك البعض بحزب ديني، بينما اعتقد آخرون أن الشخص المسؤول هو شمعون بيريز.

وبافتراض براءة بيريز من تلك الحادثة، فلا يعفيه ذلك من مسؤوليته عن عقدين من السنين لم يتوقف خلالهما عن منافسة ومزاحمة رابين على السلطة ومن دون النظر في مدى خطورة أعماله على حزبه بالذات. ومن المؤكد أن كشف الصحافة لحادثة تالية كانت مفيدة لتعزيز آمال بيريز في الوصول إلى كرسي رئاسة الوزراء.

في غمرة الحملة الانتخابية عام ١٩٧٧، ركَّزت وسائل الإعلام على تقرير ذَكر أنه كان لرابين حساب مصرفي سرِّي في واشنطن وضعه باسم زوجته. وتم إظهار رابين كمجرم بسبب عدم السماح للإسرائيليين بوضع الأموال في مصارف أجنبية (هل ترى إمكانية لتطبيق قانون كهذا؟)، فاستقال من منصبه إزاء اتهامات بارتكابه أعمالاً مالية مصرفية غير قانونية. واستلمّ شمعون المحظوظ زعامة الحزب وقاد حزب العمل إلى خسارته الأولى والأبدية في انتخابات عامة.

ومن الناحية النظرية، يجب أن يكون ما حدث نهاية لرابين إذ كان سياسياً استقال لتجنب فضيحة جنائية. ولكن السياسيين الإسرائيليين لا يختفون من مسرح الأحداث حتى تخرف عقولهم وتموت، ومن الأمثلة على ذلك موشي دايان. كان دايان وزيراً للدفاع إبان حرب أكتوبر الفاجعة، وتسبب في حدوث (١٢) ألف إصابة إضافة إلى استياء أسرهم

وأصدقائهم البالغ وهو عدد يمثل نسبة لا بأس بها من عدد سكان إسرائيل، ورغم ذلك كله تم تعيين دايان وزيراً للخارجية عام ١٩٧٧ في مجلس وزراء مناحيم بيغن.

وجاء رابين بدوره ليذِّكر بضحايا الأحداث السابقة، وكانت إحدى أعماله بمثابة كارثة حقيقية للدولة. احتل رابين منصب وزير الدفاع لدورتين حكوميتين، الأولى عام ١٩٨٤ والثانية عام ١٩٨٨. والمشكلة التي يلاقيها رابين الآن هي مشكلة دائمة مستعصية تتمثل في خروج المواطنين العرب في قطاع غزة إلى الشوارع وممارسة أعمال العنف وفي إخضاع وسائل الإعلام والسيطرة عليها عند تناولها لمسألة الانتفاضة. كان من واجب رابين وضع حدٍ ونهاية سريعة للانتفاضة من خلال سياسة وزارة الدفاع، ولكن بدلاً من ذلك أصبح التمرد جرحاً مفتوحاً متقرِّحاً في هيكل الدولة السياسي، وشوّه اسم إسرائيل الجيد في أنحاء العالم.

كان أمام رابين خياران: إما التفاوض أو إخماد الانتفاضة بسرعة وقوة السلاح. ولم يكن وارداً الدخول في مفاوضات وفوهات البنادق موضوعة على الجباه، فتوقف الأمر على رابين ليسحق التمرد بعنف على الطريقة الشرق أوسطية.

إن الوقائع السابقة واضحة وماثلة في الأذهان، فبعد شهر من ثوران العرب في قطاع غزة في الجزء الواقع تحت السيطرة الإسرائيلية، قام الفلسطينيون في المنطقة المجاورة والخاضعة للسيطرة المصرية باتخاذ خطوات مماثلة، فرد الجيش المصري بإطلاق النار من دون رحمة ولا شفقة وقتل العديد منهم، وأنهى انتفاضتهم في عصر أحد الأيام. وقتلت قوات الجيش في الجزائر (٣٠٠) شخص في بضع ساعات بينما أطلقت القوات التونسية النار على (٣٦) من المشاغبين. ووقعت هاتان الحادثتان بعد اندلاع الانتفاضة. هذا هو أسلوب الحكم في دول الشرق الأوسط.

إن إسرائيل بصحافتها وإعلامها الحر لا تستطيع انتهاج أساليب كهذه واعتبارها ضرباً من ضروب السياسة، ولكنها لم ترغب في الماضي باستخدام قوة عمياء وحشية ما دامت الحاجة لا تستدعي ذلك. واتَّبع رابين نهجاً وسطاً، فأمر الجنود في البداية بمعاملة المثيرين

LAU LIBRARY BEIRUT

للقلاقل معاملة خشنة فيما عبَّر عنه بنفسه «كسر ذراعهم»، آملاً أن يشكل ذلك عامل ردع لهم.

وعندما فهم الجنود ما لمَّح إليه رابين كسياسة رسمية وتصرفوا بموجبها، وُجِّهت إليهم تهمة ارتكاب أعمال وحشية وحوكموا على أساسها، وعندما دافع القادة العسكريون عن جنودهم وبرَّروا استخدام العنف بالإشارة إلى بيان رابين حول «كسر الذراع»، تنصَّل رابين في ذلك، وأنكر أنه صرَّح به، ونجم عن تردده وعدم صلابة مواقفه جيش يخاف من استخدام القوة وإن واجه مواقف تستدعي استخدام القوة.

أما منح وسائل الإعلام في بادىء الأمر حرية التجول في الأراضي المحتلة، فقد شكَّل جانباً من جوانب الفشل، ولم يستطع الجيش مجاراة قوة وسائل الإعلام أبداً، إضافة إلى امتلاك المتمردين تقديراً غريزياً لأهمية استغلال وسائل الإعلام. لقد علا صراخ الطلاب الإيرانيين بشعارات مناهضة للولايات المتحدة عندما كانت آلات التصوير تتجه نحوهم فقط، وأدرك المنتفضون العرب أهمية الخبر الجيد وما ينجم عنه وكيفية الحصول عليه، فعمدوا إلى إثارة القوات الإسرائيلية واستفزازها لكي تلاحقهم حيث كان ذلك هو لعبة الأطفال، مع مراعاة توقيت اللعبة عند حضور فرق الأخبار المصورة. ولم يكن لدى رابين سياسة إعلامية لتوازن أثر تغطية الصحافة والإعلام لفعاليات الانتفاضة. وشاهد العالم بأجمعه أن إسرائيل مستأسدة على من هم أضعف منها، إذ ترد على الحجارة بإطلاق الرصاص.

لقد أدت أساليب رابين الضعيفة غير المؤثرة إلى مقتل (٨٠٠) عربي و(٣٥) يهودي حتى وقتنا هذا. وليست طريقة معالجته هي المثال الوحيد عن ضعف أدى إلى إراقة الدماء، إذ وقع حوالي (٢٤) من الجنود الإسرائيليين أسرى في يد الأعداء بعد الدخول كطرف في الحرب اللبنانية. واحتجز (١١) جندياً منهم في لبنان ثم أطلق سراحهم مقابل إطلاق سراح (٤,٥٠٠) عربي احتجزوا في السجون الإسرائيلية، ووافق رابين على صفقة المقايضة هذه. وكان من ضمن المستبدلين مجرمون عتاة، منهم قتلة الأطفال الستة! في مدينة الخليل والرجل الياباني الذي قتل (٢٤) مسافراً في مطار بن غوريون، ومعظمهم من

LAU LIBRARY
BEIRUT

راهبات بورتوريكو. واشتملت الصفقة أيضاً على حق رجوع حوالي (٦٠٠) إرهابي إلى بيوتهم في الأراضي المحتلة المتنازع عليها، وأعيد اعتقال (٩٠٪) من هؤلاء منذ ذلك الوقت، ويعتقد على نطاق واسع أن تجربة أولئك الإرهابيين الذين صقلتهم الحياة الخشنة قد جعلت الانتفاضة تمرّداً طويل الأمد(*).

وعلى الرغم من سجل الفشل الحافل هذا، ينظر إلى رابين الآن على أنه الرجل الوحيد الذي يستطيع إنقاذ حزب العمل من براثن شمعون بيريز الذي ساهم أكثر من أي شخص آخر في الهبوط بالحزب على المرتبة الثانية.

● شمعون البسيط:

منحت مجلة أمريكية تهتم ببناء الأجسام رئيس الوزراء الإسرائيلي شمعون بيريز درجة أفضل جسم لرجل دولة في العالم. وقدَّم دان توري ناشر المجلة واسمها "Muscle Training Illustrated" إلى بيريز تذكاراً مطلياً بالذهب. وقال دان: «ظهر من خلال جميع بحوثي أن بيريز هو صاحب الجسم الأجمل والأكثر تناسقاً من بين جميع رؤساء الدول».

يبلغ عمر بيريز (٦٢) عاماً، وهو يدخن كثيراً ويصنف هواياته الرئيسية على أنها القراءة ومشاهدة المسرحيات التلفزيونية العربية المسلسلة والتي تعالج المشكلات اليومية.

تلخِّص هذه الفقرة الصغيرة شخصية شمعون بيريز بشكل أفضل مما تلخصه العديد من تحليلات المثقفين التي غالباً ما تتجاوز هذه النقطة. ويتم تصوير بيريز باستمرار كرجل لا ينفك عن إبرام الصفقات، وأناني، ومغرور أو عديم الثقة والأهلية بشكل جلي واضح.

(*) برزت قضية أخرى مشابهة عام ١٩٩١، فقد أطلقت إسرائيل سراح (١٥٠) شيعياً لبنانياً من سجونها كجزء من صفقة محادثات السلام الإقليمية، ولم يطلق سراح أي رهينة إسرائيلية (أو على الأرجح أي جثة إسرائيلية) بالرغم من إطلاق سراح رهائن الدول الغربية. وزادت قوة حزب الله الشيعي الآن، فزادت على الفور هجماته القاتلة على الجنود الإسرائيليين.

ويرغب شمعون في أن يصبح مشهوراً، ومستعداً لعمل أي شيء في سبيل أن يغدو محبوباً، بيد أنه يظهر في النهاية واضح النفاق جلي الرياء. وعلى سبيل المثال، وضع بيريز على رأسه قلنسوة الصلاة أمام آلات التصوير قبيل انتخابات عام ١٩٨٨ وخرج من درس في علم التوراة وإلى جانبه حاخام من السفارديم رفيع المستوى. وبيريز لا يهتم بعلوم التوراة ولا بأسلوب السفارديم التعبدي، لقد حاول أن يكون أكثر وُداً وأكثر انفتاحاً على الأرثوذكس والسفارديم كليهما في إحدى جلسات العلاقات العامّة، ولكن حيلته تلك لم تنطلِ على أحد، ونال أكبر قسط من السخرية والهزء لم يسبق أن ناله من قبل.

لا نعني بالكلام السابق أن ما من شيءٍ لا يستحق السخرية، فقد كان عام ١٩٨٤ بمثابة نقطة جيدة للانطلاق. وزعمت إحدى نتائج الانتخابات أن حزب العمل لا يمكن أن يخسر جميع مراكز الاقتراع، فقد كان الليكود يعيش في فترة مزرية وصل فيها التضخم المالي إلى نسبة (٤٥٠٪) في إسرائيل، إضافة إلى توريط الأمة في مستنقع الحرب الدموية في لبنان. واستقال مناحيم بيغن المشهور فتوجب على شامير اللطيف أن يحل مكانه وينتعل حذاءه، ولم يكن من السهل على رجل يبلغ طوله خمسة أقدام وإنشين أن ينتعل حذاءً من مقاس يعادل مقاس ستة غلمان. وتروي حكاية عن طول شامير، إذ دخل أحد المطاعم وسأل رئيس الخدم فيما إذا كانوا يقدِّمون طبق الروبيان، فأجابه: «بالتأكيد، سنقدم الطعام لأي شخص كان».

كشفت صناديق الاقتراع أن إسحق نافون في حالة تزعمه حزب العمل لن يفوز بالانتخابات فقط لوحدها، بل يحتمل أن يكسب تأييد الأغلبية من الأعضاء البرلمانيين في سابقة لم تحدث من قبل في تاريخ إسرائيل. وسبق لبيغن أن عيَّن نافون كأول رئيس دولة من السفارديم، ونافون هذا رفيق حميم لبن غوريون ومن نفس بلده، وكان اختياراً بالغ الحكمة يصب في صالح بيغن. وأضحى نافون أشهر رئيس في تاريخ الدولة، وكانت إجادته نطق اللغة العربية بصورة جيدة عاملاً مهماً في قبول الشعب المصري اتفاقيات كامب ديفيد من دون ثورة علنية. وكانت زوجته عوفرا ملكة جمال سابقة وغير منسجمة مع غولدا مئير التي اتهمتها سراً بانتهاج سلوك غير محتشم، ولكونها سيدة إسرائيل الأولى، ظهرت بمظهر قدير ورائع، وأصيبت بسرطان الثدي ورفضت عملية استئصاله، وسألت

مراسلاً إخبارياً شديد الفضول: «كيف ترغب أن يزال بؤبؤ عينك؟».

وفي حين أخذت شعبية نافون بالازدياد، كان بيريز يتسبب في إحداث سلسلة من الانفجارات في أجهزة التلفزيون نتيجة إقدام المشاهدين في أنحاء الدولة على ركل وضرب أجهزة التلفاز بعد ظهور بيريز على الشاشة. وقلّ ظهوره العلني أمام الجماهير خلال حملة انتخابات عام ١٩٨١ وتقلّص بشكل كبير بسبب رميه بالبيض لحظة بروزه على المنصة. وكان ضاربو أجهزة التلفزيون ورماة البندورة من السفارديم في معظمهم. وهناك سبب ما يدور حول كراهية اليهودي من السفارديم لشمعون بيريز؛ إنه التسبب في خسارة الحزب مرتين في انتخابات جيدة الترتيب لأن حزب الليكود كان قد تملّك أصوات السفارديم. وتوصل حزب العمل إلى حلٍ في عام ١٩٨٤، اعتمد هذا الحل على منح نافون السفارديمي منصب رئيس الوزراء ثم ترقُّب يهود السفارديم الفخورين وهم يدلون بأصواتهم لصالح حزب العمل. وجرت عملية تمهيدية لصالح نافون أثارت الاهتياج في صفوف الحزب وفي الشوارع.

وأُجبر بيريز على الاعتراف بأن شخصاً أعظم شعبية قد برز على الساحة السياسية، ووافق على عقد لقاء مع نافون في البيت الرئاسي لإجراء مشاورات. وانتظرت البلاد كلها نتائج الاجتماع بفارغ الصبر وتساءلت الجماهير فيما إذا كان شمعون بيريز سيقدِّم مصلحة الحزب والدولة على مصلحته وطموحاته الشخصية، أو فيما كان شمعون هو شمعون بيريز نفسه لا غير، فيلقي بنافون جانباً ويتخلص منه. وبالطبع، بقي شمعون هو شمعون نفسه من دون أدنى تغيير، ووضع اسم نافون في المرتبة الثانية على قائمة حزب العمل، وهي حركة لا طائل من ورائها إذ عُين في آخر المطاف في منصب أقل مرتبة كوزير للتعليم، بينما استلم بيريز مرة أخرى كرسي رئاسة الوزراء. وأخذ الجميع يفكرون في كيفية انتصار بيريز على نافون، وكانت أكثر المواضيع مدعاة للتأمل ما زُعم عن وجود علاقة جنسية غير شرعية مع عوفرا زوجة نافون. وفي النهاية، قاد شمعون حزبه من نصر مؤكد إلى موقف مربك حصل فيه على أصوات متعادلة في الانتخابات، فتم تشكيل أول حكومة وحدة وطنية مع حزب الليكود، وكما تبين سابقاً، أصبح شمعون أولاً رئيساً للوزراء وشامير وزير خارجيته، ثم تبادل الإثنان منصبيهما بعد عامين إلى نهاية الدورة الحكومية.

LAU LIBRARY BEIRUT

إذن، وإضافة إلى واقعة نافون، كيف تسبب شمعون في عدم الفوز في الانتخابات؟ لقد تسبب ذلك بالإساءة إلى يهود السفارديم. لقد عُيِّن اليساري يوسي ساريد لإدارة حملة الانتخابات واستأجر فرقة كوميدية ثلثيها من الأشكناز لتسخر من الليكود وبيغن بتقليد اللهجة المغربية الثقيلة على اللسان. ولم يدرك ساريد الذي يعتبر من نخبة الرجال أنه قد يهين السفارديم بصورة حقيقية باللجوء إلى حركات تقليدية يقوم بها أشخاص سود الوجوه أثناء تقديم العرض المستز نج [وهو عرض تقدمه فرقة كوميدية مؤلفة عادة من رجال بيض يظهرون على خشبة المسرح بمظهر الزنوج ويقدِّمون للنظارة ضروباً من الأغاني والنكات.. الخ - المترجم] واستخدامه في الدعاية السياسية.

وحصلت حادثة مشابهة حددت مصير بيريز؛ ففي محاولة لتلميع صورته وتحسينها، استأجر فرقة تسلية ولهو أخرى مشهورة. وفي حشد كبير مؤيد لحزب العمل عشية يوم الانتخابات، قام النجم الكوميدي المفضل في إسرائيل (وهو الآن مُجرَّد مضيف لعروض اللهو والاستهزاء) وخاطب الجمهور المجتمع قائلاً: «لا يوجد معنا على الأقل أفراداً من شاخ شاخيم». وهذه الكلمة الطويلة والصعب لفظها هي مصطلح إسرائيلي يشير إلى السفارديم، وعلى شاكلة مصطلح (Nigger) الذي يشير إلى الزنوج في الولايات المتحدة. وأحب الجمهور الاستهزاء والسخرية العرقية فضحكوا. ولسوء الحظ، ضحك شمعون ضحكة نصف مكبوتة مشاركاً الجمهور بدلاً من أن يعلن رفضه لهذه الإهانة، فخسر علاوة على ذلك فرصة الفوز بالانتخابات.

أصر المدافعون عن بيريز على أن فترة توليه رئاسة الوزراء لمدة عامين كانت عظيمة النجاح، ونسبوا إليه أمر تخفيض التضخم المالي إلى نسبة (٢٠٪)، وتخليص إسرائيل من ورطتها في لبنان، ورفع معنويات الشعب بصورة عامَّة. وتم تجاهل ونسيان أنه كان مسؤولاً إلى درجة كبيرة عن أكبر فضيحتين في تاريخ إسرائيل. الأولى هي فضيحة إيران - كونترا حيث أرسل بيريز مستشاره الشخصي لشؤون الإرهاب أميرام نير إلى واشنطن حاملاً اقتراحاً بالإفراج عن الرهائن الأمريكيين في طهران مقابل شحنات أسلحة مرسلة إليها من إسرائيل. أما الفضيحة الثانية فكانت مسألة الجاسوس بولارد والتي ألحقت ضرراً بالغاً بإسرائيل.

وبولارد هذا يهودي أمريكي يعمل لحساب الاستخبارات البحرية الأمريكية، وقام ببيع معلومات حساسة إلى إسرائيل. وأكد بيريز للسلطات الأمريكية إبان تفاعل القضيتين أن إسرائيل ستبحث في مدى مسؤوليتها وعلاقتها بهما ثم تبعث بالنتيجة بكل صدق وأمانة. ولم يتحقق شيئاً من الوعود تلك مما سَرَّع في حدوث عدم ثقة بين الحكومتين وبصورة عميقة(*).

طالب الشعب الإسرائيلي بالكشف عن حقيقة بولارد، ولانت الحكومة بعض الشيء فعينت لجنة حيادية في الظاهر للتحقيق في القضية. ووافق رئيس اللجنة أبا إيبان على تحميل بيريز القسط الأعظم من المسؤولية. وظل بيريز طوال أسبوع كامل يَصِمُ تقرير اللجنة بالكذب والافتراء وينكر كليَّةً تورطه فيها، وأزيل اسم أبا إيبان من قائمة حزبه الإنتخابية في آخر المطاف، وهي مكافأة نموذجية وتقليدية على الاستقامة والنزاهة.

وبذل بيريز كل ما يستطيعه في نهاية فترة توليه رئاسة الوزراء من أجل منع شامير من استلام منصبه ذاك، ولم تنجح جميع أساليبه، ولكن كان لديه متّسع من الوقت ليترك إحدى بصماته الأبدية في ذلك الميدان. لقد بقيت قضية سيناء القضية الوحيدة التي لم تحل بَعْدُ من اتفاقيات كامب ديفيد، إذ أعطت إسرائيل دولة مصر (٣٦) ألف ميل مربع من الأرض، وهو ما يعادل ثلاثة أضعاف الأرض المتنازع عليها، وحوالي نصف دستة من القرى والبلدان المتبقية، إضافة إلى مواقع قواعد عسكرية وحقول نفط. ولم تكتف حكومة مصر بكل

(*) حصلت حادثة ثالثةٌ كان لها نفس النتائج. في حلول عام ١٩٨٥، أغلقت سوريا خط ضخ النفط العراقي الذي يصل إلى البحر المتوسط، وفرضت إيران حصاراً على الخليج الفارسي (كذا!). وأراد العراق بناء خط أنابيب آخر بديل يصل إلى العقبة، وهي ميناء أردني يطل على البحر الأحمر، فوافقت شركة بِكْتِل الأمريكية على تنفيذ ذلك المشروع الذي يكلف عدة مليارات من الدولارات بشرط حصولها على ضمانات بأن إسرائيل لن تقوم أبداً بتفجيره. وفاتح المدعي العام الأمريكي إدوين ميس بيريز بالموضوع، فوافق الأخير على ذلك مقابل (٧٠) مليون دولار تدفع له سنوياً طيلة عشرة أعوام، وتُحوَّل إلى حزب العمل الإسرائيلي. وعندما تسربت أنباء تلك الرشوة، طرد ميس من مكتبه بينما نجا بيريز كالمعتاد من الفضيحة.

LAU LIBRARY BEIRUT

ذلك، فطالبت بإعطائها قسماً من الشريط الساحلي بمقدار مائة ياردة إلى الجنوب من مرفأ إيلات ويدعى هذا الجزء (طابا).

لم تكن إسرائيل في عجلة من أمرها لتسلم الشريط الساحلي المذكور لأنها اعتقدت من الجانب الأول أن لديها حقاً قوياً بالمطالبة بهذه الأرض، ومن الجانب الثاني كان هناك فندق مبني عند الشاطىء تبلغ كلفته (٣٢) مليون دولار. وأجادت مصر لعب دور المقامر فسمحت لإسرائيل بالاحتفاظ بالفندق، ولكنها طالبت باسترجاع كل ذرة تراب من الأرض المصرية المقدسة.

وسافر بيريز جواً إلى القاهرة ووعد الرئيس المصري حسني مبارك بأن مصير طابا سيتحدد عن طريق التحكيم الدولي. وغضب الإسرائيليون بشدة لتصرف بيريز، إذ لم يكن حظها جيداً ولم تكسب شيئاً أبداً في كل مرة لجأت فيه حكومتهم إلى تحكيم دولي (والشاهد على ذلك سلسلة نجاحاتها في الأمم المتحدة). ولم يكن أمامها أيضاً إلا الخسارة بينما كان أمام مصر فندق لتفوز به. ووُجد حل للقضية عام ١٩٨٩ عن طريق التحكيم الدولي، وأجبرت إسرائيل على التخلي عن طابا والفندق وكل شيء.

لاحت فرصة أخرى أمام بيريز للاصطياد في الماء العكر وذلك بوصفه وزيراً للخارجية حالياً، وقرر أن القضية العربية ـ الإسرائيلية برمتها قابلة للحل عن طريق مؤتمر دولي للسلام. وقد برزت هذه الفكرة منذ السبعينات عندما كان بيريز آنذاك وزيراً للدفاع ومن الجناح اليميني، فوصف هو نفسه الفكرة تلك بأنها تشكل خطراً على الدولة.

وتعتمد الفكرة على الآتي: يقوم كل من الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن وجميع الدول المجاورة لإسرائيل إضافة إلى شخصيات فلسطينية مختارة بعناية، بحضور اجتماع يوفر مظلة للقاءات سرية ومباشرة بين الدول العربية وإسرائيل.

وبرزت الاعتراضات بوضوح منذ البداية، إذ لم تكن هناك علاقات بين إسرائيل وعضوين في مجلس الأمن هما الصين والاتحاد السوفييتي، فرد بيريز حول هذه المسألة بأن إيجاد علاقة معهما سيكون شرطاً مسبقا لعقد المؤتمر. وكان عضوان آخران هما بريطانيا

وفرنسا يفرضان حظراً على توريد السلاح إلى إسرائيل ويزودان في الوقت نفسه أعداء إسرائيل بالأسلحة، ولم تشكل هذه الحقيقة عائقاً أمام بيريز الذي رد بأن جميع أعضاء مجلس الأمن سيحضرون الاجتماع لمجرد الظهور فقط، وسيمنحون شرعية لمباحثات الدول العربية مع إسرائيل.

وأصدرت إسرائيل ردة فعل سلبية حادة على هذه الخطة المعقدة غير العملية، ولكن بيريز طاف أنحاء العالم لتعزيز ومساندة خطته، وعقد لقاءات سرية مع شخصيات عربية! في لندن وحصل على تأييدها، ثم اجتمع في وقت لاحق مع ممثل الاتحاد السوفييتي في اجتماع اشتراكي دولي عقد في روما، وهدف من وراء اجتماعه به الحصول على موافقة دولته على عقد المؤتمر الدولي للسلام.

وبدت جميع هذه الخطوات الأولى التمهيدية خطوات عظيمة، ولكن بيريز كان يناطح حكومة بلاده ويعمل ضدها. إن الاجتماع على مستوى عالٍ مع مسؤول سوفييتي حكومي يحتاج إلى دعم من مجلس الوزراء الإسرائيلي، وهو ما لم يحصل عليه بيريز.. بل إن الحقيقة هي تصويت مجلس الوزراء في جلسة خاصة على عدم الخوض مجدداً في موضوع المؤتمر الدولي للسلام، ولكن اتفاق الحكومة على رفض المؤتمر لم يعن شيئاً بالنسبة لوزير الخارجية الذي عقد العزم على المضي وحيداً في طريقه الذي رسمه لنفسه، فسافر إلى واشنطن للحصول على موافقة وزير الخارجية الأمريكية شولتز وعلى وعد أمريكي بالمشاركة في مؤتمر للسلام، ونجح في الحصول على بغيته، مما زاد من غم وكدر شامير الذي أرسل موشي أرينز في الأسبوع التالي ليوضح القضية ويبطل ألاعيب بيريز وأساليبه الملتوية لتحقيق أغراضه، وأطلعهم أرينز على أن بيريز يمثل نفسه فقط وليس حكومته، فتساءل شولتز الذي وجدت مبررات لارتباكه كيف لا يمكن لوزير خارجية أن يمثل دولته. وكان سؤالاً جيداً لا يعرف جوابه أحد إلا بيريز.

عاد بيريز إلى وطنه ليضع يده على أساليب جديدة ليتنازل عن الأرض اليهودية. كان الدروز، وهم طائفة سرية، قد أقاموا معسكراً يتألف من عدد من الخيم في محمية طبيعية يعشقها الإسرائيليون لكثافة نباتاتها وأشجارها وحيواناتها النادرة. وادعى الدروز أن المحمية

LAU LIBRARY BEIRUT

تقع فعلياً ضمن ممتلكات وأراضي قرية بيت جن، وعندما حضر حراس المحمية ورجال الشرطة لانتزاع الأرض من بين أيدي المحتجين، تمرد الدروز وقلبوا سيارات الجيب ثم أضرموا فيها النار، وضربوا (٢٣) فرداً من حراس المتنزه ورجال الشرطة، ووصفت وسائل الإعلام ذلك بمذبحة منظمة ضد الآمنين.

وقرر بيريز التدخل شخصياً لفض النزاع، فعقد صلحاً وأبرم اتفاقاً مع كبار السن في القرية، وما إن أنهى مفاوضاته معهم حتى أفرج عن مثيري الشغب الدروز من دون تقديمهم للمحاكمة، واحتفظ الدروز بالقسم الأكبر من أراضي المحمية الطبيعية التي اشتهوا أن يمتلكوها وهي ليست لهم. وبدا لكل مراقب يهودي أن بيريز سيتخلى عن الأرض لأي إنسان فقط من أجل أن يحبه ذلك الإنسان. وكلَّفته وجهة نظره هذه خسارة انتخابات عام ١٩٨٨.

• السقوط للمرة الرابعة:

قبل بيريز نصيحة خبرائه الأمريكيين غير الواقعيين، فأدار حملته الانتخابية عام ١٩٨٨ معتمداً على قضية السلام وفكرته في عقد مؤتمر دولي للسلام. وتضمنت إعلاناته التلفزيونية لقاءات مع جنرالات أعطوا تصوراتهم المستقبلية عما سيحدث عندما تعاد الأراضي المحتلة إلى أصحابها. واشتملت أتفه خطة مستقبلية على بناء سياج كهربائي حول وادي الأردن.

إن قضية المستوطنات قضية زائفة لا تعدو كونها نفاقاً يمارسه حزب العمل لأنه هو نفسه الذي بدأ عام ١٩٦٧ بزرع الأراضي المحتلة بسلسلة من المزارع الجماعية اليهودية مع قاطنيها في وادي الأردن. وإذا وضعنا التفاهة والبلاهة جانباً، فإننا نجد أن بيريز قاد حزبه نحو الكارثة وللمرة الرابعة لأنه كان بعيداً عن التيار والشعور السائد في وطنه. وسبق أن أجرى مركز جافي للدراسات الإستراتيجية استطلاعاً للرأي حول التغييرات التي طرأت على مواقف الشعب إزاء الناحية الأمنية من عام ١٩٨٧ إلى عام ١٩٨٩، وأظهرت النتائج أن ناخبي حزب العمل في انتخابات عام ١٩٨٨ كانوا المجموعة الوحيدة التي أبدت آراء

معتدلة فيما يتعلق بالصراع العربي - الإسرائيلي. وأجرى نفس المركز استفتاء للرأي عام ١٩٨٨، فأظهرت النتائج أن (٥١٪) من الإسرائيليين يقبلون طرد العرب من أراضيهم كحل قانوني لإنهاء النزاع معهم.

في شهر أيار عام ١٩٨٩، عرض معهد غتمان للبحوث الاجتماعية التطبيقية على الإسرائيليين تسعة خيارات مقترحة لحل النزاع الإسرائيلي الفلسطيني.

وظهر للمرة الأخرى أن (٥١٪) من الإسرائيليين فضَّلوا الخيار القائل بأن «على إسرائيل إجبار العرب على الرحيل مع دفع تعويضات لهم». واختار (٥٩٪) منهم في استفتاء للرأي جرى في نيسان عام ١٩٩٠ ذلك الخيار لا غيره. وبين التقرير إمكانية فوز حزب العمل بالانتخابات «إذا ما أعاد حزب العمل ترتيب جدول برامجه الوطنية بالتركيز على المسائل الاقتصادية الاجتماعية أكثر من التركيز على المسألة الفلسطينية».

تمخضت حملة حزب العمل الانتخابية عن خسارة أخرى، وحصل الليكود على نسبة أصوات متعادلة ليصبح شريكاً له في الإئتلاف في ظل حكومة وحدة وطنية أخرى، وقبل بيريز بذلك شرط منحه منصب وزير المالية، وقد عرف كل مواطن في إسرائيل سبب وضعه هذا الشرط؛ ذلك أن المزارع الجماعية التابعة لحزبه (الكيبوتسات) والعيادات الطبية والصناعات كانت جميعها مثقلة بالديون وعلى حافة الانهيار التام الشامل. وكان متوقعاً بوصفه وزيراً للمالية أن يستخدم سلطته لمساعدتها على الخروج من مأزقها بتوفير دعم مالي لها. وحقق بيريز هذه التوقعات وزيادة، كان الدين المتراكم على المزارع الجماعية يبلغ أربعة مليارات دولار بسبب سوء الإدارة والتوسع الفاشل. وبلغ الوضع من السوء أن نصف العمال الشبان المرتبطين بها كانوا ينتقلون إلى المدن الأخرى أو يسافرون خارج إسرائيل، وكانت الأرض تباع حتى للعرب من أجل البقاء على رمق الحياة. وبعد أن هدد بيريز البنوك في جلسة استغرقت ليلة بتمامها وكمالها تم التوصل إلى اتفاق تم بموجبه شطب ثلث مجموع كامل الديون على أن يدفع الباقي بنسبة فائدة مخفضة على مدى (٢٥) عاماً. وتوصل إلى اتفاق مشابه مع البنوك لإعادة جدولة ديون مؤسسة صناعات كور الضخمة الحجم والتي تعتبر عصب التصنيع لحزب العمل.

LAU LIBRARY BEIRUT

وبـالـطبع، لم يتلق الشعب الإسرائيلي معاملة بنكية مماثلة مع أنه غارق في ديون شخصية تصل إلى ما يزيد على (١٥) ألف دولار لكل مواطن، وهو أعلى بكثير من أي معدل دين فردي في العالم. وعوضت البنوك خسائرها المتعلقة بقضية الكيبوتسات وقضية كور عن.طريق رفع معدلات الفائدة على المبالغ المسحوبة والقروض، مما أدى إلى خفض قيمـة الشيكـل. وقد سُئل بيريز في أحد الأيام فيما إذا كان خفض قيمة الشيكل وشيك الحدوث، فأجاب بالنفي (وهذه الممارسات كما هو معلوم لا تقتصر فقط على وزراء المالية الإسرائيليين، وإنما تحدث في جميع دول العالم)، ثم حصل في اليوم الثاني أن انخفضت قيمة الشيكل، وخسر كل إنسان صدّق ووثق بكلام بيريز أمواله وذهبت مدخراته. ولا حاجة بنا إلى القول بأن البنوك التي أنقذت أصدقاء بيريز من مآزقهم المالية قد كسبت مرابحها على حساب الجماهير.

شرع بيريز بعد ذلك في العمل على إسقاط الحكومة بما يتعارض مع الإتفاق الذي تم وشكلت على أساسه الحكومة الإئتلافية حيث يحرم ضمنيا القيام بأي محاولة لتشكيل إئتلاف جديد. وكما صرّح عضو الكنيست أُريل لين معلقاً: «لم يسبق أبداً للدولة أن شهدت مثل هذا العرض المخزي الفظيع للخيانة والغدر والمغامرة لتحقيق مآرب شخصية تدل على الأنانية، وذلك العرض هو الذي أبداه ممثلو الشعب المنتخبون».

وبرهن بيريز في محاولته تشكيل إئتلاف يضم حزب العمل والأحزاب الدينية أنه مستعد لخيانة وطنه وحزبه بدرجة تفوق ما فعله شامير في نهاية الأمر. واشتمل الاتفاق الذي طرحه حزب أغـودات إسرائيل قطع عهد على نفسه بمنع التصديق على ميثاق الحقوق الوطنية الـذي يحوي خلاصة حقوق الشعب الأساسية، وبتطبيق مرسوم حظر بيع لحم الخنزير خلال ستة أشهر. وذهب بيريز إلى حد أبعد مما ذهب إليه حزب الليكود الذي وعد بحظر الإعلانات الخلاعية الموضوعة على لوحات الإعلانات التجارية، إذ كان بيريز يرغب في حظر المواد الداعرة الخلاعية التي تنشر في الصحافة والكتب ووسائل الإعلام الأخرى.

ويضيف أريل لين: «بيريز مذنب باللجوء إلى الكذب الصراح وذلك عندما يؤكد علناً أن حزبه قد وعد حزب «أغودات» بأشياء أقل مما وعده بها حزب الليكود. ربما لا يتعمد

LAU LIBRARY BEIRUT

بيريز الكذب، إذ من المحتمل أنه لا يقرأ الوثائق التي يوقعها!!».

وكما سرد سابقاً بالتفصيل، لم ينجح بيريز في تشكيل إئتلاف حكومي. وجاء رد فعل حزب العمل ضده سريعاً بسبب فشله ذاك، فطلب أغلب أعضاء اللجنة المركزية إقالة بيريز من منصبه كزعيم للحزب وإحلال رابين مكانه. وعقدت انتخابات داخلية، لكن بيريز فاز بهـا مجـدداً وانتخب زعيماً للعمل. ويعود السبب الأكبر في فوزه إلى تعيينه العديد من الأعضاء المصوتين في اللجنة المركزية للحزب.

وطبقـاً لمـا أوردته صحيفة هآريتز في تقرير لها، هناك سبب آخر لنجاح بيريز في التصويت الداخلي:

«يعتبر حصول مواجهة في اللجنة المركزية لحزب العمل وتبادل التهم حالة وثيقة الصلة بهذا الموضوع. وتبين عند فرز الأصوات أن ثلثي ناخبي حزب العمل قد أيدوا رابين، ولكن جهـاز الحـزب في اللجنـة المـركـزية رجّح كفة الميزان لصالح بيريز وسانده. ورافقت انتخابـات الحـزب كالمعتـاد ادعـاءات بتزوير النتائج، وبحرمان أعضاء من حقهم في التصويت أو حرمانهم من بطاقات العضوية، وبالقيام بمحاولات لوضع أسماء أعضاء جدد في صنـاديق الاقتـراع عن طريق السماح لهم بالاشتراك في الانتخابات، وغير ذلك من الادعاءات». وبتعبير آخر، كان الأمر كله لعبة مدبرة ومرتبة بشكل جيد.

قاد بيريز حزبه إلى أوضاع رديئة ومراتب هزيلة. وقد أجرت الصحيفة اليومية اليسارية دافار استطلاعاً للرأي في ربيع عام ١٩٩١، فأظهر أن نسبة لا تزيد عن (٢١٪) من جمهور النـاخبين ستصوِّت لصـالـح حزب العمل، ولم تحز كتلة حزب العمل اليسارية بقضها وقضيضها مع حلفائها إلا على نسبة (٣٣٪) من الدعم الشعبي. وأكثر ما تخوَّف منه حزب العمل أن الناخبين في عام ١٩٩٢ (من الطلاب والمهاجرين) سيصوِّت منهم ولأول مرة (٩٪) لصالح العمل بينما سيدعم (٦٩٪) منهم حزب الليكود وحلفائه اليمينيين. وحتى أن مؤيدي حزب العمل التقليديين، وهم الجيل الثالث من الأشكناز الإسرائيليين، سيصوِّت (٥٢٪) منهم لصالح الليكود مقابل (٢٩٪) فقط لصالح العمل.

لقد أصاب الضعف جميع مراكز القوى الرئيسية المرتبطة بحزب العمل نتيجة لسيطرة وإدارة بيريز السيئة، ومع ذلك بقيت قبضته شديدة على الحزب إلى درجة أن مسؤولي الحزب الآخرين لم يستطيعوا إزاحته عن منصبه إلا بعد تسببه بخسارة أربع حملات انتخابية، وفقط بوجود ظروف شاذة آنذاك. ففي شهر شباط عام ١٩٩٢، تحدى رابين منافسه بيريز مرة أخرى في الوصول إلى زعامة الحزب. وصوَّر رابين كما جرت عليه العادة كأحد الصقور بينما صوَّر بيريز كأحد الحمائم. ولسوء حظ شمعون، أدلى رئيس الهستدروت إسرائيل كيسار بدلوه في الانتخابات وهو من الحمائم. وكان كيسار خلال رئاسته للهستدروت طيلة فترتين رئاسيتين قد قدَّم الكثير من الخدمات، فحصل لهذا السبب على (١٩٪) من أصوات اللجنة المركزية، وكان ذلك سبباً مباشراً للتأثير على مركز بيريز بصورة سلبية، فاستطاع رابين انتزاع النصر منه.

ما الذي يجب أن يفعله حزب العمل إذن ليستعيد مركز الصدارة؟ يمكن للعمل أن يستعيض عن التعيين المباشر في اللجنة المركزية بالاستفادة من أعضاء الحزب الذين يفضِّلون الرجوع إلى الأمور الأساسية. وقد يبدو ذلك جيداً، فها هما عضوا الكنيست الشابان يوسي بيلن وحاييم رامون قد اقترحا تغيير اسم الحزب إلى الحزب الديمقراطي، والتخلص من الراية الحمراء، وإلغاء المنظمة الاشتراكية الدولية واستعراضات عيد العمال التي تبعد وتُنفِّر المهاجرين السوفييت الجدد مباشرة، ولكن بيريز أصر على إبقاء تلك الأمور الرمزية وقرر أنه يحبها. واقترح هذان العضوان أيضاً فصل حزب العمل عن اتحاد العمال الوطني الآيل للسقوط وعن الهستدروت ونظام عياداته الطبية البالي، ولكن المحافظين المتمسكين بالطرائق والأفكار القديمة رفضوا هذه الطروحات.

وفي تلك الأثناء، قام بيلين التقدمي، أو كما يدعوه رابين «كلب بيريز» بإثبات أن جيل أعضاء حزب العمال الجديد هو مجرد حزب بعيد عن روح العصر مثل سلفه القديم. وسئل بوصفه نائب وزير المالية عن رأيه بالإحصائيات التي أجريت مؤخراً وأظهرت أن (٤٠٪) من الإسرائيليين هم تحت خط الفقر، فأجاب بأسلوب الملكة ماري أنطوانيت: «ولكن على الأقل ليس هناك من يموت جوعاً». وقد يكون هذا صحيحاً، إلا أن العديد من الإسرائيليين لا يحصلون على التغذية المطلوبة والمأوى المناسب.

أما بيلن الذي قيل أنه سمح لدرعي بسرقة أموال الخزينة العامَّة بمعرفته التامَّة وتحت سمعه وبصره، فقد بدأ مؤخراً جولة حول العالم كما فعل بيريز لتشويه سمعة حكومته والافتراء عليها. وطار في عام ١٩٩١ إلى القاهرة ليقدِّم إلى الرئيس مبارك خطته لإرجاع قطاع غزة إلى سيادة دولة فلسطينية، وقد حذَّره السكرتير العام لحزب العمل بألا يقوم بذلك النشاط، موضحاً الأسباب في رسالة من خمس صفحات بيَّن فيها أن المسألة ستتطلب منه الانشغال المفرط بالقضية الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية، حيث أدى ذلك إلى التخريب والإساءة إلى موقف حزب العمل في أوساط الرأي العام، وإضافة إلى ما سبق، هناك خيانة الأحزاب الدينية، وهي إشارة محتملة إلى دوره في قضية أرييه درعي.

لقد عانى حزب العمل من كارثة محققة خلال خمسة عشر عاماً من تسلط بيريز عليه، وهذه الفترة الزمنية كافية بحد ذاتها للتأكيد على أن الجيل القادم من أعضاء حزب العمال ليسو أفضل كثيراً من الجيل الحالي.

وكما يكتب غوئيل باينرمان في مقاله: «انتهت أيام حزب العمل وذهب مجده»:

«إن الوجوه التعبة لقيادة حزب العمل تذكِّر الإسرائيليين بكل شيء خاطىء في إسرائيل: بالبيروقراطية، والهستدروت، والمحسوبية السياسية، وشركة كور، والنظام الاشتراكي، والكيبوتسات، ونظام الرعاية الصحية المتداعي والمرتبط بها».

LAU LIBRARY BEIRUT

الفصل السابع

هل أنت آمنة يا إسرائيل؟!

بقي إسحق رابين وزيراً للدفاع من عام ١٩٨٤ وحتى سقوط الحكومة عام ١٩٩٠، وكان مقبولاً من قبل العمل والليكود. ولا نكاد نجد تفسيراً لتقبله من قبل الليكود، برغم دوره في إغراق السفينة ألتالينا "Altalena". وكما ذكرنا في الفصل السادس فإن هذه السفينة كانت محمَّلة بشحنة أسلحة اشترتها الإرغون ـ القوة العسكرية الأساسية لدعم الليكود. وكان بن غوريون هو الذي أمر بإغراق السفينة بدعوى القضاء على محاولة انقلابية وقد قُتل جميع طاقمها. إن ذلك الادعاء وكما أثبتت الشواهد التاريخية كان عارياً عن الصحة تماماً، وإن إزهاق أرواح البحارة اليهود من طاقم السفينة لم يكن إلا استعراضاً للقوة من قبل بن غوريون. وبرغم دور رابين في تلك المذبحة التي لم يكن لها داع، وافق الليكود على تعيين رابين كوزير للدفاع عام ١٩٨٤ م.

ولم يكن إغراق التالينا عملاً لا إنسانياً فحسب، بل كان ضاراً من الناحية العسكرية أيضاً. فلو سُمح لتلك الشحنة من الأسلحة أن تصل بسلام لتضاعفت القوة التسليحية الإسرائيلية مما كان سيؤدي إلى تقصير أمد حرب ١٩٤٨ وربما أدى أيضاً إلى انتصار في معركة القدس الشرقية وفي الضفة الغربية مما كان سيمنع بعد أربعين عاماً من ظهور الانتفاضة ـ النقطة السوداء في سجل رابين.

في عام ١٩٦٤ تم تعيين رابين كرئيس لأركان الجيش وإليه يعود الفضل في بناء القوة العسكرية التي حققت انتصارات رائعة في حرب الأيام الستة. كان رابين قبل الحرب بقليل

يعاني من انهيار وكان على وشك أن يتخلى عن منصبه مما كان سيترك فراغاً يكون السبب في إلغاء الحرب. وحسب رواية عيزر وايزمان فإن رابين أقنع بأنه جرّ البلد إلى حرب فاشلة وأنه لا بد من أن يتخلى عن منصبه. أما الرواية الرسمية لما حدث فتقول إن رابين، والذي كان يدخن أكثر من ثلاث علب من السجائر ولا يزال، وقع فريسةً للتسمم النيكوتيني. أما رابين ـ فقد ادعى بأنه مصاب بإرهاق كبير.

ومن المعالم البارزة لطبيعة عهد رابين كرئيس للوزراء بعد استقالة غولدا مئير عام ١٩٧٤، فشله بداية في القضاء على الإرهاب، وتالياً ظهور عدد من الفضائح. هذه الفضائح بدأت عام ١٩٧٦ عندما اتهم محافظ بنك إسرائيل آشر يادلين ـ وذلك بعد أسبوعين من تعيين رابين له ـ بالرشوة والاحتيال. كان المفترض برابين على الأقل أن يطلب تقريراً أمنياً روتينياً حول يادلين قبل أن ينصبه على رأس تلك المؤسسة المالية الوطنية. لقد أضر ذلك التعيين وبشكل شديد بثقة الشعب في حزب العمل ولكن ذلك بحد ذاته لم يهدم أركان الحكومة.

وبعد حادثة هبوط طائرات إف ـ ١٦ يوم سبت، واقتراح حجب الثقة عن الحكومة من قبل الحزب الوطني الديني "NRP"، قام رابين بطرد الحزب المكون من عشرة نواب من التحالف مع حكومته مما جعله يخسر الأغلبية. وفي عام ١٩٧٧ دُعي إلى انتخابات عامَّة كان على وشك الانتصار فيها لولا أن أحد الصحفيين الإسرائيليين توصل إلى معلومات سريَّة في نيويورك مفادها أن رابين يضع أموالاً في حساب غير قانوني في تلك المدينة وذلك عندما يكون في زيارة لها. لقد شاهد ذلك المخبر زوجة رابين تضع بشكل أخرق بضع مئات من الدولارات في ذلك الحساب. إن العقوبة القانونية لمثل هذا العمل هو السجن ثلاث سنوات وغرامة تبلغ ثلاثة أضعاف قيمة المبلغ المودع خارج البلد، كان ذلك يعني أن رابين سيواجه محاكمةً أثناء حملته الانتخابية ولكن قدمه لم تطأ مخفر الشرطة أو قاعة المحكمة بل استقال من منصبه كزعيم لحزب العمل ليتولاه شمعون بيريز ولذا بدلاً أن يعاقب شخصياً على فعلته ترك الأمة جميعها تحمل وزره.

إن الجنرالات الإسرائيليين القدماء إذا ما وقعوا في فضيحة لا ينتهون، بل إنهم يُعطون

LAU LIBRARY BEIRUT

فرصاً أخرى ليقعوا في فضائح أكثر إثارة، ففي عام ١٩٨٤ أصبح رابين وزيراً للدفاع في الحكومة الإئتلافية التي كان شمعون بيريز رئيساً لها في أول سنتين. كان شمعون بيريز يكره رابين كرهاً عميقاً ولكن هذا الثنائي الديناميكي تآمر لإيقاع إسرائيل في كوارث أمنية الواحدة تلو الأخرى.

• إطلاق سراح القتلة!

من ركائز السياسة الإسرائيلية عدم التفاوض مع الإرهابيين في مسألة الرهائن، لكن تحرير الجنود الذين كانوا يقعون في أيدي الأعداء أثناء حرب لبنان كان ينظر له على أساس أنه شيء مختلف تماماً. إن اتخاذ جميع الخطوات الممكنة لتحرير أسرى الحرب هو من أساسيات الأخلاقيات العسكرية. وكان تسعة جنود إسرائيليين قد وقعوا في يد منظمة أحمد جبريل التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية، وأحمد جبريل هو عدو لدود لإسرائيل متعطش للدماء. ولضمان تحرير الأسرى وافقت حكومة شامير عام ١٩٨٤ على التفاوض وغامرت باختطاف ابن أخ أحمد جبريل. وكانت هذه استراتيجية فعالة أثبتت فعاليتها بعد خمس سنوات، وكذلك عندما خطفت إسرائيل زعيم الشيعة الشيخ عبيد من منزله ليساوموا به في عملية تبادل أسرى مقترحة بين إسرائيل وحزب الله ـ المليشيات الشيعية الراديكالية. وفي ربيع ١٩٩١ أعلن حزب الله بأنه سيبدأ في إجراءات التبادل.

كان تبادل الأسرى بين شامير وجبريل، وبشكل سخيف، من طرف واحد: ستة جنود إسرائيليين، خمسة منهم من لواء ناحال مقابل (٤٨٨٠) سجيناً فلسطينياً بالإضافة إلى سجلات منظمة التحرير التي وقعت في يد إسرائيل أثناء الحرب اللبنانية. وعلى جميع الأحوال، فإن (٤٧٠٠) من هؤلاء الأسرى كانوا محتجزين في معسكرات الاعتقال اللبنانية والبقية إرهابيين أسروا قبل تلك الحرب الشرسة في لبنان، كان الثمن الذي دفعه الإسرائيليون غالياً ولكن التقديرات قالت إن أمن إسرائيل لن يتأثر بشكل عميق ما دام هؤلاء الأسرى سيطردون من البلاد. وقال آخرون إن الانتصار المعنوي الذي حققه الفلسطينيون والذي عبَّرت عنه احتفالات الشعب الفلسطيني في المناطق كان البذرة الأولى للانتفاضة.

إذا كانت البذور قد زُرعت بعد عملية التبادل الأولى فإن الأزهار أينعت في التالية والتي

أقرها وزير الدفاع آنذاك ـ رابين، الذي حدث أن ثلاثة جنود من لواء ناحال كانوا في الأسر وكان لا بد من تحريرهم. ولمن ليس له اطّلاع على ألوية الجيش الإسرائيلي، نقول إن ناحال هو لواء المشاة «العمالي». لم يكن الثمن المدفوع في هذا التبادل أسرى من لبنان حُرر أغلبهم بدون عمل حساب لأي مفاوضات مستقبلية بل إرهابيون شرسون محكومون بلغ عددهم (١١٥٠)، خمسة عشر منهم كانوا أخطر المجرمين في إسرائيل، كان هؤلاء مدانين بجرائم قتل جماعية وتشهد عليهم مناطق عديدة في إسرائيل ارتكبوا فيها جرائمهم مثل الشارع الساحلي، معالوت، بيت هداسا ومطار اللد. وكان أحد الباقين من عملية مطار اللد كوزو أوكاموتو وهو إرهابي ياباني من الجيش الأحمر قام بقتل عشرات من راهبات زائرات من بورتو ريكو. وعند جمع أحكام المؤبد التي كانت ستنفذ بهؤلاء بلغت مجموعاً هائلاً هو (٣٨٠) حُكماً ـ بعضهم قضى فترة بسيطة منها.

ربما يكمن بعض التعويض عن هذا الإفراج في حقيقة أن أكثر من ألف قاتل من هؤلاء أبعدوا عن تراب إسرائيل. لكن رابين سمح لأكثر من (٦٠٠) منهم بالعودة إلى بيوتهم في مناطق ١٩٦٧، أصبح هؤلاء الرجال فيما بعد طليعة الانتفاضة الفلسطينية. ففي كانون الثاني ١٩٩٠ أعيد اعتقال (٤٢٠) شخصاً من هؤلاء الـ (٦٠٠) (٦٥٪ منهم) بسبب جرائم تراوحت ما بين القتل والنشاط الإرهابي. ووصلت النسبة عام ١٩٩١ إلى (٨٠٪) منهم، ونتوقع أنه لولا السرية التي فرضها رابين على تلك الاعتقالات الجديدة لأصبح كل معتقل منهم بحد ذاته إحراجاً قاتلاً له.

كان الانتقاد في أوجه في أيام عملية التبادل، ففي اليوم الذي تلا تلك العملية أفاد مصدر عسكري لصحيفة معاريف الإسرائيلية بأن خروج هؤلاء الإرهابيين الصلبين سوف يشكل بينة تحتية تنظيمية وأيديولوجية ستؤدي إلى زيادة الهجمات الإرهابية. وقع هجوم آخر على رابين وجهه وزير العلوم والتكنولوجيا آنذاك يوفال نيئمان(*) الذي اتهم رابين بأنه «قام بأكثر الأعمال حمقاً في تاريخ أي حكومة إسرائيلية؛ ثلاث جنود مقابل (١١٥٠) إرهابياً

(*) استقال يوفال من منصبه في شباط ١٩٩٢ معترضاً على عملية السلام.

LAU LIBRARY BEIRUT

بارزاً. إن أي شخص ملم بأمور المخابرات والتجسس يعرف مدى الجهد الذي يبذل في زرع شبكة تُجسس مكونة من أربعة أو خمسة أشخاص في أرض العدو فما بال رابين يزرع بيديه شبكة جبريل؟ كان هناك أكثر من (٥٠٠) إرهابي منتشرين في المناطق. لقد جعلناهم يلتقون بتلاميذهم ـ إرهابيي الانتفاضة.

وفي مقال مغاريف المذكور أضاف وزير الزراعة الحالي رفائيل إيتان ضربة أخرى ساندت الهجوم الشعبي على رابين بقوله: «لقد فشل وزير الدفاع ويجب أن يستقيل بل كان يجب عليه أن يستقيل منذ أجيال لكن أنصاره سمحوا له بالاستمرار في تحقيق فشل وراء فشل بدون حساب. لا بد من استقالته الفورية كنتيجة طبيعية لفشله الذي يعتبره أي بلد عادي نتيجة لأخطائه الشخصية».

ماذا كان رد رابين على منتقديه؟ لقد قال إنه وضع نفسه مكان أهالي السجناء الإسرائيليين وقام بخطوة إنسانية. واعترف فيما بعد أن هؤلاء الأهالي ـ معظمهم أو جميعهم من حزب العمال ـ ضغطوا عليه. أما تفسيره الرسمي لإطلاق الـ (٦٠٠) سجين في المناطق فهو «إن هذا سيسهل مراقبتهم» ولو أجبناه بنفس منطقه الأعوج لقلنا إن من الأفضل أن يدعو أعضاء منظمة التحرير بأسرها إلى إسرائيل ليراقب نشاطاتهم عن كثب.

في النهاية تم تحرير ثلاثة جنود إسرائيليين ولكن عدداً أكبر من الشعب الإسرائيلي قتل بسبب عملية التبادل تلك. وكان أحد المحرَّرين هو الشيخ أحمد ياسين قائد الحركة الأصولية الإسلامية ـ حماس المسؤولة وحدها فقط عن قتل عشرات الإسرائيليين.

لم يكن التبادل ليحصل لو لم يكن الجنود من لواء ناحال. وفي الحقيقة إن هناك عدداً مساوياً لجنود ناحال من غير ناحال لا زالوا في أيدي العرب ولم يحدث أي تبادل غير منطقي لإنقاذهم. لذا نتساءل ما هو ناحال وكيف يكون له هذا الأثر على رابين؟

● المزارعون المحاربون:

ناحال لواء مقاتل فريد من نوعه فجنوده يقضون نصف خدمتهم في التدريب العسكري وفي الواجبات، أما النصف الآخر فيقضونه كمزارعين ـ عادةً في الكيبوتسات ـ حيث ينسون

الضبط العسكري وهم يعملون على قطف الفاكهة والغناء حول نيران المخيمات والثرثرة مع المتطوعين الجدد في الكيبوتس.

كان لفكرة المزارع المقاتل بدايةٌ نبيلة؛ كان الصهيونيون الأوائل يسخِّرون أنفسهم من أجل تغيير الفكرة التي كانت سائدة في أحياء الغيتو في أوروبا القائلة بأن اليهود لا يعملون ولا يقاتلون ـ غالباً لأنهم كانوا ممنوعين من ذلك. كانت أيديولوجية الصهيونيين القدماء تقوم على استصلاح الأراضي بالعمل الجاد وعلى بناء أول قوة عسكرية منذ أيام الإنجيل. ورغم اختلاف هذين الهدفين إلا أنهما وبشكل من الأشكال اندمجا ليشكلا الصورة التي يجب أن يكون عليها الصهيوني مع إضافة بعض الاشتراكية إلى الوصفة، وآتت تلك التركيبة أكلها إذ إن معظم قادة لواء البالماخ الذي حارب بشجاعة في أيام الدولة الأولى كانوا من الكيبوتسات وخرج منهم العديد فيما بعد كممثلين لهم في الكنيست منهم موشيه دايان ومنهم الكيبوتسي المنحرف إسحق رابين.

يُطلب من أعضاء الكنيست أن يملأوا نموذجاً يكتبون فيه مهنهم خارج العمل السياسي. ولا زال رابين يكتب في تلك الخانة إلى الآن «مزارع» رغم مرور خمسة عقود منذ أن حمل مجرفةً أو استخدم محراثاً. على أية حال فهو معجب بمهنة حراثة أرض إسرائيل، ولا بد أنه يشعر بقرابة بينه وبين مقاتلي لواء ناحال المأسورين ـ برغم الطريقة التي أسروا بها والتي لم تكن أثناء المعركة بالتأكيد. يقول تقرير الجيش الإسرائيلي إن إرهابياً وحيداً تقدم إلى الخطوط الأولى لناحال وصار ينادي على الجنود الإسرائيليين من أجل أن يلحقوه ولم يطلق رصاصة واحدة، ولحقوا به. بعد عدة دقائق كانوا أسرى خلف الخطوط السورية ولم يستطع المحقق الإسرائيلي الذي تولى القضية أن يفهم لماذا ينساق جنود يفوقون آسرهم (١:٨) مثل حملان تسير نحو جزّارها. وكتب: «لماذا لم يقاوموا. إن هذا يتجاوز مستوى فهمي».

وفي تقرير آخر ذكر اللواء يوسي علدار «إنه ما كان يجب على الجنود أن يتّكلوا على جيش الدفاع الإسرائيلي ليقوم بتحريرهم عند اتخاذهم لقرار الاستسلام أو المقاومة.

وتقول الرواية غير الرسمية والتي شاعت في البلاد إن الإرهابي الوحيد جاء كمزارع

LAU LIBRARY BEIRUT

مُمْتن كان يحضّر الشاي يومياً لهم وإنه كسب ثقتهم. وفي يوم الأسر قدّم لهم شاياً مخدراً وسلمهم إلى أيدي الأعداء. إن هذه الرواية تناسب الصورة المرسومة عن أي جندي ينتمي إلى ناحال.

إن الكيبوتسَ اليوم هو مجتمع قائم بذاته في إسرائيل. كانت البداية أن يقوم رائد صلب متحمس ببناء كيبوتس هنا أو هناك، أما أبناء الكيبوتسات اليوم فهم علية القوم ويحيطون أنفسهم بكل مظاهر الترف والارستقراطية من برك السباحة وملاعب التنس والخيول.

وتقع بجانب الكيبوتسات مدن مكتظة مليئة بالعمال الذين تعتريهم الحيرة وهم يتساءلون بمرارة عما فعلته الكيبوتسات لتستحق كل هذا الدلال؛ فهم يعطون مساحات شاسعة من الأراضي الممتازة المعفاة من الضرائب بينما هم يدفعون مبالغ هائلة لقاء قطعة أرض مليئة بالصخور يبنون عليها. ولو لم يكن هذا التمييز القانوني بين الكيبوتسات وبين المدن المزدحمة كافياً لإثارة الحقد والضغينة بين الطرفين، فإن عنصر الاستعلاء الطبقي عند أبناء الكيبوتسات كافٍ لتوسيع هوة الشقاق بينهما.

لقد تغير الكثير منذ السنين الأولى لإنشاء الكيبوتسات. في تلك الأيام كان الجميع يحصلون على صفقة عادلة فكان المتطوعون يأتون إلى الكيبوتسات ليأخذوا إجازة مجانية مقابل العمل هناك، فيما كان الكيبوتس يحصل على عَمالة رخيصة. ومع أن القليل من هؤلاء المتطوعين قد أعجبتهم حياة المساواة وقرروا أن يستقروا إلا أن أغلبهم كان يعود إلى وطنه بعد عدة شهور من العمل في غسل الأطباق وقطف فاكهة الأفوكادو.

عانت أوروبا في الثمانينات من البطالة المرتفعة وأصبح آلاف الشباب بلا أمل في الحصول على وظيفة. وقد بثت الكيبوتسات عرضها فتطوع آلاف الشباب الأوروبي ولكنهم هذه المرة لم يعودوا إلى أوطانهم في غضون أشهر، بل سنوات قضوها في تناول المخدرات مستلقين على شواطىء البحرين المتوسط والأحمر. وبغض النظر عن كونهم مثاليين متحمسين إلا أن الكثير منهم أعجبته حياة الاسترخاء فلا قلق ولا مسؤولية. واليوم تجد الكثير من أبناء الكيبوتسات يساريين مطلقين لشعورهم. وعندما يطلب الواحد منهم للخدمة

في الجيش فإنه يحاول أن يقضي هذه المدة بأقل تنغيص ممكن. حقيقة أخرى نذكرها وهي أن الكيبوتسات مفلسة تماماً فهي مدينة بحوالي (٤) بليون دولار وستكون عاجزة عن الدفع إذا لم يقدّم شمعون بيريز كوزير للدفاع كفالة تقبلها البنوك.

هذه الكيبوتسات هي البيئة التي تنتج نسبة جيدة من جنود ناحال. يصل الكثير منهم إلى معسكرات التجنيد بشعورهم الطويلة والأقراط معلقة على الأذنين ولا يلبثون حتى يشيع عنهم أنهم لا أمل فيهم، ويطلقون عليهم "Astranautim" وهؤلاء ليس مكانهم الجيش. إن هذا النوع من الجنود هو الذي يقبل شاياً مخدراً من عربي في منطقة لا تبعد ميلين عن خط المواجهة. وحتى لو لم تكن قصة الشاي صحيحة فإنها بدت منطقية وتلقاها الشعب الإسرائيلي بالقبول والتصديق. ولو كانت عملية تبادل الأسرى هي آخر ورطات ناحال لهان الأمر ولما تلطخت سمعتهم. ولكن ناحال مُلام بشكل رئيسي في إعطاء الانتفاضة أول رشفة من الدم والشجاعة.

قبل حوالي أسبوع من قيام اشتعال الانتفاضة التي أشعلها حادث مرور، قام إرهابي من منظمة التحرير قادماً من لبنان بدخول إسرائيل مستخدماً طائرة شراعية وساعده حظه الكبير في النزول قرب معسكر للواء ناحال وأطلق بعض الطلقات باتجاهه فما كان من الحارس المقدام الواقف على الباب إلا أن ركض باتجاه التلال هارباً بدون أن يطلق رصاصة عليه وتركه يصول ويجول ويقتل ستة جنود ويجرح سبعة آخرين قبل أن يُقتل(*).

صحيح أن اللوم يقع على حارس الباب ولكن جيش الدفاع الإسرائيلي كان مهملاً فقد وصلته أخبار الهجوم قبل نصف ساعة من وقوعه. وقد حُرم ضابط العمليات في المعسكر من منصبه القيادي لأنه لم يكن قد جهز جنوده استعداداً للهجوم الوشيك (كان الكثير منهم غير مسلح أو نائماً) وكذلك سرّح العقيد قائد الكتيبة الذي أشرف على تلك المعركة المحزنة.

(*) في شباط ١٩٩٢ قام إرهابيون مسلحون فقط بالسكاكين والمذاري باقتحام قاعدة لناحال وقتلوا ثلاثة جنود مسلحين. وكان مساعد قائد هذه القاعدة هو نفسه مساعد قائد المعسكر الذي اقتحمه الإرهابي ذي الطائرة الشراعية. إن تغير مراكز القيادات في جيش الدفاع الإسرائيلي لا يغير في الأمور شيئاً.

LAU LIBRARY BEIRUT

وبدأت المطالب بحل لواء ناحال تتزايد في البلاد بدأها رجل واحد هو الدكتور يونا ثان بادار الذي زعم أن فشل ناحال يعود إلى وجود ولائين للجندي كمزارع أو كجندي. وأضاف أن توزيع الولاء بهذا الشكل لا يوجد في أي جيش في العالم حتى في الصين إبان حكم ماوتسي تونغ. وعزا آخرون فشل ناحال إلى طبيعة الحياة في الكيبوتسات. هناك اللامبالاة والاعتماد على الغير من الأعضاء النشطين وهناك البحث عن إنقاذ السياسيين لهم من ورطه الديون والإفلاس. وفي عام ١٩٩٠ هبط مستوى التجنيد في ناحال إلى (٤٠٪) ولم يستمع وزير الدفاع رابين إلى نداءات المطالبة بحل ناحال وأصر على أن يستمر ذلك اللواء العمالي بالدفاع عن إسرائيل.

كان أول قرار رئيسي اتخذه رابين بعد أن أصبح وزيراً للدفاع عام ١٩٨٤ قيامه بسحب الجيش الإسرائيلي من لبنان باستثناء منطقة الحزام الأمني في الجنوب اللبناني. ويعود الفضل له في تخليص إسرائيل من منطقة مجنونة وحرب ميئوس منها. ولكن العرب لم ينظروا لهذا الشيء على أنه نصر لهم، فالواقع أن وجهة نظرهم تقول: إن إسرائيل انسحبت ولأول مرة من حرب تجر أذيال الخسارة على يد الإرهابيين.

لقد تعلم الأعداء دروساً مفيدة من حرب لبنان: فمزيج من عمليات السيارات المفخخة والكمائن جعلت الجنود الإسرائيليين ينسحبون. وهذا الدرس استوعبه الناس داخل الأراضي المتنازع عليها وانطلقت شرارة الأمل في قلوب شباب نابلس وغزة والخليل.

في عام ١٩٨٦ قامت الحكومة بعملية ترميج نتج عنها فقدان (٦٠٠٠) ضابط لوظائفهم في نفس الوقت. كانت الضربة الأصعب موجهة إلى الرتب الأدنى وذلك لأن رابين أبقى على نسبة كبيرة من الرتب الأعلى في أماكنها. أدت عملية التسريح الواسعة هذه إلى نشر عدم الطمأنينة في صفوف الكثيرين ممن حافظوا على وظائفهم فبادر الكثير منهم إلى تقديم استقالته بحثا عن مستقبل أكثر أمنا في الأعمال التجارية. ولهذا السبب لم يكن الكثير من الضباط الشباب البارعين في الميدان عندما اندلعت الانتفاضة في كانون الأول عام ١٩٨٧. وتركوا لكبار السن من الضباط أن يتولوا الأمور بأساليبهم العتيقة.

عندما اندلعت الانتفاضة كان رابين خارج البلاد ولكن لم يدرك أهمية الحدث تماماً

فرفض قطع رحلته والعودة. وعندما عاد إلى البلاد كان العدو قد أخذ بزمام المبادرة خصوصاً في نظر العالم الخارجي. كان الإعلام العالمي قد وجه سهامه إلى جيش الدفاع الإسرائيلي أثناء وجوده في لبنان وقد تأثرت مكاسبه العسكرية كثيراً - حصار بيروت على سبيل المثال - بسبب خسارته للدعم العالمي. وقد استخدم العدو أساليب بسيطة في رسم الانطباعات مثل تصوير عرفات وهو يقبل الأطفال مما كان أثر قوي خصوصاً وأن الجيش الإسرائيلي كان فاشلاً إعلامياً.

إن جزءاً من المشكلة يعود إلى المعايير التي يتم على أساس اختيار إعلاميي الجيش الإسرائيلي. فبدلاً من اختيار خبراء يتكلمون عدة لغات ويفهمون أصول الحرب، نجد أن مكتب الناطق الإعلامي كان ولا يزال مليئاً بالطابعات وبالمترجمين الجالسين الذين نقلوا إلى وظائف مكتبية لأسباب صحية أو نفسية أو من أجل عيون عائلاتهم ذات النفوذ. وبعد فشل الإعلام العسكري في لبنان برزت هناك مطالب في الصحافة الإسرائيلية باختيار محترفين في الإعلام العسكري، ولكن تلك المطالب لم تتحقق.

كان رابين يعامل المنتفضين على أنهم جنود محاربون فسمح باستخدام الرصاص الحي لتفريق المظاهرات، ويبدو أنه لم يكن هناك خيار آخر إذ أن جيش الدفاع الإسرائيلي لم يكن متدرباً على أساليب مقاومة الشغب ولم يكن عنده معدات خاصة لهذا الأمر ولا خبرات متعلقة بهذا الأمر.

كان مثيرو الشغب يثيرون حنق الجيش وانتقامه بأسلحة بسيطة مثل الحجارة التي سببت تلك السمعة السيئة لرابين حتى أنه أطلق عليه «رابين الحجارة "Rockin Rabin"»، بالإضافة إلى الأدوات الحادة والمقاليع. وكان الجنود الإسرائيليون الأقوى عدةً وعتاداً يظهرون في اللقطات المصورة بصورة الخاسرين.

كان الإعلام يسجل كل حالة وفاة لمثيري الشغب، ولم يكن يركز على الضحايا المدنيين الإسرائيليين. وهنا جاء دور رابين وجيش الدفاع الإسرائيلي ليوضِّحوا موقفهم من حالات القتل، ولم يكن ذلك الأمر سهلاً أبداً. إن الحفاظ على الأمن والنظام أمر متسم

بالفوضى ولكن سجل إسرائيل كدولة ديمقراطية أفضل من ديمقراطيات أخرى تواجه نفس المشكلة فعندما اندلعت أحداث الشغب في أمريكا في الستينات قتلت الشرطة المحلية والحرس الوطني أكثر من ثلاثين من المتظاهرين في عدة أيام عصيبة في ديترويت وهو يزيد عن العدد الذي قتلته القوات الإسرائيلية في ثلاثة أشهر رداً على هجمات متتالية في عشرات المواقع.

ومن القضايا المهمة التي أهملتها الصحافة العالمية، ربما لنقص المعلومات ولنقص التعاطف أيضاً استخدام الأطفال كدروع بشرية في نقاط المواجهة، ومنها تشويه وقتل معارضين سلميين للانتفاضة [أي العملاء ـ المترجم] وأن هدف مثيري الشغب كما اعترفوا به أكثر من مرة هو تدمير إسرائيل، بالمختصر نقول إن إسرائيل أدت عملاً رائعاً في تفريق الشغب بقوة ولكن العالم الخارجي لم يتلق الرسالة واضحةً عندما قام رابين والناطقون الإعلاميون في جيش الدفاع الإسرائيلي بتسليمها.

كان على جيش الدفاع الإسرائيلي أن يتمرس أكثر في المجال الإعلامي. لكن اليد العليا كانت لمثيري الشغب الذين كانوا يقودون كاميرات الصحفيين نحو مواقع يحدث فيها ضرب للمتظاهرين وأحيانا يثيرون الجنود الإسرائيليين ليحدث اشتباك بينهم. ولقد أدت النقود التي تدفعها شبكات التلفزيونات إلى أن يقوم مصوِّر إسرائيلي بإخراج عرض تمثيلي لحدث شغب. ومثل هذه الأمور كانت شائعة كما يقول أحد مهندسي الصوت..

لقد نسيت وسائل الإعلام ما هو العدل والإنصاف واستغلت حسن الضيافة والحرية التي تمنحها إسرائيل ونقلت الأحداث بشكل لا يسمح لها به في أي بلد عربي. وعندما تدفق هؤلاء الصحفيون إلى القدس لتغطية الانتفاضة تمركز أغلبهم في القسم العربي من المدينة في فندق أميركان كولوني البالي والذي أصبح بعد فترة بسيطة مركز قيادة إعلامية لقادة منظمة التحرير الفلسطينية.

كان لردة الفعل المعاكسة العالمية أثرها على رابين فأصدر على إثرها أوامر بمنع استخدام الذخيرة الحية إلا في حالات «الموت أو الحياة». وكان هناك ضغط أمريكي

LAU LIBRARY BEIRUT

يرفض استخدام سلاح الإبعاد الذي هو الأكثر فعالية من غيره.

كانت خطة رابين التالية تغريم راجمي الحجارة لا قتلهم. إن الحجارة تقتل بالفعل، وفي إحدى الحوادث المؤسفة قُتل لاعب أولمبي إسرائيلي يخدم في الاحتياط بحجر في حي القصبة في نابلس. إن الحجارة سلاح قاتل وإن نية راجمي الحجارة هي القتل بالتأكيد، ولهذا السبب فإن غرامة من تثبت عليه تلك التهمة هي (١١٠٠) دولار.

بحلول كانون أول عام ١٩٩٠ بعد ثلاثة سنوات من بداية الانتفاضة كان (٤٠٠٠) يهودي من المدنيين والعسكريين قد جُرحوا إثر هجمات عربية. وكان قد قُتل (٢٠) يهودياً بمن فيهم امرأة وأطفالها الثلاثة وذلك في حادث إلقاء قنابل في حافلة خارج أريحا. ولقد أبلغ الجيش عن (١٢٠,٠٠٠) حادثة رمي حجارة، و(٢٥٠٠) حادثة إلقاء قنابل مولوتوف، و(١٥٧) كميناً باستخدام الذخيرة الحية، و(٥٨) حادثة رمي قنابل يدوية و(١٠٠٤) محاولة إضرام نيران متعمدة بالإضافة إلى بضع مئات من هجمات على سيارات في القدس.

في نفس ذلك الشهر كتب ضابط في الجيش مقالاً تحت اسم مستعار معلناً أنه قد فقد صبره: قال: «.. وأغرب من هذا هو أوامر إطلاق النار التي هي عبارة عن متاهة معقدة من الأنظمة والقوانين التي تحكم استخدام جميع أنواع السلاح الناري تحت ظروف وأحوال مختلفة، لسوء الحظ فما يكاد الجندي أو رجل الشرطة يقرر أنه تحت هذا الظرف الذي هو فيه هل تقول القوانين بأنه يجب أن يطلق رصاصاً مطاطياً أم بلاستيكياً أم رصاصاً حياً أم يهرب، وقبل أن يقرر يكون ميتاً».

وهكذا فقد أوقفت سياسة رابين القائلة باستخدام الذخيرة الحية على يد الإعلام العالمي والعالم ولم يكن لسياسات الغرامات والرصاص المطاطي غير المؤذي نسبياً أي حول أو قوة في وقف الانتفاضة. وبينما تملكه اليائس، أبلغ رابين وبصورة غير رسمية كبار رجال الشرطة بأنه: «يجب أن تمسكوا بهم وتكسروا أيديهم وأرجلهم».

وعندما فعل الضباط والجنود ذلك اتهموا بالقسوة وحوكم بالفعل عدد منهم بتهمة

التسبب بالأذى. وكان من بينهم عقيدان وضابط برتب أدنى وجنود، وحقق أيضاً مع عقيد آخر ومع عميد ومع أعلاهم رتبة الفريق مردخاي قائد المنطقة الجنوبية العسكرية. وفي كل تلك المحاكمات والتحقيقات قال الضباط والجنود بأنهم كانوا ينفذون أوامر رابين التي حملها لهم مسؤولوهم من مثل دان شومرون وعمرام ميتسنا. وقد رفضت المحاكم العسكرية كل ادعاءات الجنود تلك برغم وجود دليل وهو شهادة ضباط كبار بان رابين وشمروم وميتسنا قد أجازوا الضرب كعقوبة وذلك أثناء إلقاء محاضرات في الجيش.

لقد اعترف جميع الضباط المدانين بأنهم كانوا ينفذون أوامر رسمية، وقال الرائد إسحق ليفايت بعد إدانته: «لست نادماً على الأوامر التي أعطيتها لجنودي لأنها بالضبط نفس الأوامر التي تلقيتها من رؤسائي». وشهد ضابط آخر بأن ميتسنا قد حنث بيمينه عندما أبلغ المحكمة بأنه لم يكن هناك أوامر على مستوى القيادة «بالضرب بنية العقاب». واستنتج ليفايت «بأن الفرق الوحيد بيني من جهة وبين رابين وكبار ضباطه من جهة أخرى هو أنني لم أتفوه بالكذب ولم أنكر الأوامر التي صدرت مني».

بقيت هناك سياسة أخرى كان لها بعض الأثر فقد أقام جيش رابين معسكرات اعتقال واسعة - يوجد فيها اليوم حوالي (١٢,٠٠٠) معتقل منهم (٧٠٠٠) في معتقل كيتسيوت (أنصار) في النقب، والبقية في شمال البلاد في سجن مجدّو. وكان معتقل كيتسيوت قد أُقيم قبل يوم الأرض بفترة بسيطة من عام ١٩٨٧، ويوم الأرض يوم عطلة بالنسبة لمنظمة التحرير. كان الهدف إنشاء معتقل انتقالي بسيط قليل التكلفة للنشطاء الذين يخططون لإثارة المشاكل والذين يلقى القبض عليهم في حملات جماعية، استمر بناء هذا المعتقل أربع سنوات وبلغت تكلفته (٣٥) مليون دولار ويتكون من خمسة تجمعات يديرها أكثر من (٥٠٠) شخص أغلبهم جنود احتياط.

يتم اعتقال معظم المساجين باسم قانون بريطاني يسمى الحجز الإداري حيث يشتبه بالمعتقلين القيام بأحداث عنف ويحتجزون لمدة ستة شهور بدون محاكمة. إن كل سجين يكلف إسرائيل ثلاثة دولارات يوميًا ثمن طعامه، ويزود أيضاً بالصابون وخلافه وبالفراش وبالعناية الطبيّة صحةً وأسناناً وهكذا نجد أنه خلال فترة التقشف وتقليص ميزانية

الجيش التي أدت إلى إلغاء مشاريع جديدة وبرامج تدريبية، نجد أنه ينفق على المساجين أكثر من (٢٠٠) مليون دولار.

ولا يتعرض المعتقلون في كيتسيوت إلى القسوة أو الحرمان كما يثبت التفتيش اليومي للصليب الأحمر، وتُطبّق مواثيق أسرى الحرب تماماً مع أن المعتقلين ليسوا أسرى حرب بمعنى الكلمة. وبعد ستة أشهر يطلق سراحهم. إن الخطر الوحيد الموجود هو النزاع الفصائلي الداخلي فقد قُتل لغاية الآن (٢٦) نزيلاً في أماكن احتجازهم عن طريق عرب آخرين. وما أن يطلق سراح المعتقل حتى يعود لسابق نشاطه في الانتفاضة غير متعظٍ بتجربة اعتقاله.

لذا يبدو أن كل سياسات رابين في قمع الانتفاضة لم تفلح وكان أثرها على الرأي العام العالمي سيئاً. والأسوأ من ذلك أن رابين يتهرب من مسؤولية إعطاء أوامر الضرب في بداية الانتفاضة. لم يكن الخطأ في أن يعطي كقائد عسكري أوامر مثل تلك، تحت تلك الظروف ولكن الخطأ أن يرفض أن يدعمها في نهاية الأمر ويتملص من مسؤولية إعطائها.

● ماذا دهاك يا جيش الدفاع الإسرائيلي؟

في أعقاب حكم رابين أصبح جيش الدفاع الإسرائيلي جيشاً مرتبكاً ضعيف المعنويات، لقد رفض (١٥٠) جندياً أن يخدموا في المناطق منذ بداية الانتفاضة وسجنوا لاتخاذهم هذا الموقف. ومع أن ما يزيد عن مئة حالة خيانة يُعدّ أمراً مسبباً للقلق إلا أنه لا يعني الانهيار التام. وهناك دلائل أخرى ففي عام ١٩٩٠ قُتل عدد من الجنود الإسرائيليين في هجمات موجهة ضد جيش الدفاع الإسرائيلي من قبل الأعداء. وهناك بالتحديد ثلاثة حوادث خطيرة أدت إلى انهيار تام في ردود الفعل القتالية الإسرائيلية:

١ - مع تزايد الأصولية الإسلامية في الأردن وصلت الهجمات من قبل الحدود الأردنية المعروفة تقليديا بالهدوء إلى حد خطر. ففي إحدى المرات قام إردني وحيد بالهجوم على معسكر إسرائيلي نتج عنه وفاة جندي إسرائيلي - بينما لم يقم زملاؤه بأية ردة فعل. وقد أظهر تحقيق لاحق أنه وبالرغم من الخطر المتزايد على تلك الحدود فإن جندياً واحداً فقط في

LAU LIBRARY BEIRUT

ذلك المعسكر كان تدريبه العسكري يتجاوز الأربعة شهور، أما البقية فهم مهاجرون تلقوا تدريباً عسكرياً سطحياً وروتينياً. وكان الجدال الذي لم يوصل إلى أي تغير في سياسة تزويد المعسكرات بالرجال يتركز حول تساؤل واحد: ماذا كان هؤلاء الحفنة من الهواة وهم كادر ذلك المعسكِر الحساس - ماذا كانوا يفعلون؟

٢ - تعرض أحد فصائل لواء غفعاتي القوي لكمين إرهابي في جنوب لبنان أفقده عدداً من رجاله. صدر الأمر بإطلاق النار من مسافة ستين متراً من المهاجمين وهي مسافة بعيدة. وما لبث الفصيل أن فقد ذخيرته جميعها عند أول زخة رصاص مما أعطى المجال لأحد الإرهابيين الناجين بأن يلقي قنبلة يدوية صرعت خمسة جنود كانوا قريبين من بعضهم. خطآن قاتلان في أبسط القواعد أدّيا إلى تلك المأساة: تقارب المسافة بين الجنود وإطلاق النار بشكل مستعجل.

٣ - في تشرين الثاني من عام ١٩٩٠ قطع جندي مصري الحدود واستمر لمدة (٢١) دقيقة في إطلاق النار على المركبات بما فيها حافلةً مليئة بالجنود فقتل أربعة إسرائيليين وجرح (٢٦).

يقول أوريل لين: «.. إن هذه الأخطاء تُظهر بكل جلاء أن جيش الدفاع الإسرائيلي لا يعرف كيف يحمي جنوده وأن مستوى استعداديته للهجمات المفاجئة منخفض تماماً. إننا نجد أنفسنا أمام استنتاج مؤلم وهو أن الكثير من الجنود لا يتلقون التدريب العسكري المناسب ولا يدرسون كيف يستجيبون للهجمات المفاجئة».

وكانت هناك حوادث أكثر تقتيلاً امتدت عام ١٩٩٠ وحتى ١٩٩١ لا يفسرها إلا الانهيار الوظيفي والعملياتي:

١ - في ٢٣ نيسان تحطمت طائرتان مروحيتان من نوع سيكورسكي سي ٥٤ إس وذلك في وادي الأردن وقُتل طاقماها المكونان من سبعة أشخاص. وأفاد شاهد عيان بأن إحدى الطائرتين اصطدمت بالأخرى بعد أن حادت عن مسارها.

٢ - بعد ستة شهور تحطمت طائرة خفيفة من نوع سيسنا وقتل في الحادث خمسة

ركاب كانوا على متنها، أقلعت تلك الطائرة في أحوال جوية مثالية، وادعى تقرير لاحق بأن سبب الحادث هو الإهمال وخرق الإجراءات المتبعة قبل الحادث بليلة.

٣ - في نيسان ١٩٩١ وعلى مرآى من جميع المصطافين سقطت طائرة في بحيرة طبرية وقُتل الطيّار والملاّح، وانتشلت بقايا الطائرة من عمق (١٢٠) متراً ولم يظهر لغاية الآن أي تفسير فني للحادث.

٤ - والحادث الموثّق أكثر من غيره وقع في ١٩ تموز عام ١٩٩١ عندما قُتل خمسة جنود وجرح عشرة آخرون بعد سقوط قذيفة مدفعية على وحدة مظليين خلال مناورة تدريبية في منطقة تسعيلم في النقب. كان السبب خطأً بشريا لا يمكن تجنبه رافقه إهمال مجرم وقلة اعتبار كاملة لأوامر السلامة. ويشير تحقيق الجنرال عاموس بارون إلى أن حالة الإهمال هذه هي المسيطرة على جميع الهرم القيادي المنهار. بعد ذلك سُرّح ستة ضباط من الخدمة بسبب الإهمال القاتل.

إن أكثر الجوانب إثارة للحزن في هذه السلسلة من الحوادث منذ عام ١٩٩٠ هو أنه كان بالإمكان منعها لو نفذّ جيش الدفاع الإسرائيلي توصيات لجنة لابيروت التي كانت في عام ١٩٨٩ تتوقع حدوث كارثة وشيكة. وكان تقرير تلك اللجنة قد انتقد الجيش لعدم بذله الجهد الكافي، وانتقد تجاوزه للسلطة وعجز نظامه الأمني، وأشار التقرير أيضاً إلى المستوى المتدني للتقارير حول الكوارث التي تقع والتأخر وعدم اكتمال التحقيقات والتعتيم على الأحداث الحقيقية. وأوصت اللجنة في تقريرها بإيقاع عقوبات أقصى في حق الإهمال الإجرامي وبتعيين قيادة جديدة فيما يتعلق بالجوانب الأمنية. لكن الجيش الإسرائيلي غض طرفه عن هذا التقرير وعن التوصيات التي وردت فيه مما أدى إلى أن يخسر بعضاً من أفضل رجاله خلال حوادث حمقى كان يمكن تجنبها، وإذا كانت أخطاء المعارك والحوادث التي كان يمكن منعها دلالة على أن الأمور ليس كلها على ما يرام في الجيش الإسرائيلي فإن معدل حالات الانتحار دليل آخر يقول الكثير.. ففي ربيع ١٩٩٠ وقعت حالات انتحار عديدة ولم تقصّر وسائل الإعلام العالمية في تناول القصة ونشرها على اعتبار أنها نتيجة لانهيار المعنويات جرّاء الانتفاضة. وهذه نظرية متصدعة ولكن الجيش

LAU LIBRARY BEIRUT

الإسرائيلي عانى ولأول مرة منذ ست سنوات أكثر من (٣٥) حالة انتحار في عام واحد فقط.

ويقول تقرير آخر كتبه اللواء عاموس لابيدوت إن جيش الدفاع الإسرائيلي مسؤول جزئياً بعدم تتبعه للتاريخ النفسي للمجند وبعمليات الإذلال للجنود أثناء التدريب ولانحطاط مستوى التدريب العام.

على أية حال فإن العوامل التي أدت إلى ارتكاب الانتحار قد تكون اقتصادية وشخصية وإن الانتفاضة بحد ذاتها ليس لها ذلك الأثر القوي في دفع الجندي إلى وضع حد لحياته. هناك الديون البنكية وعدم القدرة على شراء منزل والضغط المادي عموماً. وهكذا عندما يجد الجندي نفسه وحيداً مع أفكاره وبندقيته في يده في معسكر بعيد كئيب مظلم بعيداً عن عائلته، هناك تسيطر عليه فكرة قتل نفسه.

إن حالات الانتحار والحوادث التي تقع في المعارك تشير إلى وجود قلق وضيق ولا مبالاة بدأت تفرض نفسها. هذا هو ميراث سنين رابين. ولكن رابين (الأحمر) لم يعد رئيساً للوزراء فقد تولى موشيه أرينز زمام الأمور منذ عام ١٩٩٠ وتحسنت الأمور بالتأكيد، ولكن بدرجة بسيطة، لعلنا متعاطفين مع وزير الدفاع الجديد؟

• آثار صواريخ سكود:

لم يحقق جيش الدفاع الإسرائيلي أي نصر يذكر منذ الأيام الأولى لحرب لبنان حيث أخرجوا من هناك بفعل السيارات الملغومة ليأتوا إلى الوطن محاولين أن يقوموا بمهمة لم يشكروا عليها، كانت حرب الخليج هي فرصتهم للدفاع عن الإسرائيليين داخل الوطن ويحققوا نجاحاً كما حققوه خارج الوطن في عينيتبي وفي قصف المفاعل الذري العراقي «أوسيراك». ولكن النتيجة كانت في تسع وثلاثين صاروخ سكود عراقياً هبطت في أو قرب إسرائيل.

كان جيش الدفاع الإسرائيلي واستعداداً لهجوم كيماوي عراقي قد وزّع أقنعة غاز لكل الإسرائيليين وزودهم بمعلومات لتجهيز غرف محكمة الإغلاق لتقيهم من الغازات القاتلة. لكن مراقبة النفقات الحكومية قالت بأن الأقنعة معيبة أو غير فعّالة وإن السكان تعرضوا

لعملية خداع كبيرة. رفضت الحكومة التعليق على اتهاماتها لكن الجيش أشار ضمنياً إلى قلة إمكانياته حيث المبلغ الموجَّه لهذه الغاية لا يتجاوز (٢٥) مليون دولار. ولم تبدأ مناقشة مسألة الأقنعة إلا عندما بدأت الصواريخ العراقية تنهال على إسرائيل. إن حجم الرأس المتفجرة للصاروخ والمسافة التي يقطعها تقلل من احتمالية استخدام رؤوس كيماوية؛ والتي تسببت في معظم الدمار هي الرؤوس المتفجرة بالإضافة لاصطدام الصاروخ نفسه، أما الغرف المغلقة فلم تكن ملائمة للحماية من المتفجرات ولا ينفع هنا إلا الملاجىء المخصصة لذلك.

رفض جيش الدفاع الإسرائيلي أن يغير من سياسته هذه في منتصف الطريق، فبلغ عدد الشقق المدمرة الآلاف وضحايا قطع الدبش المتناثرة المئات، ومع ذلك أصر الجيش على أن الغرف محكمة الإغلاق هي أفضل وسيلة للحماية. لكن الغضب الشعبي المتزايد أدى إلى الاعتراف بأن الملاجىء سهلة البلوغ هي أفضل حماية في تلك الحرب.

إن الأمر لا يتعدى المعجزة إذ كانت الضحايا قليلة جداً. توقع الناس رد فعل من الجيش في الليلة الأولى لوصول الصواريخ، وكان أرينز بالطبع ميالاً من حيث المبدأ إلى القيام بمهمة تدمير مواقع الصواريخ، ولكن الجيش لم يرد وكانت تلك بداية القصة المحرجة التي ظهرت فيما بعد.

كان الأمريكيون مقتنعين بأن أي رد فعل إسرائيلي كان سيحطم التحالف ضد العراق؛ فالسعودية والكويت ودول الخليج سيطلبون من أمريكا أن تحمل أشياءها وتعود من حيث أتت لأن إسرائيل شريكة في تلك المعركة. كان ذلك السيناريو يبدو مستحيلاً، ولحفظ التحالف ناشدت أمريكا إسرائيل عدم الرّد على دولة كانت توجه إليها صواريخ قاتلة. ووعدتها بصواريخ باتريوت الإعجازية.

ولكن، وكما أشار ضابط مخابرات إسرائيلي: «لم يقل الأمريكيون لنا الحقيقة فيما يتعلق بالقضاء على الصواريخ. كان طياروهم يقذفون مواقع صواريخ سكود من ارتفاع شاهق ولم يحققوا تدميراً كاملاً. نعم كان البريطانيون يطيرون على ارتفاعات منخفضة ولكن عددهم لم يكن كبيراً. ولو سمح لنا نحن بالهجوم لكنّا أكثر فعالية من الأمريكان وأكثر

LAU LIBRARY BEIRUT

عدداً من البريطانيين، كان بإمكاننا تدمير تلك الصواريخ في أيام معدودة».

ولم تعرف قصة صواريخ الباتريوت بحذافيرها، فإذا كانت الوحدات المضادة للطيران الإسرائيلية جاهزة نتيجة تدريب استمر أربعة شهور على مقاومة الهجمات الصاروخية فلماذا لم تكن بطاريات الباتريوت جاهزة في مواقعها عندما أطلقت صواريخ سكود؟ إن الحقيقة التي لم تقل إن صواريخ باتريوت لم تكن تفعل أكثر من تغيير مسار صواريخ سكود. كان هذا الأمر كافيا لو كان الوضع كما هو في السعودية حيث كانت تنحرف إلى الصحراء الشاسعة ونجت الرياض، أما في إسرائيل فكانت الصواريخ تنحرف إلى المنطقة الساحلية المزدحمة لتدمر منطقة لم تكن في الحسبان.

كان ذلك هو الحماية الوحيدة التي وُفرت للشعب الإسرائيلي. كان لدى إسرائيل صواريخ أريحا التي كانت يمكن أن تنفع كرد انتقامي على صواريخ سكود، وكذلك كانت إسرائيل تملك أفضل سلاح جو في المنطقة وأفضل مشاة مظليين يمكنهم أن يضعوا حداً لذلك الرعب. لكن جيش الدفاع الإسرائيلي لم يفعل شيئاً، وجلس الشعب يروي النكات بدلاً من ذلك منها (لماذا لا يلعب العراقيون في بغداد لعبة البينغو (هي لعبة قمار يذكر فيها أرقام ورموز عشوائياً: م) الجواب: لأنه عندما يذكر الرمز ب ـ ٥٢ يهربون جميعاً إلى الملاجىء، وبقي الإسرائيليون يتكلون على صواريخ الباتريوت التي أشرف على معظمها جنود أمريكان لأول مرة في تاريخ إسرائيل.

كانت الحكومة تطمع في حصة كبيرة لقاء صبرها ولكن فشل بيكر، وأصابع الاتهام التي وجهت إلى إسرائيل حرمتها من الكثير، لقد أقضّت الصواريخ مهجع الحياة اليومية في إسرائيل، وأجبرت الحكومة الجيش على الوقوف موقف المتفرج بدون أن يحاول منع ذلك.

ومع أن جيش الدفاع الإسرائيلي سجل نقاط شرف في استفتاءات الرأي العام الأمريكي، فإن الرأي العام الإسرائيلي لم يكن يرى أن الجيش قد قام بواجبه تجاه حماية السكان من زخات صواريخ سكود. وقد فطن السوريون إلى هذه النقطة، فاتفقوا فوراً على صفقة لشراء صواريخ سكود من كوريا الشمالية وذلك بعد انتهاء حرب الخليج.

وعاد الجيش إلى مرحلة ما بعد حرب الخليج إلى وضعه الطبيعي، يعكس أمراضاً مجتمعة؛ بعض المتشددين كانوا يطالبون بعلاوات عائلية أكبر والجيش يرفض تجنيد أعضاء جدد في الغالب، وذات مرة دعي مجموعة من الجنود من المهاجرين السوفييت إلى وجبة عيد الفصح ولكن كتب الصلاة باللغة الروسية منعت لأن ناشرها هو حركة المحافظين الأمريكية فقام المتدينون في إسرائيل بالضغط على حاخامات الجيش لكي تمنع هذه الكتب، وبالطبع كان الروس هم الخاسرين حيث منعوا من أول احتفال بسفر الخروج في أرضهم المختارة.

وعلى الجهة السياسية كان شامير قد ملّ من تعيينات رابين ذات المستوى العالي بعد أن حوكم اللواء مردخاي باستخدام العنف تنفيذاً لأوامر رئيس هيئة الأركان شمروم. ووقع الاختيار الشعبي أخيراً على تعيين إيهود باراك رئيساً للأركان.

لم يقصِّر باراك في اتباع خطى رابين وأخطائه فقام بعملية تسريح واسعة في صفوف قواته باسم تخفيض النفقات. قام أولاً بتسريح رئيس تدريب الجيش بحجة أنه يستبدل الشباب بكبار السن ومع ذلك فقد عين مكانه شخصاً أكبر منه وبقي له على التقاعد أربع سنوات. ومن الطبيعي أن يكون لتخفيض النفقات أثر آخر وكان على جاهزية الجيش. يقول الكاتب برادلي بيرستون: «رغم أن معظم الوحدات المقاتلة لن يُجْبر أفرادها على الاستقالة إلا أن التدريب وواجبات حماية الحدود والمعدات ومشاريع تطوير الأسلحة كل ذلك سيشعر بالضغط جرَّاء خفض الميزانية».

إن جيش الدفاع الإسرائيلي يفتخر بانعزاله عن السياسة الإسرائيلية ويفضل أن يرسم لنفسه صورة القوات المقاتلة المستقلة التي تمثل جميع التيارات السياسية في البلاد. ولكن وبصورة ما غير موثَّقة في هذه الدراسة نجد أن كبار الضباط تُعرض عليهم مناصب سياسية هامة بعد تقاعدهم. فمدير الأمن السابق ناحوم أتسموني هو مدير شركة المياه الإسرائيلية ميكوروت. وقائد المنطقة الشمالية السابق أوري أور يترأس الآن مصلحة الغابات والأحراج «كيرين كايميت». وكذلك فإن الفريق المتقاعد موشيه بار كوخيا هو المسؤول عن خطوط سكك الحديد الإسرائيلية الخربة.

LAU LIBRARY BEIRUT

إن الربط بين الخدمة الإسرائيلية المخلصة ثم الخدمة في المجال المدني من قبل هؤلاء العسكريين لها دلالة قوية على توريطهم في فضائح الفساد الحكومية، واختلط الدفاع عن هذا البلد المحاصر بالخداع السياسي التي تمارسه الحكومة على شعب غير راضٍ عن ذلك.

لقد عانت إسرائيل منذ عام ١٩٨٤ من فشل تلو فشل واندمجت الأمور الأمنية الحيوية مع المكاسب السياسية المكتسبة بطرق غير مشروعة باسم الدفاع عن الدولة.

LAU LIBRARY
BEIRUT

الفصل الثامن

عقدة الشعور بعدم الأمان ـ انظروا إلى الفوضى التي أوقعتهم البلاد فيها

اتخذت إسرائيل في الماضي قرارات أمنية خاطئة في معاركها من أجل البقاء ولكن القليل القليل من هذه القرارات حتى عام ١٩٨٠ تحول إلى فضيحة شعبية عارمة. وكان من ضمنها قضية لافون عندما حاول اليهود نسف مكاتب أمريكية في القاهرة وقد قضت هذه الفضيحة على حياة بن غوريون المهنية. وبعد حرب يوم الغفران أدى الغضب الشعبي المتزايد من عدم استعدادية الجيش إلى تقديم غولدا مئير استقالتها من منصبها كرئيسة للوزراء. ورغم قلة هذه الفضائح وتباعدها إلا أنها كانت تستأصل الرأس. أما في عقد الثمانينات فقد تميزت تلك الفضائح بالكثرة وبرفض قادة الدولة تحمل مسؤولية سوء أدائهم لواجبهم.

سنقدم تالياً ملخصاً لأهم القضايا التي إن دلت فإنها تدل على أنماط مزعجة من عدم الكفاءة والطمع أديا إلى تدمير علاقة إسرائيل بأمريكا(*) وتحطيم ثقة الإسرائيليين بقدرة أجهزتهم الأمنية وبكبار قادتهم العسكريين.

(*) عند كتابة هذا الفصل كان أحد موظفي البنتاغون قد اتهم بأخذ رشوة مقدارها (٢) مليون دولار من ضباط إسرائيليين يحاولون بيع طائرة استطلاع بدون طيار تسمى مازلات.

● لا تثق بإسرائيلي: محاكمات جوناثان جاي بولارد:

بولارد هو صهيوني أمريكي كان يعمل في وحدة مكافحة الإرهاب في مخابرات البحرية الأمريكية وكان بحكم موقعه ذاك مطّلعاً على وثائق في غاية الحساسية. وفي السنة الأولى من عمله أصبح ساخطاً ناقماً ـ بسبب تجميد اتفاقيات استخبارية كانت إسرائيل قد وعدت بها والسبب في اعتقاده هو اللاسامية الموجودة في الدوائر الأمنية الأمريكية.

إن ذلك السخط الذي ملأ قلبه في بداية الأمر كان محور دفاع بولارد عن نفسه، وعندما دُقق في الأمر بدون تحيز وُجد تبريره لقرار تمرير معلومات إلى إسرائيل منطقياً. وكانت هذه المعلومات قد حجبت عن إسرائيل نتيجة سوء فهم بين الأمريكان والأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية. كانت إسرائيل قد وفت بالتزامها في الصفقة وزودت أمريكا بمعلومات قيمتها (٥٠) بليون دولار حتى أنها شحنت لأمريكا عن طريق البحر طائرة ميغ ٢١ بحالة ممتازة ودبابة ت ـ ٧٢ وهي أحدث قطعة في سلاح الدروع السوفييتي.

أما الذي قام بتجنيد بولارد فكان أفييم سيلا الذي قُدِّم إلى بولارد في أثناء تواجده في نيويورك، وكان القسم الاستخباري الذي جند بولارد فيه ليس له علاقة بنوع المهمة التي كان على بولارد الاضطلاع بها وهو مكتب الارتباط العلمي الذي يقتصر عمله على البحث في المجالات العلمية عن أي إشارة لتقدم علمي في مجال الذرة وتكنولوجيا الحرب المتفوقة.

كان سيلا عقيداً نشيطاً في سلاح الجو وكان وجوده في أمريكا بهدف دراسة الكمبيوتر وليس في مهمة تجسسية في مثل ذلك المستوى. ولسبب ما قام بتجنيد بولارد وكان ذلك القرار الذي أوقع سلاح الجو في تلك القصة المجللة بالشنار التي نتجت فيما بعد.

• عزا سيلا تجنيده لبولارد إلى رافي إيتان (غير وزير الزراعة) الذي كان مستشار رئيس الوزراء بيغن لشؤون الإرهاب، ومنذ تلك اللحظة وصاعداً وقع بولارد في شبكة واسعة من الأحقاد كانت تكتنف أعلى مستويات المخابرات الإسرائيلية. كان إيتان المولود في أحد الكيبوتسات ينظر لنفسه على أنه جندي في البالماخ شارك في حرب الاستقلال. بعد ذلك

حاول لفت نظر قائد الموساد ليتجند على إثر ذلك في الجهاز. وفيما بعد لعب إيتان دوراً رئيسياً في خطف إيخمان وفي كشف أول جاسوس سوفياتي مهم في الحكومة الإسرائيلية وهو إسرائيل بير.

عندما شعر إيتان أن موهبته لم تقدَّر حق قدرها استقال من الموساد في أواخر الستينات من أجل الدراسة وممارسة الأعمال الحرة ولكنه عاد للعمل الاستخباري بعد فشله المرير في مجال الأعمال الحرة. وترقى عام ١٩٧٧ إلى منصب مستشار رئيس الوزراء لشؤون الإرهاب وهو المنصب الذي شغله فيما بعد عميرام نير وكان له دور في إيقاع الضرر برونالد ريغان.

بدأ إيتان يشعر أنه قد آن الأوان ليصبح رئيساً للموساد وهي الوظيفة التي كان يشتهيها منذ سنوات. ولكن الرياح أتت بما لا تشتهي سفنه. وقبل تجنيد بولارد كان إيتان قد تسلق سلالم البيروقراطية ليصبح رئيساً لمكتب الارتباط العلمي. وعندما أدرك قيمة بولارد وموقعه المتنفذ أراد الاستئثار به، وبدلاً من أن ينقل ملفه إلى فرع أكثر تناسباً مع طبيعة مهمته فقد تجاوز القنوات الصحيحة ليبدأ بتوصيل المعلومات التي ترده من بولارد مباشرةً إلى وزارة الدفاع. كان هدفه من ذلك أن يعزى إليه الفضل في تلك المهمة الاستخبارية الرائعة فلربما دفعته نحو كرسي رئيس الموساد. كانت وثائق بولارد بروعة الوثائق التي يقدمها جاسوس قضى حياته في خدمة إسرائيل. وقد وصفه وولف بليتزر الذي ألَّف كتاباً عنه بأنه: «خلدٌ سوبر» [الخُلد حيوان يحفر جحره تحت الأرض: م]. ولن يكشف أبداً عن مقدار ما سرّبه بولارد من معلومات إلا عن طريق بولارد نفسه، ولكن مصادر موثوقة أفادت بأن من ضمن تلك المعلومات تفاصيل عن قوة دروع العراق وعن الأسلحة غير التقليدية التي يمتلكها وعن مواقع منظمة التحرير في تونس بكل دقة بما فيها منزل عرفات.

وكانت المعلومات الأخيرة مفيدة في مكافحة الإرهاب، فبعد أن قتلت منظمة التحرير ثلاثة إسرائيليين في قبرص ردت إسرائيل بهجمات جوية فاعلة على مواقع المنظمة في تونس، وبذلك وصلت الرسالة إلى منظمة التحرير وانخفض عدد هجماتها بشكل ملموس منذ عام ١٩٨٥. ولكن الإرهاب داخل إسرائيل استمر. بعد أن قُتل ثلاثة إسرائيليين في

LAU LIBRARY
BEIRUT

حافلة بالنقب وبعد كشف المخابرات لمحاولة اغتيال رابين، نزل جنود إسرائيليون على شاطىء تونس وقتلوا مساعد القائد العام لمنظمة التحرير ـ أبا جهاد الذي خطط للهجومين، كان حادثا الهجوم على تونس وقتل أبي جهاد ضربتين قاصمتين للإرهاب نتج عنهما إنقاذ أرواح كثيرة كانت ستزهق والفضل يعود لبولارد. ولكن الشكر لم يكن قريباً، فقد وصل تحذير إلى بولارد بأن التحقيقات الفيدرالية كانت تلاحقه فالتجأ إلى السفارة الإسرائيلية في واشنطن وطلب الحماية. كان بولارد قد وُعد من قبل ضابط الاتصال معه بأنه سيمنح الحماية في حالة اكتشافه وقُدّم له عام ١٩٨٥ جواز سفر إسرائيلي باسم داني كوهين كدلالة على نوع الحماية التي تقدم إلى جاسوس رفيع المستوى. وعلى أية حال عندما آن الأوان للحقيقة أن تظهر طرد بولارد من السفارة إلى أيدي رجال التحقيقات الفيدرالية المنتظرين في الشارع خارج السفارة.

وبدأ التعتيم الإسرائيلي منذ تلك اللحظة بكل جدية: أنكر وزير الخارجية آنذاك شامير أي معرفه ببولارد ـ وكذلك، فعل رئيس الموساد الذي كان وبلا أدنى شك يقول الحقيقة فمنافسة إيتان الشخصية للموساد جعلته يحرمهم من المعلومات التي كان بولارد يزودهم بها.

ووصل ملف بولارد إلى مكتبي رابين وزير الدفاع، وبيريز رئيس الوزراء، ولو افترضنا أن الرجلين لم يكونا على علم بنشاطات بولارد فكيف وافقا على قيام سلاح الجو بهجمات على مواقع المنظمة في تونس والتي توفر لها معلومات دقيقة أدت إلى نجاح باهر والفضل يعود لبولارد. ولو لم يكونا على علم ببولارد نفسه فلا بد أنهما كانا على علم بأن شخصاً ما كان يسرِّب معلومات استخبارية أمريكية من الصنف الأول. إذا كانت القيادة الإسرائيلية تعتقد أن الإنكار سيدفن قضية بولارد فقد أخطأوا في تقدير مقدار الغضب الأمريكي، أو بشكل خاص، غضب وزير الدفاع الأمريكي آنذاك كاسبر واينبرغ الذي أقلقته في الواقع حقيقتان عندما واجه قضية بولارد: الأولى أنه كان ربع يهودي واسمه الأخير هو اسم جده اليهودي وكان يكره بكل صراحة قدره ذاك ويكره الخداع أيضاً. والحقيقة الثانية هي أنه كان وزيراً للدفاع عندما برزت قضية جاسوس عائلة ووكر المتعلقة ببيع

شيفرات الأسطول الأمريكي واتصالاته إلى السوفييت. كانت قضية بولارد ألطف من سابقتها حيث تسربت المعلومات هذه المرة إلى حليف يستغلها لمصلحة مشتركة. وكانت قضية بولارد هي التي ستحوِّل اتجاه الغضب الشعبي عن قضية عائلة ووكر.

كان بإمكان إسرائيل فيما مضى أن تتوقع إحاطة قضية مثل قضية بولارد بالكتمان والسرية، ولكن الذي حدث في أعقاب قضية بولارد زاد الطين بلة، فقد كشف النقاب عن جاسوس أمريكي متوغل في أعلى الرتب في جيش الدفاع الإسرائيلي وكان يرسل معلومات في غاية الحساسية تتعلق بحرب لبنان إلى أمريكا. (التقارير متضاربة حول مصير هذا الجاسوس. البعض يقول إنه أعيد بكل هدوء إلى الولايات المتحدة وآخرون يقولون إنه محتجز في سجن إسرائيلي بانتظار تبديله ببولارد). كذلك فقد ذكرت تقارير صحفية أخرى أن المخابرات الأمريكية زرعت جواسيس في برنامج تدريب إسرائيلي يسمى غادنا “Gadna” وهو مخصص لتدريب شبان يهود في سن المراهقة الكثير منهم أمريكيون. وقد ألقي القبض أيضاً على جاسوس مصري في أمريكا يسرب معلومات إلى القاهرة وأعيد إلى وطنه بكل هدوء. نستطيع أن نقول بأنه لولا واينبرغ لظلت قضية بولارد طي الكتمان وبدون أن يتضرر قادة إسرائيل.

عندما أدركت إسرائيل الإلحاح الأمريكي على إحراجها قررت اعتماد خط التضليل والتغطية؛ في البداية غادر الملحق العلمي الإسرائيلي ومساعده واشنطن إلى إسرائيل، وتالياً قام وفد مكوَّن من ثلاثة أشخاص هم رئيس الأجهزة الأمنية ووكيل وزارة الخارجية وأحد المدنيين، قام بزيارة واشنطن من أجل «إطفاء النار التي أشعلتها قضية بولارد».

طالب الأمريكيون بحق استجواب ملحقين علميين بالإضافة إلى رئيسهما إيتان. ووافق الإسرائيليون بشرط أن لا يواجهها الادعاء بتهمة. لم يكن الأمريكان قد علموا حتى ذلك الوقت بالذي جند بولارد لذا قررت إسرائيل عدم تذكير الأمريكان به، وعندما اعترف بولارد بعد ذلك بمن جنَّده واجهه الادعاء الأمريكي بالتهمة (حيث إنه لم يكن محصناً ضد الادعاء) وكانت هذه هي النتيجة الطبيعية للخداع الذي قام به الوفد الذي رضخ للأمر الواقع.

LAU LIBRARY BEIRUT

كان على بيريز أن يصادق على ما توصل إليه الوفد من اتفاق ووافق أخيراً على حل مكتب الارتباط العلمي وإعادة المعلومات التي أرسلها بولارد ومعاقبة المذنبين. كان ذلك الأمر بالنسبة لبيريز كمن يجلد نفسه. وبالإضافة إلى ذلك وجّه بيريز مجلس الوزراء لإصدار اعتذار علنيّ هذا نصه:

«إن حكومة إسرائيل مصممة على بذل جميع الجهود للخروج بتحقيقات شاملة مفصلة.. إن حكومة إسرائيل تعد حكومة الولايات المتحدة الأمريكية أنه في حالة إثبات التهم فإن المسؤولون سيتحملون النتائج بالتأكيد.

إن علاقاتنا مع الولايات المتحدة مبنية على أسس عميقة من الصداقة والصلات الوثيقة والثقة المتبادلة. إن التجسس على الولايات المتحدة مناقض لسياسة حكومتنا. إن مثل هذه الأحداث، إن وقعت بالتأكيد، هي أفعال أُسيء توجيهها وإن حكومة إسرائيل تعتذر».

ليس لهذا الكلام الفارغ المنافق الهادف للتحرر من الذنب أي مكان في العلاقات الدبلوماسية بين الحلفاء. لم يكن هناك أي تحقيقات قد جرت في وقت صدور الاعتذار. وفي الحقيقة إن التحقيقين اللذين كان لهما أثر في كشف ملابسات الأمور في النهاية، هما نتيجة للغضب الشعبي وكان ذلك بعد إدانة بولارد عام ١٩٨٧. كشف التحقيقان أن التجسس على أمريكا لم يكن مناقضاً لسياسة إسرائيل برغم ذلك الكلام الزائف عن الصلات الوثيقة والثقة المتبادلة الذي لم يخدع أحداً في أمريكا - إذا استثنينا وصف توماس بيكرنغ السفير الأمريكي في تل أبيب للاعتذار بأنه «ممتاز».

كان بولارد قد تلقى وعداً بحكم مخفف إذا كشف عن كل ما يعرف ولكن واينبرغر كان له وجهة نظر أخرى فقد أصر على العقوبة القصوى وهي أن يسجن مدى الحياة «لا يرى ضوء النهار»، وهو الشيء الذي لم يره لغاية الآن منذ أن بدأ تنفيذ عقوبته.

أما في إسرائيل فإن الظلم في الحكم كان واضحاً وبدأ بولارد يأخذ صورة القربان في عقول الإسرائيليين، لقد أدى التحقيقان إلى نتيجة مفادها أن بولارد كان قد وقع في شرك مؤامرة بدأها إيتان وسيلا. وتوصلت لجنة ثانية برئاسة أبا إيبان - من حزب العمل إلى قرار

مهم وهو أن على رابين كوزير للدفاع أن يحمل جزءاً من المسؤولية ولكن اللوم الأكبر يقع على بيريز الذي كان عليه أن يستنتج أن هناك حالة تجسس على الولايات المتحدة، ولكنه سمح للأمور أن تظل كما هي وما أن فضح الأمر حتى تنصل منه.

أمضى بيريز أسبوعاً كاملاً وهو يصف تقرير إيبان بأنه كذب وما أن التقط أنفاسه حتى كان إيبان خارج قائمة الحزب الانتخابية.

بعد أن انتهت حياته العملية، أصبح إيبان هو الخاسر الأكبر والضحية الكبرى في قضية بولارد، أكثر من الجاسوس نفسه.

أما المسببان الحقيقيان لتلك القضية وهما إيتان وسيلا فقد قطفا لنفسيهما ثماراً طيبة. ومكافأة على خدمته للشعب ولفمه المغلق عين إيتان رئيساً للمجمع الصناعي الكيماوي الإسرائيلي لخبرته الإدارية التي حققها في تجربته الفاشلة في الأعمال الحرة في الستينات!

أما سيلا فقد رقي إلى رتبة عميد من قبل رابين نفسه، وسُلّم قيادة أكبر قاعدة جوية في البلاد، تل نوف. وما كان من الحكومة الأمريكية إلا أن احتجّت بأعلى صوتها على ذلك التعيين، وأعطته التسمية الصريحة وهو أنه كان مكافأة على الإخلاص والسكوت. وكانت ردة فعل رابين تنزيل رتبة سيلا ولكن بدون إزاحته من منصبه الجديد.

لم يكن الشعب الإسرائيلي مستمتعاً بتلك اللعبة فقد ضللهم قادتهم مرةً أخرى بتكريمهم للموظفين الذين يعرفون الكثير. وقد عبرت الصحافة عن هذا الإشمئزاز، ففي مقال كتبه يوسف هاريف لجريدة معاريف قال: «في الوقت الذي يجب على الحكومة فيه أن تبحث عن أي نار مشتعلة لتطفئها نجدها تفقد السيطرة على الأمور وتترك هذه النيران تدمر علاقة إسرائيل باليهود الأمريكان وبالإعلام والكونغرس الأمريكيين».

لم يكن لحادثة بولارد يدٌ في تقسيم يهود إسرائيل ويهود أمريكا إلى فريقين متخاصمين. إن اليهود الأمريكان يرتعبون من تهمة الولاء المزدوج ولم تجرؤ أية مؤسسة يهودية في أمريكا أن تتخذ الموقف الصحيح القاضي بأن الحكم الذي ناله بولارد كان

LAU LIBRARY
BEIRUT

قاسياً. ولم تجرؤ أية شخصية يهودية هناك على الاعتراف بالغضب من ذلك الحكم. في الحقيقة أنهم جميعاً يخافون من العودة إلى اللاسامية.

كان الإسرائيليون ساخطين على تصرفات حكومتهم وكانوا ساخطين بنفس الدرجة على عدم اتخاذ يهود أمريكا لموقف محمود. وبدأ يهود إسرائيليون يرون في اليهود الأمريكان مجموعة يهود الشتات الجبناء غير الآمنين في المجتمع الأمريكي. وبدأ كتّاب الصحف حملة توبيخ واصفين اليهود الأمريكيين بأنهم «جبناء في جبهة المعركة ومغرورون متفاخرون بشجاعتهم في حفلات الكوكتيل التي يقيمونها». هذا بالإضافة إلى الصورة المرسومة عنهم في الصحافة المليئة بالغيظ والاستياء من ثروة اليهود في أمريكا وماديتهم.

وبدأ الرد الأمريكي المنطقي جداً على إسرائيل بوضعهم في ذلك الموقف الحرج. كان اليهود في أمريكا مرتعبين للطريقة التي تخلت فيها الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية والسفارة الإسرائيلية ومجلس الوزراء الإسرائيلي عن بولارد. وكتب الحاخام إيلي روزنوايغ من ساوث بند في ولاية إنديانا في جريدة جيروزالم بوست «لقد قامت إسرائيل بإطلاق سراح آلاف الإرهابيين مقابل بضعة جنود ولكنها ليست مستعدة لتفعل شيئاً لبولارد وهو جندي يقاتل من أجل إسرائيل».

حقا إن إسرائيل لم تفعل شيئاً إلا إذا استثنينا ما فعلته عضوتا الكنيست غيئولا كوهين وإدنا سولودار. لقد تقدمت هاتان النائبتان من الصفوف الخلفية وباشرتا بحملة لإطلاق سراح بولارد وذلك عام ١٩٨٧. ولقد حصلتا على دعم مئات آلالاف من اليهود الذين وقّعوا على التماس لتحرير بولارد.

وكان لرد الفعل الشعبي الإسرائيلي أثره في النهاية على اليهود الأمريكان، فمع قدوم عام ١٩٩١ وجدت المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة بما فيها المجلس الأمريكي اليهود صاحب النفوذ ـ وجدت في نفسها الشجاعة الكافية لإعلان رأيها وبدء الحوار من أجل إطلاق سراح بولارد. لقد أدركت هذه المؤسسات في النهاية أن القيادات العاجزة التي تسيّر الأمور في إسرائيل ليست هي شعب إسرائيل وأن بولارد هو ضحية الحكومة تماماً مثل شعب إسرائيل نفسه.

• فضيحة إيران ـ كونترا، والإسرائيليون في أمريكا اللاتينية:

خلال الانتخابات الوطنية في كولومبيا عام ١٩٨٩ اغتيل أحد مرشحي الرئاسة البارزين، وكان معارضاً قوياً لاتحادات المخدرات. واكتشف أن القاتل كان قد تدرب على يد مدرب إسرائيلي وكان لديه أسلحة إسرائيلية. وكان هذا المدرب هو يائير كلاين العقيد في قوات الاحتياط الإسرائيلية وقد فرّ من كولومبيا تاركاً وراءه عدداً من رجاله الذين تم تهريبهم من البلاد بصورة سرية بعده بفترة قصيرة. ولدى عودته إلى إسرائيل أصبح كلاين محط اهتمام الصحافة. وكان التساؤل: من الذي استأجره ليدرب القاتل، والأكثر أهمية، هل كان هذا الإسرائيلي يدرب رجال اتحادات المخدرات الآخرين على تكتيكات كوماندوز متقدمة؟

أصر كلاين على ادعائه بأن الذين وظفوه هم مزارعون ينتمون إلى اتحاد مربي الأبقار وكذلك أعضاء اتحاد المزارعين الذين أرادوا أن يحموا أنفسهم من هجمات مرتزقة اتحادات الكوكايين. ومع نبذ هذه القصة إلا إن أحداً في إسرائيل لم يصدقها، وبعد التحقيق معه من قبل الشرطة أُتهم بعدد من الهجمات المسلحة، وكانت أخطر تهمة هي تصدير معدات قتال ليلي إسرائيلية، وأحزمة ذخيرة وأجهزة تحديد مواقع طائرات وكان ذلك خرقاً لقانون يمنع تصدير هذه الأسلحة الإسرائيلية بدون ترخيص.

وأخيراً تم توجيه تهمة التصدير غير المشروع لأسلحة إسرائيلية لكلاين وللمقدم إسحق شوشاني(*). وكانت النقطة الرئيسية التي اعتمد عليها كلاين في دفاعه هي أن الجرائم المزعومة وقعت في كولومبيا وهولندا لا يقع تحت السلطة القضائية الإسرائيلية ولكن المحكمة أدانته. وظل السؤال الذي ينتظر الإجابة: كيف استطاع كلاين أن يحصل على الأسلحة في الأساس، ومن الذي وافق على بيع أسلحة متطورة إلى جندي مرتزق ذي علاقات متعددة في الجيش؟

(*) كان شوشاني أحد المتهمين بتقديم رشوة لموظف البنتاغون من أجل تسويق طائرة مازلات.

LAU LIBRARY BEIRUT

لم تكن كولومبيا المرتع الوحيد لمواهب كلاين فقد اتهم أيضاً بتهريب الأسلحة عبر جزيرة أنتيغوا في البحر الكاريبي وبإقامة قاعدة تدريب هناك. وطلب كلاين بخصوص هذه التهمة أن توجه له التهمة بدون محاكمة أخرى وذلك لتجنب كشف تفاصيل هذه الصفقة. وبذلك نجا مزودوه بالأسلحة من الإحراج. لقد كان كلاين ذئباً وحيداً يبيع معرفة جيش الدفاع الإسرائيلي لمصلحته الخاصة.

لقد ظلت إسرائيل ولعقود تزود أنظمة أمريكا الجنوبية بالتدريب العسكري وبالمعدات الحربية مقابل الدعم التجاري والدبلوماسي. وبحلول عام ١٩٨٦ اتسعت هذه اللعبة البسيطة والقاتلة في نفس الوقت لتشمل مليشيات متدربة على يد المخابرات المركزية الأمريكية "CIA"، ورهائن في مناطق بعيدة ومخدرات في فضيحة كادت أن تنهي حكم ريغان وهي فضيحة إيران ـ كونترا.

في عام ١٩٨٥ عندما كان شمعون بيريز رئيساً للوزراء قام ثلاثة إسرائيليين باتصالات على مستوى عالٍ في إيران نيابةً عن الولايات المتحدة. كان الهدف من هذه الاتصالات ترتيب الإفراج عن الرهائن المحتجزين من قبل المليشيات الشيعية الموالية لإيران في لبنان وذلك مقابل بيع أسلحة أمريكية لهم من خلال إسرائيل. كان هؤلاء الثلاثة هم: ياكوف نيمرودي وهو ملحق عسكري إسرائيلي سابق في طهران، وأل شويمر الأمريكي المولد، مؤسس شركة صناعات الطيران الإسرائيلية، وديفيد كمحي وكيل وزارة الخارجية الإسرائيلية. ومن الطبيعي أن ينكر بيريز تشكيل هذا الثالوث الموهوب.

وفي السنة التالية، وبعد أن نسق الوسيط الإسرائيلي بين البائع والمشتري، استُبعد الرجال الثلاثة من الصفقة لعدم وجود ضرورة لهم في تلك المرحلة. وربّما أن هؤلاء الثلاثة قد نالوا من حمص المولد ما يكفيهم لأنه في ربيع عام ١٩٩١ أجرت الشرطة تحقيقاً مع نيمرودي وشويمر في محاولة للبحث عن ٢ مليون دولار مفقودة في الصفقة، واستبدل بهم بيريز مستشاره لشؤون الإرهاب عميرام نير(*).

(*) تقول آخر تقارير التحقيقات إن تاريخ تلك الصفقة يعود إلى ١٩٨٠ وإن عام ١٩٨٥ هو عام الاتفاق الرسمي.

وما أن تولى نير زمام الأمور حتى دفع بعجلة المسألة إلى مرحلة فقدان السيطرة. فلم تعد تلك الصفقة أسلحة مقابل رهائن بل إن النقود الإيرانية كانت ستوجه لدعم ثوار الكونترا واحد هو بنيامين واير مقابل ٥٠٠ صاروخ تو (Tow) المضادة للدبابات. وأعيدت شحنة أخرى من صواريخ هوك من قبل الإيرانيين لعدم تطابقها مع قاذفاتهم ـ ولأن الأحرف العبرية لم تُمْحَ وهو شيء خطير بالنسبة لضباط الدفاع الجوي الإيراني الذين يغضبون ذلك الغضب الزائف إذا أدركوا بأن حكومتهم تقبل أسلحة من اليهود الشياطين. شحنةٌ أخرى توقفت في خليج إيلات لأن هؤلاء الفرس الماكرين، مع تحرقهم لإبادة العراقيين ـ لم يعجبهم السعر.

يجب أن نؤكد مرةً أخرى على أن تلك الصفقة كانت عملية إسرائيلية رسمية وإلا لما كانت إسرائيل ترسل الطائرات من مطاراتها إلى طهران، ولما كانت قدمت ميناءها الجنوبي الوحيد إلى أمثال منسقي عملية بولارد ـ ولو احتجنا إلى المزيد من الأدلة على رسمية تلك الصفقة فهناك رسالة أرسلت من البيت الأبيض ـ من ريغان إلى بيريز بتاريخ ٣ تشرين الأول من عام ١٩٨٦. وقد كتب الرئيس فيها «أريد أن أبلغك امتناني الشخصي وامتنان شعب الولايات المتحدة للجهود غير العادية التي تبذلونها عن طريق مندوبنا المشترك السيد عميرام نير، وكما تعلمون فإنه يقوم بخدمة على قدر كبير من الأهمية لشعبينا ولوطنينا». وإذا لم يتول أحدٌ ما مغبة تزوير هذه الرسالة فإن بيريز كان على علم وثيق بما كان نير يفعله. ولو كان ريغان يعرف بيريز كما يعرفه الشعب الإسرائيلي فإن امتنانه سيكون مختلطاً بخوف عظيم.

لو كان ريغان يعرف نير كما كانت الموساد تعرفه لقُرعت كل أجراس الخطر قبل أن يوقع تلك الرسالة اللعينة. ومع أن نير ارتقى إلى رتبة مقدم وكان قائداً للواء مدرع إلا أن الموساد كان خائفاً من تعيينه في منصبه السياسي كمستشار لبيريز وذلك لما اشتهر عنه من الثرثرة والتبجح. لقد دفعه ميله لتعظيم نفسه وتعزيز أهميته إلى الادعاء بأنه كان قد كتب المعاهدة السرية المتعلقة بالنقود الإيرانية الموجهة لتغطية عمليات سرية والتي وقعها فيما بعد ريغان وبيريز.

LAU LIBRARY BEIRUT

كان الشخص الوحيد الذي أخذ حذره من زلات لسان نير هو جورج بوش، ففي ٢٩ تموز ١٩٨٦ التقى نائب الرئيس الأمريكي مع نير في فندق الملك داود في القدس وهناك استمع لإيجاز من نير حول التقدم الذي أحرزته العملية. وتقول مذكرة كاملة وردت في تقرير لجنة تاور التي حققت في فضيحة إيران ـ كونترا، تقول بأن نير اعترف لبوش بأنهم لم يعودوا يتعاملون مع المعتدلين الإيرانيين «بل مع أشدهم تطرفاً».

حاولت إدارة ريغان إلغاء هذه المعلومة من التقرير، وذلك لأن إحدى المرتكزات في تبرير العملية كانت محاولة إقامة علاقات مع المعتدلين الإيرانيين من أجل تحقيق هدف بعيد وهو تخفيف حدة حدة عداء النظام لأمريكا. ولو ثبت أن بوش كان قد بُلغ بأنهم يتعاملون مع مختطفي موظفي السفارة الأمريكية بنية دعمهم في حربهم ضد العراق، فإنّ الدافع الأخلاقي من هذه العملية يكون قد ضاع، وكان على بوش أن يهدم العملية من أساسها.

لم ينكر بوش أنه التقى بنير مضيفاً كلاماً مهلهلاً قائلاً إنه «لا يتذكر الكثير من ذلك الإيجاز» وإنه «لم يستوعب ما قاله نير بالضبط في ذلك الوقت».

كتب يوسي ميلمان ودان رافيف في كتابهم «الجواسيس غير الكاملين ـ تاريخ المخابرات الإسرائيلية»، قالا: «إن الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه تدمير بوش سياسياً قد مات في تحطم طائرة بعد ثلاثة أسابيع من انتخابه».

عندما تحولت إيران غيت إلى فضيحة كبرى أصبح نير هو الضحية.. فقد شهد على شريكه الأمريكي في المؤامرة العقيد أوليفر نورث بأنه أول من اقترح الحصول على صفقة رابحة جداً من الإيرانيين مقابل صواريخ تو وتحويل النقود الزائدة عن الثمن الحقيقي إلى ثوار الكونترا. ودعم الأميرال بويندكستر المزاعم القائلة بأن نير هو الذي بدأ العملية بأسرها. وادعى نورث أيضاً بأن نير فتح حساباً في بنك سويسري استُخدم لصب النقود في جيوب الكونترا.

ولم تتوقف الاتهامات حتى على أعلى المستويات، فقد أعلن المدعي العام الأمريكي

LAU LIBRARY
BEIRUT

أدوين ميس أن «مندوبي إسرائيل» مسؤولون عن بيع أسلحة أمريكية إلى إيران، وحوّلوا الأرباح إلى ثوار الكونترا. أما الفريق ريتشارد سيكورد الذي قام بتنظيم شبكة دعم الكونترا فقد شهد أمام لجنة الكونغرس التي كانت تحقق في القضية أنه يعرف إسرائيليين أودعوا مبلغ ٨٠٠,٠٠٠ دولار في الحساب البنكي السويسري الذي كان حبل النجاة بالنسبة للكونترا.

وبالرغم من كل تلك الاتهامات التي كان هدفها تبرئة النفس وإدارة النار على قرص الآخرين، فإن التساؤل يظل: لماذا يكون نير أو إسرائيل مهتمين بالكونترا إلى ذلك الحد. من المنطق أن يكون دعم تلك الصفقة متناسباً مع أيديولوجية الأمريكان، وقد طالبت اللجنة البرلمانية بأن يقدم الإسرائيليون كشفاً كاملاً للحقائق. لكن بيريز، وكما فعل في قضية بولارد، وعد بتقرير صريح صادق.. لم يكن شيئاً تقريباً. أراد نير أن يشهد في أمريكا لكي يبرىء ساحته ولكن بيريز صادر كل ملاحظاته وأوراقه ومنعه وكل الأشخاص الرئيسيين في المؤامرة من الشهادة أمام لجنة تاور، وأصدر بدلاً من ذلك تقريراً سطحياً يذكر التسلسل التاريخي للتورط في تلك القضية. وهكذا ورّط بيريز إسرائيل مرةً أخرى في فضيحة أمريكية كان هو أحد أبطالها فلطخ اسم إسرائيل النظيف في الوحل، وغطى بشكل مفضوح على تورطه الحقيقي فيها.

ولم يقتنع أحد بالتفسير الإسرائيلي وبدأت التقارير المشيرة إلى تورط نير العميق بالتسرب. وفي آذار ١٩٨٩ قال تاجر أسلحة ألماني لصحيفة ميدل إيست إنسايدر أن نير «قُتل لأنه كان يعرف الكثير». وادعى بائع الأسلحة هذا بأن نير لم يكن فقط يعرف أسرار قضية إيران ـ كونترا، بل كان مطلعاً على علاقات بوش بنورييغا وقضايا المخدرات المتعلقة به. وادعى أيضاً بأن نير كان يحتفظ بسجلات لملايين الدولارات التي ذهبت إلى الكونترا.

وقبل موت نير كتب مايكل ليدين في كتابه [الإدارة الخطيرة للدولة]: «من أهم الأشخاص في قضية إيران ـ كونترا رجل ظل صامتاً. ولو بقي لغاية الآن شخص يمكن أن يضيف شيئاً جديداً إلى ما عرفناه عن هذه القضية فالأرجح أنه عميرام نير».

كان هناك تاجر أسلحة إيراني يسعى لمنع تسليمه إلى دولته في لندن، قام جافيد

تاغدي ـ وذلك هو اسمه ـ بمساومة الشرطة البريطانية لكي يحصل على تأشيرة دخول مقابل إعطائه معلومات حول «موت عميرام نير في المكسيك».

ونشر بوب وُدوورد من صحيفة واشنطن بوست سرداً كاملاً للقائه مع نير في لندن والذي استمر ١٣ ساعة متواصلة. ادعى نير بأن «نصف حقائق قضية إيران كونترا فقط أعلنت للناس» وأن «نصف قصة صفقة الأسلحة مع الإيرانيين قد ظهرت». وفي تلك المقابلة أعلن نير ادعاءه المدمر بأنه خطط للاتفاقية التي وقعها كل من بيريز وريغان والتي أجازت صفقة الأسلحة ثم الأرباح المتوجهة إلى الكونترا.

إنه استنتاج منطقي أن نقول إن موت نير كان مفيداً لقادة وقادة سابقين في كل من أمريكا وإسرائيل وأمريكا الوسطى وإن كان يجب على نير أن يختبىء، ولكن الأحداث التي أدت إلى موته كانت أشد غرابة من الأحداث التي سبقتها.

ليس هناك أي دليل ملموس عما كان نير ينوي القيام به بالضبط، ولكن هناك أقوال غامضة بأن إسرائيليا آخر من المساعدين المقربين لبيريز قد اكتُشف في العالم المظلم لتجارة الأسلحة وتهريب المخدرات في أمريكا اللاتينية.

ترك نير الخدمة في الحكومة بعد عملية التبادل بين بيريز وشامير عام ١٩٨٦ حيث تولى شامير رئاسة الوزراء بدلاً من بيريز. وفي آذار من عام ١٩٨٦ طار نير إلى جنيف ليلتقي بـ غوربا نيفار تاجر الأسلحة الإيراني، وعدنان خاشقجي البليونير السعودي الذي موّل عدة صفقات أسلحة سابقة لإيران، والبرت حكيم شريك الفريق سيكورد في أعماله، وهناك فتح حساباً في بنك الاعتماد السويسري كما فعل نورث وسيكورد وحكيم وغوربا نيفار، ولكن لم يُعرف لغاية الآن إن كانت النقود قد انتقلت من يد إلى يد بعد الاجتماع، ولم يُعرف أيضاً ما الذي ناقشه رفاق السلاح الأربعة هؤلاء. والمعلوم فقط أن نير، بعد الاجتماع بقليل، افتتح مكتباً في لندن. وادعى أحد المصادر بأنه كان وكالة لإحدى المؤسسات الأمنية الإسرائيلية غير المعروفة.

وطار نير إلى نيو مكسيكو من مدريد في ٢٨ تشرين ثاني من عام ١٩٨٨، ثم صعد في

طائرة ثانية إلى مدينة أوروابان في وسط المكسيك وهي مدينة مشهورة بزراعة الأفوكادو وبالمخدرات. ومن التقارير التي لا تدخل العقل أن الأفوكادو هي سبب رحلته و/أو سبب مغادرته للبلد التي يعيش فيها.

وادعى مقال في مجلة نيوزويك في آب ١٩٨٩، وكان بعنوان «الموت، المكيدة والأفوكادو» بأن نير زار شركة تسمى [نوكال دي مكسيكو] التي كانت لتوها قد اشترت محطة لقطف ثمار الأفوكادو في أوروابان. وكان رئيس تلك الشركة هو أفراهام كوهين الذي اعترف بأن نير قابله من أجل مهنته هذه.

ادعى التجار المحليون بأن نوكال كانت في فترة قصيرة قد سيطرت على شحن ثلث أفوكادو المنطقة وأن الشركة كانت واجهة لإسرائيل لكي تسيطر على سوق الأفوكادو العالمي. قد يكون هذا الادعاء منافياً للعقل، ولكن لا بد من ذكر أن أحد أصحاب شركة نوكال هو نسيم غاؤون وهو أحد أغنى يهود أوروبا وأثره على الاقتصاد والسياسة الإسرائيلية من خلال قيادته لاتحاد السفارديم العالمي عميق وواضح. وفي الواقع إنّه من الغريب أن يختار هذا الصناعي الكبير شراء شركة لتجارة الأفوكادو في أرض المكسيك الغنية.

وبما أن اهتمام نير المفاجىء بالفواكة التي تدخل في السلطة شيئاً لا يقنع عاقلاً تبقى هناك احتمالية أن تكون شركته تلك واجهة مُحكمة التدبير. وحسب ما تقوله جريدة نيوزدي فإن مصادر المخابرات الأمريكية كانت تعتقد أن نير كان الوسيط في صفقات أسلحة إسرائيلية قادمة عبر ميناء فيروكروز على الساحل المكسيكي الشرقي. وقد ذكرت الجريدة ما قاله موظفو وكالة مكافحة المخدرات الأمريكية "DEA" من وجود ارتفاع كبير لجهود تهريب الكوكائين من المنطقة وإلى الولايات المتحدة باستخدام القوارب. وقد تزامنت هذه الجهود مع شحنة كبيرة للأسلحة الإسرائيلية عبر ميناء فيروكروز إلى مصادر غير معروفة في مكسيكو سيتي.

إذن أسلحة مقابل مخدرات؟ هذا بالتأكيد يتناسب مع خبرة وخلفية نير وهذا يقطع بنا شوطاً طويلاً مع تفسير مبلغ الـ ٧٠٠,٠٠٠ دولار الذي وجد بحوزة نير بعد تحطم الطائرة

LAU LIBRARY BEIRUT

وذلك طبقاً لـ مجلة هعولام هازيه وذلك في أيار ١٩٨٩ .

وللمصادفة الغريبة نوعاً ما، كان أوليفر نورث يوم تحطم طائرة سيسنا الخفيفة التي كان يستقلها نير ـ كان يحاكم بتهمة التآمر والاحتيال على الحكومة الأمريكية والكذب على الكونغرس. كان من المفروض أن يكون نير شاهداً في تلك المحاكمة ولا أحد يستطيع أن يؤكد إن كان إذعانه للوقوف أمام المحكمة طوعياً. ولكن الشيء الأكيد هو أن أحواله لم تكن تسمح له بالشهادة بعد حادث التحطم!

توصل أحد المقالات الحديثة إلى استنتاج مفاده أن هناك دافعاً واضحاً لإبعاد نير من الطريق. وورد فيه ما يلي: «لقد كان الشخص الوحيد غير الأمريكي بمن فيهم بيريز، ممن كانوا يعرفون كامل قصة النقود التي وصلت من حسابات البنك السويسري إلى رجال الكونترا الثائرين على حكومة نيكاراغوا، هذه النقود التي تولدت عبر صفقة الأسلحة المباعة إلى إيران وربما إلى آخرين غير معروفين ثم أصبحت نقود مخدرات قبل أن يتم تنظيفها في بنوك سويسرا». ومهما كانت الحقيقة فإن أعضاء حزب العمل لم يتخلوا عن زميلهم الضحية، فعندما دفن نير في تل أبيب بمراسم عسكرية ابّنه رابين بتحدثه عن «المهمة ذات الأهداف المجهولة والتحركات السرية وكل تلك الأسرار التي بقيت مختبئةً في قلبه».

قد يظن المرء أن التيارات العليا الإسرائيلية قد حظرت على الأقل منذ منتصف الثمانينات، كل تلك العمليات المربحة في أمريكا اللاتينية والتي ورطّت إسرائيل في جرائم وسوّدت سمعتها. كان مرتزقة من ضباط جيش الدفاع الإسرائيلي الذين ساروا على هدي الحكومة الطامعة في استغلال عوالم الثورات والاغتيالات والمخدرات. وهناك قضية تقع ضمن هذا الإطار ولكنها توجهت وجهاتٍ شريرة جداً.

حوكم أحد الإسرائيليين ويدعي آريه بن ميناشي في محكمة أمريكية في نيويورك بتهمة التآمر الإجرامي بهدف بيع طائرات نقل أمريكية إلى إيران. وكان هذا الشخص قد ألقي القبض عليه في مصيدة نصبها له رجال الجمارك الأمريكيين. فقد سجل صوته وهو يتفق على بيع ثلاث طائرات نقل من نوع سي ـ ١٣٠ إي إلى إيران بمبلغ ٣٦ مليون دولار.

ادعى بن ميناشي بأنه كان يعمل لصالح الحكومة الإسرائيلية التي نفت ذلك بشدة وبرىء من جميع التهم في النهاية ولكن انتشار القصة أضاف الكثير إلى صورة إسرائيل التي بدت تظهر كرجل أمن سيء الخلق.

قضى بن ميناشي سنةً في السجن ينتظر المحاكمة وكان ذلك إجراءً قضائياً وقائياً حصلت عليه دائرة الجمارك الأمريكية. لقد كانوا يشعرون أنهم قد أمسكوا بسمكة كبيرة وأنه في حال صدق ما يقوله للصحفيين والسياسيين، فإنهم يكونون بذلك قد وضعوا يدهم على الرجل الذي سيكشف المستتر في عملية إيران ـ كونترا.

أفاد بن ميناشي عميل الموساد السابق ومستشار شامير لشؤون الإرهاب (نفس منصب عميرام نير أيام بيريز) أفاد بان رئيس الوزراء قد أرسله لبيع أسلحة في صفقات سرية. ويدعي ميناشي بان حجم مبيعات الأسلحة من إسرائيل إلى إيران قد بلغ رقماً لا يصدق وهو ٨٢ بليون دولار وذلك عبر عشر سنوات. واستخدمت الأرباح في استثمارات قذرة بإشراف ثلاثة أشخاص في أمريكا الجنوبية وكان هو أحدهم.

إن قصته هي قصة رجل واحد ويجب أن ينظر إليها بعين الشك حتى تثبت. تقول هذه القصة إن قرار بيع السلاح لإيران يعود إلى بداية الثمانينات وقد وقعه مدير الـ "CIA" ويليام كيسي وجورج بوش ومساعدة دونالد غريغ. وبدأ تورط إسرائيل عندما أقر بيغن تلك الصفقة ووقع على مذكرة بهذا الخصوص سميت «مفاجأة تشرين» بالاشتراك مع الرئيس المنتظر رونالد ريغان.

كان بيغن قد ملأ الموساد بعملاء مخلصين له ولحزب الليكود، وكان الموساد يأخذ توجيهاته من بيغن ثم من شامير.

وعندما أصبح بيريز رئيساً للوزراء واكتشف صفقة الأسلحة الإيرانية وقصة أرباحها قام بطرد ثلاثة أشخاص شاركوا في الإعداد لها واستبدلهم بعميرام نير. لقد أعطى بيريز موافقته الضمنية على الأقل للعملية بأسرها وحاول الاستمرار بنفس الاتجاه مع المخلص الوحيد له الذي أصبح الوسيط.

LAU LIBRARY BEIRUT

كان للمخلصين لحزب الليكود رأي مخالف وبدأوا محاولات التخريب على بيريز منتهزين كل فرصة لذلك. وضرب بن ميناشي مثلاً على ذلك بقصة بارام.

في عام ١٩٨٦ اعتقل ضابط من جيش الدفاع الإسرائيلي يدعى أفراهام بارام مع ١٧ شخصاً آخر في برمودا وهم ينفذون صفقة أسلحة مباعة إلى إيران، وتم نقله إلى نيويورك ثم حوكم.

قصة بارام هذه هدمت صفقة بيريز على أركانها، وكذلك فعلت شحنة صواريخ هوك التي كانت عليها كتابات بالعبرية. إن جيش الدفاع الإسرائيلي وكذلك الموساد بخبرتهم الكبيرة في تجارة الأسلحة هم أدرى الناس بأنّ هذا خطأ فادح فلماذا تجاوزوه.. إلا لغاية في نفس يعقوب!

حسب سيناريو بن ميناشي فإن شامير هو القوة الحقيقية في الموساد وإنه قد نقل صراعه المرير مع بيريز إلى ردهات وممرات الأجهزة السرية، وإنه - أي ميناشي - مثل عميرام نير (ضحية يائسة للتنازع على السلطة بيد الكبار)، نعم أعطي بعض المال ولكن وقع فريسة الاستغلال منذ البداية.

ويقول هذا السيناريو أيضاً إن تاجر الأسلحة الحقيقي هو الفريق المتقاعد سيكورد الذي أصبح رجل أعمال مستقل ومن الخمسة الأبرز الذين اتفقت معهم المخابرات المركزية الأمريكية لتمرير صفقة الأسلحة إلى إيران. كان معروفا أن نير له بعض العمليات الخاصة به ولكنه كان لاعباً صغيراً في تلك الصفقة.

ولو لم تظهر الحقيقة جميعها، فالشيء الواضح هو أن إسرائيل كانت متورطة حتى أذنيها في فضيحة عارمة أوشكت أن تقتلع الحكومة الأمريكية من أركانها، ولكنها نجت بجلدها منها ونجاتها بلا شك جائزتها التي استحقتها لدورها كوكيل يرعى المصالح الأمريكية السرية.

عندما تكون أمريكا ممنوعة من التدخل في الصراعات في البلدان الأخرى فإن

إسرائيل تتولى الأمر بكل رضا. لقد دربت إسرائيل قوات سيرلانكية لقتال التاميل، ودربت ثواراً أكراداً لقتال العراق، وجنوداً تشاديين لمحاربة ليبيا. لقد استفاد ديكتاتورات أفريقيا مثل موبوتو الزائيري ومنغيستو الأثيوبي من الخبرة الإسرائيلية وقدموا بالمقابل علاقات دبلوماسية وتسهيلات للهجرة اليهودية. وبكون إسرائيل وكيلاً للمصالح الأمريكية في العالم الثالث فقد أصبحت لا تقدر بثمن بالنسبة لأصحاب النفوذ في المخابرات المركزية الأمريكية وهذا أحد الأسباب التي لا تقال إذا ما أردنا تفسير الولاء الأمريكي لإسرائيل والذي لا يتزعزع رغم كل الخلافات حول مستقبل السلام في المنطقة.

هناك ثمن بعيد المدى لسياسات إسرائيل، فالفلاحون وأهل القرى في أمريكا اللاتينية بدأوا يربطون ما بين رشاشات العوزي وغاليل مع الاستبداد والديكتاتورية في بلادهم وبدأوا يكرهون إسرائيل لمساندتها تلك الأنظمة الظالمة. لم يكن دور إسرائيل في نيكاراغوا مقتصراً على توصيل النقود التي نشأت عن الصفقة الإيرانية. كان الساندينيون مؤيدين بشكل كبير لمنظمة التحرير الفلسطينية وكانوا يتعاونون معها في أمور التدريب على السلاح. وخوفاً من إنشاء المنظمة لقاعدةٍ لها في أمريكا الوسطى دعمت إسرائيل الكونترا بأساليب كانت ممنوعة من قبل الكونغرس الأمريكي.

لقد هددت قضية إيران - كونترا بنسف الغطاء عن التورط الإسرائيلي في أمريكا الوسطى كاملاً وربما عن مغامرات أخرى في العالم الثالث. مما لا شك فيه أن سبب الفشل هو سوء إدارة بيريز للعملية، ولكن الاحتمال يبقى بأن خيوط بيريز قد سحبت في الاتجاه الخاطىء من قبل رجال في الموساد لم يكونوا يحبون بيريز كرئيس للوزراء.

ومهما تكن الحقيقة فإن فضيحة إيران - كونترا كشفت أن إسرائيل غارقة حتى أذنيها في عمليات خداع عالمية مستخدمةً عسكرييها كأهداف مضللة ليكونوا ضحايا تلك العمليات ويسقطوا بعيداً عن وطنهم وشعبهم الذي ظل يعاني منذ زمن بعيد.

● نُو، نُو. . فعنونو:

في صيف ١٩٨٦ كانت الأجهزة الأمنية الإسرائيلية تعمل تحت ضغط شديد. فالشين

LAU LIBRARY BEIRUT

بيت، أو المخابرات المضادة المدنية السرية، والتي تحافظ على الأمن الداخلي قد نجت بأعجوبة من فضيحة كانت ستقطعها إرباً.

بالمُختصر، سميت هذه الفضيحة قضية الحافلة رقم ٣٠٠ أو قضية الشين بيت. قام أربعة إرهابيين! بالهجوم على حافلة وألقي القبض عليهم ثم قتلوا. ومن سوء حظ الشين بيت أن صورة التقطت لأحد هؤلاء وهو يؤخذ بعيداً ويقتل. وكشفت تحقيقات صحفية أن اثنين من الإرهابيين قد أُخذا بعيداً وحقق معهما ثم ضربا حتى الموت وتمت استثارة أمنون شاحاك رئيس أمان (الاستخبارات العسكرية) في استجواب رسمي يتعلق بالموضوع. أما رئيس الشين بيت أفراهام شالمون والذي كان مسؤولاً عن تأييد مرؤوسيه والتغطية عليهم فقد صفح عنه وعمّن معه.

انفجرت قضية الحافلة ٣٠٠ على عتبة باب بيريز برغم كونها إرثا من الإدارة السابقة ما عدا أمور التغطية والمداراة والمسامحة فهي من أخطاء عهده، وليست الوحيدة بالطبع. ومع حلول صيف ١٩٨٦ كانت فضيحة قضية بولارد قد تم احتواؤها وكانت قضية إيران ـ كونترا على وشك الانفجار في وجهه. وبالرغم من أن هذا الاحتواء والخداع كانا يرهقان بيريز والأجهزة الأمنية إلا أن فضيحةً أخرى، وربما أكبرها، كانت تلوح في الأفق؛ فقد علمت الموساد أن فنياً ذرياً سابقاً يسمى مردخاي فعنونو كان على وشك كشف برنامج القنبلة الذرية الإسرائيلية أمام صحيفة لندنية هي صنداي تايمز.

في تموز ١٩٨٦ كانت الأجهزة الأمنية قد غاصت في صراع داخلي غير مسؤول. وكان على رأس الموساد والشين بيت متنافسون سياسيون حبسوا أنفسهم في معركة من أجل السيادة والنفوذ؛ كان زعيم الشين بيت أفراهام شالمون وهو قريب من بيريز فيما كان على رأس الموساد بيروقراطي منافق هو ناحوم أدموني وهو ممن عينهم شامير. كان شالمون يسعى لمنصب أدموني ذي القيمة والهيبة الأكثر لذا بذل جهداً كبيراً لتدمير نظيره في الموساد ـ ويا ليته بذل ذلك الجهد في الحفاظ على أمن الوطن الداخلي.

ولكن أدموني لم يكن نعمة كبيرة لمعنويات الموساد، بل كان جباناً مثل فأر وخنوعاً خاملاً حيث كان يرفض الكثير من عمليات الموساد المخطط لها بما فيها انقلاباً عسكرياً

LAU LIBRARY BEIRUT

في إيران يبدأ في المطارات السودانية.

وأدت مواقفه هذه في النهاية إلى انهيار نشاط العملاء إلى الحد الأدنى. إن إسرائيل تضع اللوم عليه لأنه سمح لبيريز بالاستمرار في عملية إيران ـ كونترا رغم نصيحة الكثير من أفضل مستشاريه الخبيرين بعكس ذلك، إن هذا الإهمال من جانبه قد ثبت أنه مخطط له منذ البداية.

تضررت الموساد أيضاً من سياسة بيريز وبشكل شديد. ففي تموز ١٩٨٤ عثر رجال الجمارك البريطانيون في مطار ستانستيد خارج لندن على الوزير النيجيري السابق عمر ديكو مخدراً في أحد أقفاص الشحن، وكان إلى جانبه طبيب مُخَدِّر حاملاً بيده إبرة وريدية وكان شاحب الوجه ربما للخوف الذي أصابه من اكتشاف أمره، وفي القفص المجاور وجد ثلاثة رجال بيض آخرون، عرف فيما بعد أنهم عملاء للموساد. وقد حوكم هؤلاء وسجنوا ولكن ذلك لم يخفف من غضب الشعب البريطاني الذي روّعه استخدام إسرائيل للمخدرات والخطف من أجل كسب ود نيجيريا كجزء من برنامج المساعدة الخارجية، ونتيجة لذلك جمدت بريطانيا علاقاتها مع نيجيريا لخرقها القانون البريطاني لكن إسرائيل نجت أيضاً من ذلك العقاب ـ ألا يتمنى المخبر الصحفي أن يكون ذبابةً على حائط مكتب وزير الخارجية تسترق السمع إلى إسرائيل وهي تتوسل من أجل استثنائها من عقوبة نيجيريا الدبلوماسية؟

لم تكن السنوات من ١٩٨٤ ـ ١٩٨٦ سنوات مثمرة لا للموساد ولا للشين بيت حيث هزتهما الفضيحة تلو الفضيحة فيما زعماؤها يتصرفون كسياسيين لا كجواسيس، وكلاهما يتحمل وزر ما فعله فعنونو الذي جعل بيريز يحوله من خائن إلى رمز من رموز الظلم الإسرائيلي.

في عام ١٩٧٦ بدأ فعنونو عمله كفني في مفاعل ديمونة في النقب. وكل من يتوظف هناك يمر في اختبارات أمنية صارمة من قبل الشين بيت ويطلب منهم التوقيع على تعهد أمني لا يقل صرامة عن ذلك، وكان من يشتبه بعدائه للدولة لا يوظف ولم يكن فعنونو كذلك عندما بدأ العمل. الذي حدث أنه في عام ١٩٨٢ أصبح طالباً في جامعة بن غوريون

ورضي أن يعيش الحياة بدورين: كفني ذي مستوى منخفض في أكثر المؤسسات تكتماً وسرية ليلاً، ثم نجده في النهار يتحول بمعجزة إلى طالب جامعة راديكالي من الدرجة الأولى.

وكغيره من خارج تجربته اعتنق فعنونو مبدأً متطرفاً استطاع أن يستوعبه ويفهمه فأسس على إثر ذلك حركة طلابية يسارية في الجامعة اسمها «كامبس»، ومثّل إسرائيل عام ١٩٨٤ في أحد المؤتمرات في باريس، بعد ذلك عزل نفسه عن مجتمع الشباب اليهودي المحافظ في الجامعة وأصبح أصدقاؤه جميعاً من العرب.

واستمر فعنونو بتحدي قدرة إدارة الجامعة على التسامح. وتولى دوراً رئيسياً في الدفاع عن معتقلين عرب لأنهم أحضروا دعاية لمنظمة التحرير إلى الجامعة، ثم انتخب عضواً في تنظيم الطلاب اليساريين / العرب، وظهرت له صورة في الصحف التقطت له وهو يشارك في تظاهرة طلابية عربية من أجل إنشاء دولة فلسطينية.

قد يرى القارىء أن مثل هذه النشاطات تدخل في باب الحرية الشخصية وحقوق المواطن في ظل الديمقراطية، لذا أرجو أن تفهموا أن القليل القليل من اليهود من يشاركون في مظاهرة من أجل دولة فلسطينية ومن يفعل يكون عادةً عضواً في تجمعات أكاديمية أو فنية، وهؤلاء لا يرغبون العمل في مصنع قنابل ذرية ولا يرغب بهم هناك. ومع ذلك ظل نظر الشين بيت عاجزاً عن نشاطات فعنونو في أول سنتين من نشاطه الراديكالي بالرغم من أن الجامعة كانت مليئة بمخبري الشين بيت. والذي يثير الدهشة أكثر أن فعنونو حضر لقاءات لزعماء الحزب الشيوعي الذي تخترقه الشين بيت بشكل كبير، لكن أحداً لم يحرك ساكناً. بالمختصر نقول إن الشين بيت مذنبة لقصورها غير العادي عن ملاحظة فعنونو وما كان يقوم به.

ويقع اللوم أيضاً على رجال أمن المفاعل الذري، ففي عام ١٩٨٣ طار فعنونو إلى الولايات المتحدة وأُمر أن يسافر في رحلة مباشرة خوفاً من عمليات الاختطاف، لكنه تجاهل هذا التحذير الأمني الأساسي وطار إلى شانون في إيرلندا ثم إلى الولايات المتحدة.

وبالرغم من تراكم التقارير حول نشاطاته الراديكالية وتغيير برنامج رحلته إلا أن رجال الأمن التابعين لديمونة سمحوا له بالبقاء في وظيفته بشرط أن يترك النشاطات الطلابية المتطرفة. ومع ذلك وفي كانون أول ١٩٨٤ رشح فعنونو نفسه لإعادة انتخابية كزعيم للمنظمة اليسارية التي أنشأها في الجامعة. أمسكه أمن ديمونة وحقق معه وعذبه وكان عليهم أن يدركوا وقتها بأن فعنونو خطر كبير لا يمكن الصبر عليه ومع ذلك لم يرفع فيه أي تقرير إلى الشين بيت.

كان بإمكان الشين بيت أن تحصل على فعنونو على طبق من الفضة عندما عرض نفسه للعمل كعميل للأجهزة الأمنية إلا أنّه رُفض لخلفيته ونشاطاته، ولكنهم رأوا فيه شخصاً مناسباً للعمل في أكثر مؤسسات الدولة سريةً وحساسية.

إن السرية حول موقع مفاعل ديمونة من أخطر الأمور، ولا ينصح أحد بمحاولة عبور شبكة الأسلاك الشائكة والكلاب والحراس وحقول الألغام. وهناك صواريخ هوك وشبّاريل لحماية الموقع من الهجمات الجوية بالاشتراك مع سلاح الجو الذي يربض له عدد من الطائرات يعادل ضعف عدد آخر يحوم في الجو حول موقع ديمونة. وفي إحدى الحوادث أسقطت طائرة ركاب ليبية قتل فيها أكثر من مئة مسافر، وفي أخرى أسقطت طائرة نفاثة إسرائيلية تابعة لسلاح الجو لأنها كانت تطير في مكان قريب من الموقع.

لهذه المخاوف ما يبررها فقد هدد الإرهابيون بإسقاط طائرة ركاب داخل إسرائيل ولو فعلوا ذلك فوق ديمونة لأصبحت تشيرنوبل رقم ٢ حيث سينتشر الإشعاع عبر الدولة اليهودية الضيقة. ولنفس السبب فإن أي قنبلة تنفجر داخل المحطة قد يكون لها آثار مدمرة، وفعنونو هو المرشح الرئيسي لزرعها. ومع ذلك استطاع هذا الطالب المتطرف المتهور التسلل عبر جميع وسائل الحماية حول ديمونة.

لحسن الحظ لم يكن فعنونو مسلحاً إلا بكاميرا، لكنه استطاع التقاط ٥٧ صورة تفصل الأعمال الداخلية لمصنع القنبلة. ومع أنه كان ممنوعاً من دخول مناطق السرية التامة حيث تجمّع القنابل، فقد اكتشف بأن المشرف كان قد ترك المفتاح على أحد الرفوف المكشوفة عندما غادر العمل ولم يكن أحد يحرس تلك المنطقة الحساسة في الليل. استطاع فعنونو

LAU LIBRARY BEIRUT

أن يصور مختبرات تجمع القنبلة وكان بإمكانه أن يسرق قنبلة نووية ويخرجها من المحطة لو أراد أن يجعل الأمة بكاملها رهائن ويطالب بالفدية.

في عام ١٩٨٥ أدى سلوك فعنونو إلى تحويله إلى أحد ضحايا تخفيضات الموازنة الحكومية. وطرد من عمله ولكنه لم يعزُ ذلك إلى اتجاهاته الميالة للعرب بل إلى التمييز الحاصل ضد السفارديم (اليهود الشرقيين). وما كان منه إلا أن حمل قضيته إلى نقابة موظفي المحطة وأعيد تعيينه من جديد. وعلى القارىء أن يتخيل بلداً يتحدى المنطق الطبيعي ويجعل مركز الأسرار الذرية تحت رحمة قرارات النقابة.

بدا الأمر وكأن وظيفة فعنونو أصبحت آمنة بغض النظر عما يفعله. وفي عام ١٩٨٥ رفع علم منظمة التحرير في أحد سباقات السيارات. وكان هذا التصرف كافياً بالنسبة لديمونة أن تتخذ قرارها الفاصل بطرده. ومع معرفة الجميع للأسرار التي يحملها من عمله هناك إلا أنه سمح له بالسفر من إسرائيل عام ١٩٨٦.

هنا ينتهي دور الشين بيت ويبدأ عمل الموساد. التقى فعنونو بفنان عادي يسمى أوسكار غويريرو ادعى بأنه يعمل صحفياً في أستراليا، وأقنعه هذا الشخص ببيع قصته بأفضل سعر يعرض عليه. وعين فعنونو هذا الرجل كوكيل له وسلمه ١٢ صورة من صور ديمونة ليحصل بها على صفقة، لكن غيريرو طمع في أن يحصل على صفقة خاصة به من طرفين فاتصل بالقنصلية الإسرائيلية في سيدني ليبلغ عن خائن وكان في نفس الوقت يفاوض مجلة نيوزويك على بيع قصة الخائن.

وأبلغت القنصلية الموساد بهذا الأمر والتي أكدت بدورها على أن فعنونو كان موظفاً في ديمونة ولكنها لم تذكر شيئاً يتعلق بنشاطاته اليسارية. وأظهرت في البداية لا مبالاة، ولكنها غيرت رأيها في النهاية عندما عرض غيوريرو أربع صور من صور فعنونو على القنصلية، وأخيراً اقتنعت الموساد وأرسلت على جناح السرعة سبعة عملاء إلى سيدني ليتولوا أمر هذه الكارثة الأمنية وهي في مهدها فقط.

كانت تلك اللحظة هي اللحظة المناسبة لقصف البرعم قبل أن يزهر، وذلك أن فعنونو

لم يكن قد فتح فمه بكلمة لأي مخبر صحفي راغب في نشر القصة ولو حصل واختفى ذلك الصحفي لكان الأوان قد فات. لكن عملاء الموساد لم يتلقوا أي تعليمات لأن مديرهم المتلكىء انتظر أسبوعاً كاملاً قبل أن يبلغ بيريز. عندها كانت قصة فعنونو في يد جريدة صنداي تايمز.

كان بيريز يدرك أكثر من الجميع مدى خطورة أن يقوم فعنونو على ما عزم عليه. فبيريز هو مهندس ديمونة وله اليد الطولى في كتمان أسرار نشاطاته. ولو عدنا إلى الوراء حتى منتصف الخمسينات لوجدنا أن بيريز هو الذي تفاوض مع الفرنسيين لبناء المفاعل وهو الذي أسس مكتب الارتباط العلمي (الذي اشتهر في قضية بولارد) بهدف تأمين المفاعل بالوقود والمعلومات. وبيريز أيضاً هو الذي بدأ سياسة التغطية حتى أنه في البداية لم يخبر الأجهزة الأمنية في البلاد عن الهدف الحقيقي لديمونة.

LAU LIBRARY
BEIRUT

إن عمل بيريز في كتمان أمر مفاعل ديمونة هو النقطة البيضاء الوحيدة في سجله الأسود من الخداع عبر سنين حياته المهنية الطويلة. ولو علم العرب أن إسرائيل تملك ترسانة أسلحة نووية لكانوا طالبوا بالحماية والتي كانوا سيحصلون عليها من الاتحاد السوفييتي ومن الصين. لم تكن إسرائيل مهتمة بسباق نووي في الشرق الأوسط، وقد سبق بيريز غيره في إنكار وجود إمكانيات نووية في إسرائيل عندما أطلق كذبته المشهورة «لن تكون إسرائيل هي البادئة في إدخال الأسلحة النووية إلى الشرق الأوسط» وهي الكذبة التي رددها جميع رؤساء الحكومة بعده، وهكذا فإن فعنونو بفعلته كان سيكشف كل ما حملته السنوات الطويلة من خداع وكذبات سمجة مما كان سيسبب على الأقل إحراجاً شديداً لإسرائيل. وعلى الأسوأ كان سيأخذ الصور إلى أقرب سفارة عربية أو سوفياتية ويعرض المفاعل كله إلى الخطر.

إن إسرائيل إذا ما تعرض أمنها للخطر وفي أمور العمليات السرية بشكل عام، لا يبقى فيها شيء اسمه ديمقراطية أو كنيست أو حقوق مواطنة، هناك فقط رئيس الوزراء ومن يختارهم للقيام بشيء حيال القضية المطروحة. وهؤلاء الأشخاص المنتخبون ينتمون إلى ما يسمى بنادي رئيس الوزراء. وفي قضية فعنونو استشار بيريز كلاً من رابين وشامير، وربما اختار شامير ليشاركه الفشل إذا ما وقع.

يقول لوريس توسكانو صاحب المؤلف الممتاز حول قضية فعنونو والمسمى «الصليب الثلاثي» يقول إن شامير اقترح قتل فعنونو ولكن بيريز رفض ذلك الحل وانتهى لقاؤهما الأول بدون تحديد المسار الذي يجب يتبعوه بذلك أعطوا فعنونو المزيد من الوقت ليكشف الأسرار أمام الصحافة. قال توسكانو: «في الحقيقة إن حل قضية فعنونو كان من صلاحيات بيريز بدون منازع إن رئيس الوزراء له السلطة الوحيدة على الأجهزة الأمنية، وكان قد اتخذ قراره».

وللمرة الثالثة بعد قضية بولارد وإيران ـ كونترا يتولى بيريز قضية فعنونو ليقرر بذكاء أن لا يفعل شيئاً، معتقداً بذلك أنه برغم أن إسرائيل ستبدو كاذبة، ولكن العرب على الأقل سيفكرون مرتين قبل أن يسببوا أي مشكلة خطيرة لمعرفتهم بقدرات إسرائيل النووية.

وبعد قيامه بهذه الحسبة التي اعتمدها كأساس لسياسته في هذه القضية أمر بيريز بعدم منع فعنونو من اطلاع الناس على قصته وصوره لأنه بعد ذلك سيتم إحضاره إلى إسرائيل رغم أنفه ليحاكم بسريَّة.

وعندما نشرت جريدة صنداي تايمز التفاصيل لم يطلع بيريز أحداً من حكومته على ما كان سيحصل وجهز الرجال من موقع قيادته للعملية في نيويورك. كانت النقطة الحرجة هي ظهور إسرائيل وأجهزتها الأمنية عاجزة ومقصرة فقد ذكرت مجلة نيوزويك في عددها الصادر في تشرين الأول ١٩٨٦: «لقد سميت هذه القضية بأسوأ سقطة أمنية إسرائيلية، مع أن فعنونو لم يخف تعاطفه مع الفلسطينيين فقد سمح له بمغادرة إسرائيل بعد فقدانه لعمله في مفاعل ديمونة الذري وذلك في تشرين الثاني الماضي».

ولم تَسْلم حتى الصحافة اليسارية من الذهول إذ عرفت كيفية التعامل مع هذه القضية، وذلك واضح في افتتاحية صحيفة دافار التي ورد فيها: «إن كان فعنونو قد أراد في الحقيقة أن يقول للشين بيت إنه لم يعد يصلح للعمل في المكان الحساس فقد اختار أكثر الطرق خداعاً وهي الإعلان عن مواقفه بكل وسيلة ممكنة، ألم يشاهد أولئك المسؤولون تلك الإشارات الصاخبة التي كانت ظاهرة للعيان في كل تصرفات فعنونو؟ ولو حصل فإن هذه

هي أكبر التصدعات في الأمن..».

وكتب توسكانو: «لقد أدت هذه القضية إلى توتر علاقات سيء بين الموساد والشين بيت.. لم يعتقد أدموني بأن الشين بيت مخترقة ولكن شارك الجناح اليميني المخاوف بأن شيئاً ما يحصل في الشين بيت». وطالب أدموني بتحقيق يقوم به الأمن العسكري، لكن بيريز المرهف من جهد التغطية والتستر على دوره في صفقة إيران ـ كونترا وقضية بولارد والتغاضي عن فِعلة الشين بيت في مسألة الحافلة رقم ٣٠٠..، بيريز هذا لم يكن يريد أن يكونَ له دور في قضية أخرى تثير غضب الجماهير.

وبرغم الصدمة التي حصلت في إسرائيل إلا أن ما كشفه فعنونو بالكاد أحدث موجة بسيطة من الاهتمام حيث العالم هناك لا يقلق من وجود قدرات نووية إسرائيلية. كان يمكن أن يختفي فعنونو مع قصته من الذاكرة شيئاً فشيئاً مع إشارة بسيطة إلى أنه كاذب دجال لولا أن بيريز قرر أن يختطفه ويعيده إلى إسرائيل.

اتصل بيريز بمارغريت تاتشر وجعلها تضع في حسبانها أن فعنونو قد يغادر البلاد على عجل بطريقة ليست قانونية تماماً. وقبلت تاتشر بوعود بيريز بعملية نظيفة. كان فعنونو متلهفاً لأي امرأة تقبل أن تنام معه فأوقعه ذلك ضحيةً سهلة لعميلة موساد أمريكية المولد أغرته بأن يذهب معها في مشوار قصير إلى روما وهناك اختطف باتجاه إسرائيل.

أثـار اختفاء فعنونو شهية الصحافة من جديد فسُلِّطت الأضواء مجدداً على القضية النووية التي كانت على وشك الاضمحلال والنسيان. وبدأ الناس يفكرون: إن كانت إسرائيل قد بذلت جهداً في اختطاف ذلك الرجل فإنه إذن كان يقول الحقيقة. لم يكن فعنونو قد اشتهر علمه في الخارج حتى أعلنت صنداي تايمز عن اختفائه. بعد ذلك استطاع بيريز أن يورط دولة حليفة أخرى في فضيحة إسرائيلية. فقد طالب البرلمان والإعلام البريطاني بمعرفة إن كان قد حصل على التراب البريطاني أي عمل مخل بالقانون وبموافقة تاتشر. وبما أن هذا قد حصل فعلاً فما كان على مارغريت تاتشر إلا أن تكذب لتحافظ على وظيفتها. وتحولت قصة اختفاء فعنونو إلى قضية أثارت اهتمام الرأي العالمي ملقية التهديدات في وجه رئيسة الوزراء البريطانية. ولم يعد لدى إسرائيل خيار إلا أن تعترف بأن

LAU LIBRARY
BEIRUT

فعنونو كان فعلاً في السجن، ولكن لم يختطف من بريطانيا.

وبقيت قضية فعنـونـو تطارد المسؤولين الإسرائيليين أينما ذهبوا. وقد عانى الرئيس هيرتـزوغ كثيراً، وهو للعلم مدير الاستخبارات العسكرية السابق، وذلك في أثناء زيارته لنيوزيلانـدا زيارةً ودية. وهنـاك تلقاه الصحفيون في ذلك البلد القلق من أمور الأسلحة النووية ـ تلقوه بوابل من الأسئلة حول قضية فعنونو ولم يتركوا فرصةً إلا وطرحوها عليه. وأعاد عليهم هيرتزوغ الكذبة المألوفة: «إن إسرائيل لن تكون البادئة في إدخال الأسلحة النووية إلى الشرق الأوسط». وهذه الجملة كانت قد أصبحت في ذلك الوقت شعاراً كاذباً تردده الأحزاب السياسية في إسرائيل.

بدأت مجموعات من الناس تتحزب حول فعنونو ضد حكومته. وانضم تسعة نواب استراليين إلى ٣٦ عضو برلمان بريطاني يطالبون بمنح فعنونو جائزة نوبل للسلام. لم يحظ فعنـونـو بهذا الشرف ولكن كسب بالفعل جزءا من «جائزة الكسب الحلال» التي يقدمها البرلمان السويدي قبل يوم من إعلان جوائز نوبل، ووقع عشرون عالماً بمن فيهم اثنا عشر ممن حصلوا على جائزة نوبل وفلكي واحد هو كارل ساغان، وقع جميعهم التماساً بالنيابة عن فعنونو مطلقين عليه «الرجل صاحب الضمير».

ولم يأل فعنونو جهداً في إيقاع حكومته في فضائح دبلوماسية حتى أثناء محاكمته فقد اغتنم فرصة وجود قلم في جيبه وكتب على كف يده قصة اختطافه من روما ووضع يده على الزجاج الشفاف ولا ندري سبباً لاستخدام زجاج شفاف في السيارة التي كانت تنقله والتي كانت محاطة بالمصورين والصحفيين، وبهذا عرف العالم بقصته وتعرضت إيطاليا لأزمات الحكومة بسبب فعنونو وتوريط إسرائيل في المشكلة.

سببت رسالة فعنونو ضجة كبرى في إيطاليا ووضعت رئيس وزرائها بيتينو كراسكي في موقف لا يحسد عليه. لو كانت المـوساد قد عملت ما عملته بدون إذن من المسؤولين الإيطاليين فإنها تكون قد خرقت القانون الإيطالي وهذا يتطلب رد فعل رسمي. اتخذت إسرائيل الخطوة المألوفة وهي إخفاء الحقيقة فقد أنكر بيريز أن تكون إسرائيل قد عملت ما

يسيء للسيادة الإيطالية. وبدأت الحكومة الإيطالية [من أجل أن تبرىء نفسها] بتحقيق حاولت فيه أن تخرج من ذلك الموقف المحرج بالادعاء بأن فعنونو كان عميلاً للموساد وليس مجرد سائح بريء.

في القدس نجح القادة الإسرائيليون في حبك خطة لستر تورطهم في تلك الفوضى المخزية والمخطط لها سلفاً. وأمر وزير الدفاع رابين، ولأسباب متعلقة بالأمن القومي ـ أن تكون محاكمة فعنونو سرية وأن تقتصر على تهمة واحدة هي خرق فعنونو للتعهد الأمني الـذي وقعـه عنـد تعيينه. وبذلك كان يجب أن تستثنى الأدلة المتعلقة بصحة معلوماته ومعتقداته ودوافعه. لم يكن هناك مجال للتحقيق في قيام عملاء الموساد بخطف فعنونو أو في إصدار بيريز الأمر لهم بالقيام بذلك حيث إن عملية الخطف لم تكن مهمة في التهم الموجهة إليه.

تحـدى محـامي فعنـونـو قرارات المحكمـة وفـاز باتفـاق أجبـر بيريز على القـدوم للاستجواب. ووصل بيريز إلى المحكمة مسلحاً بأمر من رئيس الوزراء شامير يمنعه من الشهادة إلا بملاحظات عامة فيما يتعلق بالأمن القومي، واستمر محامي فعنونو يحاول لمدة تسعين دقيقة أن يدخل في قضية التجسس وكان كلما دخل في التفاصيل لجأ بيريز إلى «فرمان» شامير ليحميه.

ومـرة أخـرى نجـد بيريز يسيء التصـرف ويستغـل القـانون الإسرائيلي ليتهرب من مسؤولياته. وفشلت الخطة بكاملها. فمع أن الدول العربية أصبحت تعرف بشكل أكثر عن قدرات إسرائيل النووية إلا أنها لم تسعَ إلى الوفاق مع إسرائيل. وبدلاً من ذلك سعت إلى إضافة أسلحة جديدة إلى ترسانتهم كالأسلحة الكيماوية والبيولوجية. وكانت إحدى حجج صدام حسين الرئيسية في الدفاع عن برامجه التسليحية أن تلك الأسلحة تعوض عن القنابل النووية الإسرائيلية. إن لدى ليبيا وسوريا ومصر ويفترض العراق بعد الحرب كذلك برامج تسليح كيماوية وبيولوجية فعالة. والدول العربية تسعى لشراء صواريخ بعيدة المدى لتحمل هذه القذائف. كان فعنونو وكذلك بيريز على خطأ فالكشف عن القدرات النووية الإسرائيلية لم يؤد إلى شرق أوسط أكثر هدوءاً. السلام فقط يؤدي إلى السلام.

LAU LIBRARY BEIRUT

لقد أدت قضايا بولارد وفعنونو والحافلة رقم ٣٠٠ وإيران كونترا وكل تلك الكوارث الأمنية منذ ١٩٨٤، أدت وبنجاح كامل في تحطيم معنويات الأجهزة الاستخبارية والشعب الإسرائيلي الذي يعتمد عليها. كل تلك القضايا المطولة حرفت الانتباه عن القضايا الحيوية مثل الهجرة اليهودية وإصلاح النظام السياسي وإنقاذ الاقتصاد المنهار. ولكن تلك المصائب التي امتدت عبر تلك الفترة القصيرة لم تنته.

• النقود الضائعة في السوق الأمني:

يعتذر يهود الشتات عن الاقتصاد الإسرائيلي المهلهل مدعين بأن البلد ينفق على الدفاع أكثر مما ينفق على المجالات المدنية التي لا يكاد يتبقى لها شيء. إن إسرائيل في الحقيقة تنفق ٦ بليون دولار من موازنتها البالغة ٣٠ بليون دولار على الدفاع، ٢٠٪ منها أي حوالي ٢ بليون دولار تغطيها المساعدات الأمريكية، لكن تكاليف الدفاع تنخفض إلى رقم غير مكشوف للناس إذا ما أدخلنا في المعادلة المعدات القديمة والتي غُنمت في الحروب والتي تباع إلى دول العالم الثالث، وينخفض هذا الرقم أكثر عندما تحسب مبيعات الأسلحة الجديدة التي يصنعها جيش الدفاع الإسرائيلي ويبيعها. إن النسبة الحقيقية للموازنة التي تنفق على الدفاع سرية ولكن تقديرات موثوقاً بها تقول إنها فقط ٧٪ أو بمعنى آخر ما يقارب العبء الذي يتحمله دافع الضرائب الأمريكي.

إن صناعات الأسلحة في إسرائيل جزء ضروري من الجهد الذي تبذله إسرائيل من أجل البقاء. إن الأسلحة والتي هي أهم الصادرات الإسرائيلية الآن، مقدمة على الصناعة والسياحة. ولسوء الحظ يبدو أن الإسرائيلي إذا ما اجتمع مع النقود فإنه يفقد كل شيء يسمى الموضوعية وليس مجرد بعض الأخلاقيات الشخصية.

يقول إسرائيل ورانوف وهو مدير للتسويق العسكري إن صناعات إسرائيل العسكرية تحطم بعضها بعضاً بدون أخلاق وقوانين وأعراف وكل ذلك من أجل أن تحفر مكاناً لأسلحتها المتشابهة في السوق العالمي. ومن الوسائل المتبعة تشويه سمعة المنافسين وتخفيض الأسعار بشكل غير معقول فتؤدي هذه التخفيضات إلى خسارات للشركات. وقد حاولت وزارة الدفاع أن تغطي على هذه الصراعات الداخلية بدون أن تحقق أي نجاح ثم

من هي وزارة الدفاع حتى تتحدث عن الإنفاق الهادىء للمساعدات الشعبية والخارجية بعد فضيحة لافي؟

في أيام الصيف الحارة من عام ١٩٨٧ انفجر نزاع شعبي حاد حول بناء أو إلغاء طائرة مقاتلة نفاثة تسمى لافي (وتعني بالعبرية الشبل ابن الأسد، وهو للعلم حيوان لا يرتفع عن الأرض كثيراً). ولم يكن قد حدث أبداً فتح نقاش حول قضية أمنية بهذه الصراحة والانفتاح على الناس.

كانت إسرائيل قبل ذلك قد نجحت في بناء مقاتلة خط ثان هي طائرة كفير. والفضل طبعاً يعود لمهندس سويسري سرق مخططات طائرة ميراج الفرنسية وسلمها لسلاح الجو الإسرائيلي. وأصبح سلاح الجو مزهواً بطائرته لدرجة أنه تقدم إلى وزير الدفاع شمعون بيريز بطلب لكي يصنع طائرة كفير سوبر، سميت فيما بعد لافي. ورفض بيريز الطلب لكن قائد سلاح الجو ديفيد عِفري تقدم بطلب آخر إلى وزير دفاع آخر هو عيزر وايزمان والذي كان قائداً سابقاً لسلاح الجو فوافق وايزمان ودفع بالطلب إلى مجلس الوزراء من أجل إقراره.

بعد عدة أشهر استقال وايزمان وتولى مناحيم بيغن وزارة الدفاع مع احتفاظه برئاسة الحكومة وصعّد عِفري من عزمه حتى حصل على موافقة مجلس الوزراء ولكن الطائرة التي وافق عليها المجلس لا تفي بالحاجات المستقبلية في نظر سلاح الجو الذي كان يريد طائرة مقاتلة خط أول. اعترف عِفري بأن الطائرة الجديدة ستكلف ٢ بليون دولار إضافية وسيكون عددها بالتالي أقل، ولكن بيغن وافق على التعديل بدون استشارة مجلس الوزراء، أو بالتحديد، كانت موازنة إسرائيل الدفاعية تبلغ ٧ بليون دولار فوافق بيغن على زيادة ٢ بليون بدون الرجوع إلى الحكومة.

لم تكن هناك دراسة رسمية لجدوى المشروع إلا بعد اتخاذ القرار، وقدّر هذا البحث الذي تقرر أساساً كنوع من رفع العتب قدّر تكاليف بناء الطائرة الجديدة عبر الخمسة عشر عاماً بـ ١٢,٣ بليون دولار وهو نفس المبلغ الذي يكلفهم لو اشتروا طائرات إف ـ ١٦ الأمريكية. وجزءٌ من هذا المبلغ ٢,٣ بليون دولار كان سيرصد للدراسة والتطوير في بداية

LAU LIBRARY BEIRUT

المشروع. وأشارت الدراسة أنه بما أن المبلغ المدفوع هو نفس الشيء فإن إنفاق النقود على طائرة لافي أفضل لأنها تدعم الاقتصاد الإسرائيلي. عندئذ لم تكن القضية قضية إدخال طائرة أفضل إلى سلاح الجو ولكنها مشكلة البطالة والتشغيل.

لم تكن مشكلة البطالة مشكلة بسيطة منذ عام ١٩٨١ وحتى الآن. وكانت المخاوف من البطالة في أوجها في بداية الثمانينات حين بدأ العاطلون عن العمل من الإسرائيليين بترك البلاد بشكل جماعي وفي الحقيقة أن الذين كانوا يغادرون البلاد أكثر من المهاجرين الجدد إلى إسرائيل والذين حلوا مكانهم. وإلى جانب كابوس ارتفاع نسبة المواليد العربية التي كانت تهدد البلاد. كان هناك مهندسون كلّف تدريبهم غالياً ولو سافروا لأخذوا مهاراتهم المكتسبة محلياً معهم لتستفيد منها البلاد الأخرى. كانت طائرة لافي ستشغل الافاً من هؤلاء المهندسين والمصممين وبالتالي تحد من الهجرة المعاكسة.

بقيت هناك في طريق المشروع عقبة كؤود وهي الموافقة الأمريكية. فالأمريكيون لن يهتزوا طرباً وهم يرون إسرائيل تصنع طائرة تنافس إف ـ ١٦، كما لم يهتزوا طرباً عندما صنعت إسرائيل طائرة كفير التي نافست طائراتهم في السوق بسعر أقل. لقد قام الأمريكان وقتها بالوقوف أمام مبيع تلك الطائرة إلى الأكوادور وتايوان باستخدام الضغط الدبلوماسي. وبالتالي فقد كانوا غير مستعدين للموافقة على منافس جديد.

وهنا جاء دور موشيه أرينز وهو من المساندين لمشروع لافي منذ عام ١٩٧٧ حين كان رئيساً للجنة الشؤون الخارجية في الكنيست. أصبح أرينز في تلك الأيام سفيراً لإسرائيل في واشنطن فتقدم بطلب إلى الأمريكان يسمح باستبدال مبلغ ١٥٠ مليون دولار بالشيكل وذلك من أجل إنفاقه على مشروع لافي، ورفض الأمريكيون الطلب مبدئياً ولكن أرينز زرع بذلك بذوراً جيدة. وبحلول تشرين ثاني ١٩٨٣ بعد فترة بسيطة من تسلمه لوزارة الدفاع وافقت أمريكا على أن ينفق مبلغ ٣٣٠ مليون دولار على الطائرة.

وكانت تلك الموافقة ما تمخض عنه نقاش حاد في واشنطن التي لم تكن قد سمحت قبل ذلك بأن تنفق المساعدة العسكرية الأمريكية إلا فيما يخدم أمريكا.

LAU LIBRARY BEIRUT

وهكذا أصبح مبلغ الـ ٣٣٠ مليون دولار في يد أرينز،أضاف إليها ما استطاع أن يقتطعه من موازنة وزارته. فبدأ العمل في صناعة لافي بكل جدية. وتم توظيف آلاف المهندسين وبدأت المصانع تتجهز لقطف الثمار الهندسية. لقد التزم جزء كبير من الاقتصاد الإسرائيلي بإتمام العمل في الطائرة، وأصبح اسم أرينز مرتبطاً بها وهذا هو سبب قيادته المعركة في سبيل الدفاع عنها عندما طالب الأمريكان المتخوفون مما عملوه بإلغاء المشروع رسمياً. وانضم الإسرائيليون المعارضون لأسباب سياسية أو اقتصادية إلى ذلك الشجار الحاصل حولها، وكان من هؤلاء محافظ البنك المركزي الإسرائيلي الذي قدم مذكرة للحكومة توضح اعتراضاته ويدعي فيها أن لافي كانت تتعدى بشكل كبير على موازنات برامج عسكرية أكثر إلحاحاً. وهي بذلك تأكل الموازنة العسكرية. وقال إن تلك الاقتطاعات من موازنة الجيش تؤثر على جاهزيته وكل ذلك باسم طائرة لا أحد يضمن نجاحها. ولتعويض الخسائر فإن الضرائب سوف ترتفع.

ومهما عالج مشروع لافي من مشكلة البطالة فإن ذلك سوف يبطل مفعوله بنقص القدرة الشعبية على الإنفاق. وهناك أيضاً اعتراضات أثارها خبراء عسكريون، فبما أن محرك لافي ومعظم قطع الغيار هي أمريكية، فلن تكون الطائرة قادرة على تجنب حظر في المستقبل. وأنه بنفس الدرجة من الحكمة يمكن أن يتم شراء طائرات إف ـ ١٦ المضمونة ويضاف إليها ما توصل إليه علم الطيران الإسرائيلي.

كانت وجهات النظر تلك ذات قيمة لا ننكرها ولكنها تغاضت عن نقطتين رئيسيتين: أن حوالي ١,٥ بليون دولار قد استثمر حتى ذلك الوقت في مشروع لافي وإن تجربة الطائرة الأولى كانت رائعة. وكان وقف ذلك المشروع في منتصف الطريق كان سيزعج حياة الآلاف (بل وعشرات الآلاف حسب بعض التقديرات) من الموظفين المرتبطين بالمشروع. كانت المصانع ستقفل وأفضل المهندسين سيعودون بلا عمل ويتوجه الكثير منهم بالتالي إلى الخارج بحثاً عن عمل.

في النهاية طرح الموضوع على تصويت وزاري. وبما أن المشروع كان ليكودياً وكانت الانتخابات مقررة بعد سنة، فقد قرر حزب العمل أن يعارضه، ويكون بذلك قد وجه طعنة

انتخابية إلى الليكود.

أيدت عضو في الكنيست من حزب العمل ـ هي شوشانا أربيلي الموزلينو ـ وساندت المشروع وذلك لاعتبارات تتعلق بالبطالة والتشغيل ـ وقبل تصويت مجلس الوزراء أحاط بها قادة حزب العمل في محاولة لإقناعها بتغيير رأيها. قاومت الموزلينو في البداية وقالت: «لا تستطيعون الضغط عليّ عند اللحظة الأخيرة». ولكن بيريز لم يكن ليسمح لها «أن تحقق لليكود نصراً»، وضغط عليها بصورة أو بأخرى. وغادرت الاجتماع أخيراً وعيونها تفيض بالدمع وبالتالي لم تصوت. وكانت نتيجة التصويت إلغاء مشروع طائرة لافي بنسبة ١٢ ـ ١١ والفضل يعود لتغييرها رأيها في اللحظة الأخيرة. والفضل أيضاً يعود لأسلوب تعامل الحكومة مع القضية برمتها فقد طرد آلاف الأشخاص من أعمالهم وترك مئات المهندسين البلاد. أما مبلغ ١,٥ بليون دولار ومعظمها أموال عامة فقد اشترت فيلاً أبيض وحيداً لا يصلح للقتال.

● فضيحة دوتان:

ظهرت تقارير تتحدث عن سوء استغلال الأموال الموجهة للنواحي الأمنية، ففي إحدى القضايا الثابتة التي أثارت السخط، قامت وزارة الدفاع بإرسال موظفين غير مؤهلين في رحلات خارج البلاد كمكافأة لإخلاصهم للبيروقراطية. هناك تقارير تقول إن هناك جواً من تضييع الأموال والطمع في صفقات بيع الأسلحة ولكن أسوأها هي فضيحة دوتان عام ١٩٩٠.

في تشرين أول ١٩٩٠ خاض الإسرائيليون غمار فضيحة أمنية أخرى، فقد اعتقل اللواء رامي دوتان مدير قسم التزوير في سلاح الجو الإسرائيلي وذلك بتهمة الرشوة والاختلاس والنصب والتآمر لارتكاب جريمة (قتل). وكان من المتوقع أن يجر معه حوالي دزينة من كبار موظفي وزارة الدفاع ومن مرتب سلاح الجو.

بدأت جرائم دوتان منذ منتصف الثمانينات عندما عُين في نيويورك كضابط مشتريات لسلاح الجو. وبالتنسيق مع يورام إنغبير، وهو صاحب شركة هندسية، كان يتفق مع

الشركات على أن يشتري معدات منهما مقابل مبالغ هائلة من النقود بشرط أن تقوم هذه الشركات بعمليات شراء بسيطة لشركة إنغبير. وللتغطية على الرشاوي هذه أسس دوتان وإنغبير شركات «دمى» لتصريف الأموال التي تصلهم من تحت الطاولة.

بدأت هذه الشركات الجديدة تلعب دوراً ثانوياً ولكنه مربح جداً، فكان دوتان بصفته مدير مكتب المشتريات التابع لسلاح الجو يطلب بضائع من شركات وهمية لا تصل أبداً بالطبع إلا على الورق. ثم يتم التوقيع على استلام الطلبية، ولم يلاحظ أحدٌ في سلاح الجو أن ما قيمته ملايين الدولارات من المعدات تطلب ولا تصل.

إستطاع دوتان أن يسرق بهذه الطريقة ١٢ مليون دولار وكان يبني إمبراطورية من الشركات الوهمية التي كانت تستثمر النقود في بنوك سويسرية. لقد كانت الأمور رائعة وتسير على ما يرام بالنسبة له وكانت ستظل كذلك للأبد لولا أن أوفير بائيل المحاسب لدى دوتان في مكتب نيويورك لفترة من الوقت ترك بعدها منصبه ليعمل بشكل خاص كمندوب لشركات الأسلحة الأمريكية في سلاح الجو الإسرائيلي. تقول جريدة معاريف إن دوتان حرم بائيل من الأرباح التي كانت يحققها فقرر بائيل أن يفضح أمره، فما كان منه إلا أن بعث رسالة إلى جيش الدفاع الإسرائيلي يكشف فيها تفاصيل جرائم دوتان وذلك في ربيع ١٩٨٩. وكان أن نتج عن هذه الرسالة تشكيل لجنة تحقيق اجتمعت مرتين: في المرة الأولى لم يستدع دوتان ولا حتى كشاهد، وفي المرة الثانية كذب هو وشركاؤه في الجريمة على اللجنة. وارتكب قائد سلاح الجو بن نون أحد الأخطار الإدارية الكبيرة بإرساله نسخة من تقرير اللجنة إلى دوتان مما ساعده على تحضير شهادته. وقد وبخ بن نون فيما بعد على «خطئه في الاجتهاد».

توصل دوتان إلى نتيجة مفادها أن الذي يقف بين افتضاح أمره وتراكم ثروته هو بائيل لذا استأجر الضابط ياكوف فرانك لإسكات بائيل مقابل ٥٠,٠٠٠ دولار. كان فرانك مسؤولاً عن موازنة قسم الحركة في سلاح الجو ومن الواضح أنه كان مطلعاً على خطط دوتان. والشيء المؤكد هو أن ٥٠,٠٠٠ دولار كانت ستدفع بحياته إلى الأمام فَقَبِلَ تلك المهمة الضاربة.

LAU LIBRARY BEIRUT

بالنسبة لفرانك فقد رضي بالتعاون مع دوتان، أما غيره وهو ضابط في سلاح الجو لا زال اسمه مجهولاً فقد اكتشف ألاعيب دوتان عام ١٩٨٦ ولكن تعرض لتهديد أجبره على الهجرة من إسرائيل.

ألقيت ظلال الشك على أساليب دوتان عندما تزوج مطلقة أعز أصدقائه. ألمحت تقارير صحفية إلى أنه أجبر صديقه على تطليق زوجته بعد محاولة قتل مزعومة. وعندما كان يحقق معه فيما بعد اشترط دوتان أن تبقى زوجته بعيدة عن أي إتهام بأي جريمة كشرط أساسي لتعاونه واعترافه، وسيظل سر حمايته لها مجهولاً إلى الأبد.

وبعد التحقيقين الأولين اللذين برآ ساحته بدأ دوتان ينفذ جرائمه على مستوى أعلى وبأسلوب جديد. ولم يتم التحقيق معه من قبل الشرطة حتى قدّم أحد الغرباء الساخطين عليه دليلاً يدينه في آب ١٩٩٠.

أما دزينة الضباط الذين كان يتوقع أن ترد أسماؤهم في قضية التآمر والاختلاس فلم يظهر منهم إلا إثنان ولكنهما بارزان. الأول كان العقيد إسحق سار قائد فرع الإمدادات والتموين في سلاح الجو الذي تلقى أكثر من ١٠٠,٠٠٠ دولار من دوتان مقابل سكوته، أما الآخر فكان محامياً أمريكيا يهودياً اسمه هارولد كاتس وكان دوره ناقلاً للنقود الحرام. وكان المتابعون لقضية بولارد يعرفون كاتس هذا حيث إن بولارد استخدم بيته لكتابة وثائق سرية. وكان متهماً أيضاً من قبل وزارة العدل الأمريكية كوسيط مالي لبولارد. اعتقل كاتس وهو يهم بمغادرة إسرائيل وكان أول من أودع السجن. أما دوتان فكان في المستشفى كرجل بريء ولكن غرفته كانت مليئة بإجهزة التنصت وما إن غادر مشفاه حتى كانت اللعبة قد انتهت.

وساوم دوتان على أن يحكم مدة ١٣ سنة مقابل كشفه الكامل لعملياته ولإعادته النقود التي اختلسها إلى سلاح الجو. ولم يكن جميع الضباط سعيدين بهذا الحكم المخفف. واقترح بيني بيليد أن يترك دوتان وحده في غرفة مع بندقية معبأة بينما كان عيزر وايزمان أرحم عندما قال بأنه يجب أن يطلى بالقطران ويزرع الريش على جسمه.

LAU LIBRARY BEIRUT

ليس هناك من شك أن نظام المراقبة في سلاح الجو كان منهاراً حتى أن سمح لدوتان باختلاس الأموال طيلة خمس سنوات وأكثر. ويقول رئيس سابق لبعثة وزارة الدفاع في نيويورك إن نظام المشتريات في سلاح الجو عقيم إذا ما قورن بالأساليب التي تتخذها الأسلحة الأخرى لتأمين مشترياتها. المهم هنا هو التحكم بالتكاليف وليس الأمانة.

وقام أحد كبار ضباط جيش الدفاع الإسرائيلي باستغلال البيروقراطية الخرقاء في الجيش لمصلحته الخاصة التي استفاد منها الكثير ـ ولكن مؤقتاً. وهناك تقارير أخرى عن ضباط تلقوا أموالاً من شركات وبعضهم كان يأخذ الرشوة مقابل إعفاء الجنود من خدمة الاحتياط. إن الشعب الإسرائيلي ينتظر من الجيش معياراً مغايراً لمعيار السياسيين ويكون ملتزماً به. في العقد الماضي كانت أموال الأمن تسرق ولا يعرف الشعب مدى الخسائر وذلك بسبب الرقابة العسكرية. ولكن هذه الأسرار التي كشفت حطمت معنويات ٤٠٠,٠٠٠ رجل يؤخذون من بيوتهم وأعمالهم لمدة أربعين يوماً على الأقل ليؤدوا الخدمة الاحتياطية. وعلى أية حال فإن أعداء الشبكة الأمنية الإسرائيلية ظلوا منذ فترة طويلة يحاولون وبكل جهد تحطيم الروح المعنوية وبأساليب ماكرة أخرى.

• قمة جبل الهيكل مغطاة بالدماء:

يبدو أنه قد كتب لسلسلة الأخطاء الأمنية الإسرائيلية أن تصل ذروتها في حادث أهان إسرائيل عالمياً وبشكل شديد. ففي كل سنة منذ عام ١٩٨٣ كانت المصيبة تتبعها مصيبة أكبر في السنة التي تليها، ولم تشأ سنة ١٩٩٠ أن تخرق ذلك التقليد فحملت أكبر كارثة عانت منها إسرائيل منذ سبع سنوات سبقتها أي منذ مذبحة صبرا وشاتيلا. لم يطلق الإسرائيليون النار على الناس في صبرا وشاتيلا ولكن هذا الشيء لا يمكن أن يقال عن اضطرابات جبل الهيكل في تشرين أول عام ١٩٩٠.

ففي ذلك اليوم تجمع ٢٠,٠٠٠ يهودي أمام الحائط الغربي ليحتفلوا بأحد الأيام المقدسة لعيد السكوت. وفوقهم كان حوالي ٤٠٠٠ عربي مجتمعون لتعطيل ذلك الاحتفال باستخدام العنف وعلى أمل أن يثيروا حادثةً عالمية. لقد نجحوا في ذلك بشكل رائع ولكن

الثمن كان ١٩ قتيلاً عربياً، وهو ثمن بسيط مقابل إذلال إسرائيل.

لقد نظمت منظمة التحرير الفلسطينية الحادثة بمهارة وخدمتهم الشرطة الإسرائيلية بحمقٍ واضح. كانت الحجة وراء المظاهرة إشاعة تقول إن منظمة صغيرة تسمى أمناء جبل الهيكل قد خططت لوضع حجر الأساس للهيكل الثالث على الجبل في ذلك العيد. في الحقيقة إن المحكمة العليا كانت قد رفضت التماساً قدمته تلك المنظمة تطلب فيه السماح لها بالاحتفال بوضع حجر الأساس في احتفال خاص وذلك في ٣ تشرين أول، وبعد ذلك بفترة بسيطة أبلغ قائد شرطة جبل الهيكل الأوقاف الإسلامية بقرار المحكمة ذاك. كان قرار منع أمناء جبل الهيكل مفهوماً جيداً بالنسبة للحراس المسلمين ومع ذلك فقد حصل الشغب. لقد كانت الذريعة المتوفرة لهم قوية لدرجة أن القانون الإسرائيلي لم يستطع أن يدحضها.

يقف على قمة الجبل مسجدان: المسجد الأقصى وجامع عمر. وتحتهما تقع أطلال هيكلي سليمان وحيرود "Herod" التي كانت تمثل عاصمة إسرائيل منذ عام ١٢٠٠ ق.م وحتى ٧٠ م عندما هدم الهيكل الثاني. وظل الهيكل العاصمة الروحية لليهود حتى في منفاهم. بمعنى آخر كان ذلك الموقع أقدس مكان للجوييم لمدة ٣٢٠٠ سنة.

وفي عام ٦٣٨ م هاجم المسلمون الذي ظهروا بسرعة مدينة القدس واحتلوها. وأجبر اليهود قسراً على التحول للإسلام. وبحلول عام ٦٥٢ بدأ بناء المسجد على الجبل المقدس. من الواضح أنه كان أمام المسلمين عدة مواقع مناسبة لبناء المسجد وحتى على مسافة بسيطة من الموقع، ولكنهم أصروا على بناء صرح دائم فوق أساسات الفخر والمركزية اليهودية.

تقول الأسطورة الإسلامية أن الغازي عمر بحث عن أعلى مكان في المدينة لبناء مسجد يحمل اسمه وكان هذا المسجد يتجه إلى حفرة نفايات تقع فوق الحائط الغربي. إن هذه القصة لا تكاد تصدق فهناك مناطق أعلى في المدينة بما فيها جبل صهيون، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنه من المستحيل أن يتخذ اليهود المؤمنون أقدس مكان عندهم كمكب للنفايات.

LAU LIBRARY BEIRUT

ولتبرير انتهاك الهيكل اليهودي يخترع المسلمون المزيد من الأساطير. يقولون بأن المسجد الأقصى هو المكان الذي ركب محمد عنده حصانه الأبيض؛ البراق، وصعد إلى السماء. إن القرار لم يذكر نقطة الانطلاق الملائمة تلك. إن القرآن لا يتحدث عن انطلاق النبي في رحلته السماوية من مدينة شمالية. وبغض النظر عن قبولنا لفكرة الحصان الطائر كقصة حقيقية أو كأسطورة فإن هذه قضية مختلفة. إن محمداً، وعلى عكس سليمان، لم يطأ أرضاً على مسافة ٥٠٠ ميل من القدس، وقد وجه أتباعه ليصلوا باتجاه مكة وليس القدس.

ومنذ قيام إسرائيل أصبحت القدس ثالث أقدس مدينة للمسلمين كما تقول أدبياتهم. مع أنها ظلت مهملة لمدة ١٠٤٧ سنة وهي بيد العرب أو الأتراك، وقتها لم تكن شيئاً سوى موقع ريفي لا قيمة له. لم تكن القدس مهد زيارة وحج مثل المدينتين المقدستين الأصليتين المدينة ومكة. وقد كتب عشرات الرحالة ومنهم مارك توين في القرن التاسع عشر عن مدى الحرمان والإهمال التي أصبحت القدس تعاني منه.

ومنذ إعادة توحيد القدس عام ١٩٦٧!، أصبحت المدينة رمزاً سياسياً كبيراً للمسلمين، ولكن تبريرات ديانتهم لإرجاع القدس إلى أيدي المسلمين مبنية على الرمال. وإذا ما طالب علماء الآثار الإسرائيليون بالأذن لاكتشاف بقايا المعبد تصدهم السلطات الإسلامية المصممة على عدم السماح بالحفريات مهما ثبت من معلومات تاريخية.

إن لليهود الحق الكامل بالتنقيب عن تراثهم أو حتى لبناء هيكل جديد إلى جانب المساجد ولو وجدت الإرداة لتحقق كلا الأمرين، لكن إسرائيل قد أجازت ضمناً أن تكون السيطرة على منطقة الجبل بيد المسلمين وذلك لاعتبارات سياسية. . إن الاعتراض العربي لا يستحق ذلك الثمن من الإصرار الوطني على مزاعم ملكية عقارات الهيكل.

كان بإمكان إسرائيل بعد حرب الأيام الستة أن تخرج بسياسة اقتسام الجبل فقد كان العرب ضعافاً منقسمين بحيث لا يقوون على الاحتجاج، ولم يكونوا قد تعلموا بعد استخدام سلاح النفط لتهديد العالم. وعندما جاء عام ١٩٩٠ كان الوقت قد فات. لقد

اتخذ العالم من المزاعم الإسلامية حول موقع الهيكل اليهودي حقائق راسخة. ولن تفوز الجدالات التاريخية في هذه الأيام مهما بلغت دقتها.

إن هذا لم يمنع الكثير من الإسرائيليين من الاستياء والغيظ من الوجود الإسلامي في موقع الهيكل وأن يحلموا باليوم الذي يبنى فيه الهيكل الثالث في مكانه الصحيح. إن العرب مدركون بعمق لهذا الحلم اليهودي ولضعف زعمهم الحقيقي كذلك. وكانت مجرد الشائعة بأن الهيكل يعاد بناؤه سلاحاً فعالاً في يد قادة الانتفاضة، والثرثرة بهذا الموضوع هي خير وسيلة لتحويل الأشخاص المتهورين من المتظاهرين إلى شهداء.

أطلق منظمو الحادثة إشاعة عبر القنوات العادية مثل المساجد والمنشورات. وكانت أجهزة الأمن الإسرائيلية تعلم أنه في يوم الجمعة الذي سبق الحادثة كان المؤذنون وخطباء الجمعة يدعون إلى مظاهرة لمنع إرساء حجر الأساس للهيكل ووزعت المنشورات التي تحث الناس على التظاهر. وكانت تعلم أن النشطاء كانوا يتصلون بالحارات القريبة ليلة أحداث الشغب تلك حاثين الناس على التجمع في جبل الهيكل. ورغم كل هذه الدلائل التي تنذر بالشؤم فإن الإسرائيليين كانوا صماً فلم يفعل مسؤولو الأمن أي شيء لمنع ذلك التجمع يوم الاثنين ٨ تشرين أول ليكون للشين بيت يوم اثنين أسود آخر.

تنقسم القيادة الأمنية الإسرائيلية لجبل الهيكل إلى ثلاثة أقسام: أولها الشرطة المحلية والتي تتعامل مع المشاكل اليومية، ثم جهاز الأمن العام (الشين بيت) الذي يتولى الأمور الاستخبارية جميعها بينما يتعامل قسم حرس الحدود في الشرطة العسكرية مع الاضطرابات الكبيرة. وكانت الاتصالات بين هذه الجهات الثلاث مقطوعة يوم أن أثير الشغب.

والشيء الذي لا يغتفر هو حقيقة أن قوات الأمن تتوقع الإضطرابات قبل وقت طويل من اندلاعها، ففي ٢١ آب عام ١٩٩٠ أصدرت قيادة الشرطة الوطنية الإنذار التالي:

«إن الأعياد اليهودية هي الوقت المفضل لدى المنظمات الإرهابية والمجموعات المحلية لتنظيم هجمات هدفها إيقاع ضحايا كثيرة.. وذلك على افتراض أن هذه الأعياد

توفر فرصاً مناسبة لمهاجمة تجمعات شعبية كبيرة في المواقع المحددة لمثل هذه الاحتفالات... وفي منطقة جبل الهيكل بالتحديد هناك حساسية خاصة.. سببها التجمع الكبير للمصلين. وفي تقديرنا أنّ هناك احتمالاً قوياً لعدد كبير من الهجمات في القدس».

هل هناك أوضح من هذا التحذير؟.. في ٢٣ أيلول، وعلى خلفية احتمال الاضطرابات، عقد اجتماع في مكتب رئيس دائرة المخابرات التابعة للأمن العام. وحسب ما أوردته لجنة تسامير في تقريرها الذي صور بعد المذبحة فإنه: «في هذا الاجتماع كانت احتمالية حدوث شغب في عيد السكوت مرتفعة فالنشاطات العربية في جبل الهيكل كانت قادرة على جعل الموقف ينهار».

بعد يومين اجتمعت لجنة أمن القدس في مكتب مفوض الشرطة، وفي هذا الاجتماع: «وردت تقارير تذكر معلومات متعلقة بأحداث شغب واضطرابات في جبل الهيكل في أيام عيد السكوت..».

LAU LIBRARY BEIRUT

وبقدوم صباح يوم الحادث كانت الشرطة قد دونت أن مكبرات الصوت كانت قد دعت قبل ثلاثة أيام إلى تجمع الشباب وكان الكثيرون يحملون منشورات تدعو لنفس الشيء. وفي ذات ذلك الصباح توقعت صحيفتان حدوث الاضطرابات؛ فقد ذكرت صحيفة يديعوت أحرنوت أن «المجلس الإسلامي الأعلى في القدس والقادة الدينيين في القدس الشرقية قد طالبوا السكان والإرهابيين بالقدوم إلى جبل المعبد ذلك اليوم لحراسة المكان ومنع دخول أمناء جبل الهيكل».

حتى الصحافة كانت تعلم بما سيحدث ومع ذلك فلم يكن في ذلك اليوم الدموي من الحرس إلا ١٣ شرطياً و٤٤ من حرس الحدود ليحرسوا ٢٠,٠٠٠ يهودي مجتمعين في أقدس مكان لهم في أحد أقدس أيامهم.

وكان بإمكان هذه القوة البسيطة أن تكون أكثر فعالية لو قرأت الإشارات الواضحة بشكل صحيح. فقد ظلت الأحجار والقذائف تتجمع لعدة أيام في الموقع وذلك لاستخدامها، وكانت أي عين متدربة قادرة على تمييز تلك الأسلحة. وفي الساعة السادسة

اتخذ العالم من المزاعم الإسلامية حول موقع الهيكل اليهودي حقائق راسخة. ولن تفوز الجدالات التاريخية في هذه الأيام مهما بلغت دقتها.

إن هذا لم يمنع الكثير من الإسرائيليين من الاستياء والغيظ من الوجود الإسلامي في موقع الهيكل وأن يحلموا باليوم الذي يبنى فيه الهيكل الثالث في مكانه الصحيح. إن العرب مدركون بعمق لهذا الحلم اليهودي ولضعف زعمهم الحقيقي كذلك. وكانت مجرد الشائعة بأن الهيكل يعاد بناؤه سلاحاً فعالاً في يد قادة الانتفاضة، والثرثرة بهذا الموضوع هي خير وسيلة لتحويل الأشخاص المتهورين من المتظاهرين إلى شهداء.

أطلق منظمو الحادثة إشاعة عبر القنوات العادية مثل المساجد والمنشورات. وكانت أجهزة الأمن الإسرائيلية تعلم أنه في يوم الجمعة الذي سبق الحادثة كان المؤذنون وخطباء الجمعة يدعون إلى مظاهرة لمنع إرساء حجر الأساس للهيكل ووزعت المنشورات التي تحث الناس على التظاهر. وكانت تعلم أن النشطاء كانوا يتصلون بالحارات القريبة ليلة أحداث الشغب تلك حاثين الناس على التجمع في جبل الهيكل. ورغم كل هذه الدلائل التي تنذر بالشؤم فإن الإسرائيليين كانوا صماً فلم يفعل مسؤولو الأمن أي شيء لمنع ذلك التجمع يوم الاثنين ٨ تشرين أول ليكون للشين بيت يوم اثنين أسود آخر.

تنقسم القيادة الأمنية الإسرائيلية لجبل الهيكل إلى ثلاثة أقسام: أولها الشرطة المحلية والتي تتعامل مع المشاكل اليومية، ثم جهاز الأمن العام (الشين بيت) الذي يتولى الأمور الاستخبارية جميعها بينما يتعامل قسم حرس الحدود في الشرطة العسكرية مع الاضطرابات الكبيرة. وكانت الاتصالات بين هذه الجهات الثلاث مقطوعة يوم أن أثير الشغب.

والشيء الذي لا يغتفر هو حقيقة أن قوات الأمن تتوقع الإضطرابات قبل وقت طويل من اندلاعها، ففي ٢١ آب عام ١٩٩٠ أصدرت قيادة الشرطة الوطنية الإنذار التالي:

«إن الأعياد اليهودية هي الوقت المفضل لدى المنظمات الإرهابية والمجموعات المحلية لتنظيم هجمات هدفها إيقاع ضحايا كثيرة.. وذلك على افتراض أن هذه الأعياد

توفر فرصاً مناسبة لمهاجمة تجمعات شعبية كبيرة في المواقع المحددة لمثل هذه الاحتفالات... وفي منطقة جبل الهيكل بالتحديد هناك حساسية خاصة.. سببها التجمع الكبير للمصلين. وفي تقديرنا أنّ هناك احتمالاً قوياً لعدد كبير من الهجمات في القدس».

هل هناك أوضح من هذا التحذير؟.. في ٢٣ أيلول، وعلى خلفية احتمال الاضطرابات، عقد اجتماع في مكتب رئيس دائرة المخابرات التابعة للأمن العام. وحسب ما أوردته لجنة تسامير في تقريرها الذي صور بعد المذبحة فإنه: «في هذا الاجتماع كانت احتمالية حدوث شغب في عيد السكوت مرتفعة فالنشاطات العربية في جبل الهيكل كانت قادرة على جعل الموقف ينهار».

بعد يومين اجتمعت لجنة أمن القدس في مكتب مفوض الشرطة، وفي هذا الاجتماع: «وردت تقارير تذكر معلومات متعلقة بأحداث شغب واضطرابات في جبل الهيكل في أيام عيد السكوت..».

وبقدوم صباح يوم الحادث كانت الشرطة قد دونت أن مكبرات الصوت كانت قد دعت قبل ثلاثة أيام إلى تجمع الشباب وكان الكثيرون يحملون منشورات تدعو لنفس الشيء. وفي ذات ذلك الصباح توقعت صحيفتان حدوث الاضطرابات؛ فقد ذكرت صحيفة يديعوت أحرنوت أن «المجلس الإسلامي الأعلى في القدس والقادة الدينيين في القدس الشرقية قد طالبوا السكان والإرهابيين بالقدوم إلى جبل المعبد ذلك اليوم لحراسة المكان ومنع دخول أمناء جبل الهيكل».

حتى الصحافة كانت تعلم بما سيحدث ومع ذلك فلم يكن في ذلك اليوم الدموي من الحرس إلا ١٣ شرطياً و٤٤ من حرس الحدود ليحرسوا ٢٠,٠٠٠ يهودي مجتمعين في أقدس مكان لهم في أحد أقدس أيامهم.

وكان بإمكان هذه القوة البسيطة أن تكون أكثر فعالية لو قرأت الإشارات الواضحة بشكل صحيح. فقد ظلت الأحجار والقذائف تتجمع لعدة أيام في الموقع وذلك لاستخدامها، وكانت أي عين متدربة قادرة على تمييز تلك الأسلحة. وفي الساعة السادسة

LAU LIBRARY BEIRUT

من صباح ذلك اليوم تجمع حوالي ٢٠٠ شخص في الموقع. ويعلق تقرير لجنة تسامير على هذه الحقيقة قائلاً: «هذا العدد لا يمكن تفسيره في يوم عادي». وكان معظم الموجودين من الشباب أو السفاحين الصغار الذين لم يعهد عنهم أنهم رواد مساجد مخلصين في أي وقت، ومع ذلك فقد تركوا وحدهم قبل الفجر.

وفي الساعة ١٠ : ٨ صباحاً وصل سيّاح بريئون إلى الجبل ولكنهم طردوا من قبل الشباب واضطروا للانسحاب حمايةً لأنفسهم. وبعد نصف ساعة تجمع أكثر من ٢٠٠٠ عربي أغلبهم من المراهقين في الموقع المحرر من السائحين غير المرغوب فيهم، وبدأوا يرددون هتافات «ذبح اليهود» الوطنية ونقل هذا الخبر إلى قيادة شرطة القدس. ولم يصل هذا التقرير المزعج وأمثاله إلى السلطات المختصة قبل مضي نصف ساعة، وهي الفترة الكافية لمنظمي الشغب المحترفين أن يبدأوا العمل.

وفي الساعة التاسعة تماماً وصل فيصل الحسيني إلى جبل الهيكل لتأمين الخبرة اللازمة لمثل ذلك الأمر.

يصوِّر الإعلام العالمي، وبصورة تدعو للدهشة، الحسيني على أنه أحد المعتدلين الفلسطينيين وأنه من النوعية التي تستطيع إسرائيل التعامل معه بأمان. ورأيي أن كل شيء ما عدا هذا. في الحقيقة أن الحسيني هو رجل الارتباط بين منظمة التحرير والمنطقة الإسرائيلية وإن وصوله كان يجب أن يفهم على أنه نذير شيء خطير يلوح في الأفق.

كانت المخابرات الإسرائيلية مدركة تماماً للتحالف بين منظمة التحرير وصدام حسين وبأن هناك احتمالاً أن تقوم منظمة التحرير بعمل شيء ما يحوّل نظر العالم عن غزو صدام للكويت إلى داخل إسرائيل. ولا زال السماح للحسيني بدخول جبل الهيكل بدون تفسير واضح لغاية الآن. ولكن الأمور تصعّدت بمجرد حضوره.

وفي مدة لا تتجاوز ١٥ دقيقة كانت المدارس العربية المجاورة لجبل الهيكل قد فرغت من طلابها الذين أرسلوا بكل سرعة إلى حمام الدم وشيك الوقوع. وعند الساعة العاشرة بدأت الخطب الاستفزازية وكانت أكوام الحجارة وكذلك السكاكين على أهبة الاستعداد.

LAU LIBRARY BEIRUT

وما أن أصبحت الساعة ٤٥ : ١٠ حتى كان مثيرو الشغب قد اشتعلوا حماساً وقد أحدثت الخطب فيهم آثارها فتسلحوا وهاجموا قوة الشرطة الصغيرة المتواجدة في الجبل ونجحوا في إجبار القسم الرئيسي منهم على التراجع خارج الموقع المسوّر وأغلقوا الأبوابَ خلفهم واحتجزوا شرطيين في الداخل.

ثم تحول الموقف إلى الأخطر، فقد حوّل المشاغبون اهتمامهم إلى المصلين اليهود أسفل منهم، ولأول مرة منذ استرداد! الحائط الغربي عام ١٩٦٧ يهرب اليهود من أقدس مكان لهم، خوفاً من قذائف الحجارة التي انهالت عليهم.

وبغض النظر عما تعنيه هزيمة المصلين اليهود إلا أنه كانت هناك حقيقة أكثر رعباً كان يجب التعامل معها فوراً. فنقطة الشرطة داخل الموقع كانت محروسة بشرطيين فقط وكانت على وشك السقوط بيد المشاغبين، وكان هناك عتاد مكون من ٣٥ مسدساً وثلاثة رشاشات عوزي.

وكذلك فقد كانت الشرطة تتولى مهمتها بدون أي إشراف من قيادتها. وقد وصل مفوض الشرطة بعد ٩٠ دقيقة من تفريق الشغب. ومما لا شك فيه أن الشرطة قد ثار غضبها لما رأت من طرد المحتفلين السعداء من اليهود من مكان الحائط الغربي على يد مجموعة من الرعاع مثيري المشاكل. وعلى أية حال، فعندما اندفع المشاغبون أطلقت الشرطة الغاز المسيل للدموع والرصاص المطاطي وطلقات تحذيرية: وعندما رفض مثيرو الشغب التراجع طامعين بنصر زائل قرر الجنود أن حياتهم في خطر وأطلقوا الذخيرة الحية بزخم كبير فقتلوا ١٩ شخصاً وجرحوا العشرات واضعين إسرائيل بذلك في مواجهة اللوم العالمي.

لقد كان ذلك الحادث برمته خطأً أمنياً جسيماً، ولتأكيد ما ذكرناه نورد مقتطفات مما توصلت إليه لجنة تسامير.

«إن الخطر الذي يواجه المصلين عند الحائط الغربي والحساسية الخاصة لهذا الموقع بأسره كان يجب أن تكون الدافع لمراكز القيادة بأن تأخذ حذرها من أحداث استثنائية كانت

ستحدث، كان يجب أن تتوجه القيادات إلى الجبل.. لاتخاذ الإجراءات اللازمة».

ويستنتج التقرير فشل المخابرات الذي سبق الأحداث قائلاً: «لقد فشل المسؤولون في الأخذ بعين الاعتبار نداءات المؤذنين والخطباء يوم الجمعة الذي سبق الأحداث، والنداءات التي وصلت للحارات القريبة بالتجمع في جبل الهيكل، والمنشورات التي وزعت لهذه الغاية وظواهر أخرى.. لكن الشرطة لم تستطع تجهيز خطط طوارىء».

ويستمر التقرير يسرد من هذه الأمور حتى أصبحت صورة الاستخبارات والقيادة والفشل الميداني صورةً قاتمةً مشوهة، ودفعت إسرائيل الثمن المعتاد لمثل سوء الاستعداد البائس هذا ألا وهو التوبيخ من قبل العالم كله لها. وشيء طبيعي أن تكون إسرائيل قد خسرت هذه المعركة وحتى لو كانت حققت نصراً عسكرياً. وهكذا نجد أن إسرائيل لم تتعلم أصول اللعبة بعد سنوات طويلة من الطعن فيها والافتراء عليها.

يعتبر ضرب المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١ دليلاً واضحاً على سوء التفكير والتدبير. ففي ذلك العام قامت الطائرات النفاثة وبأمر من مناحيم بيغن بضرب آلات صناعة القنبلة النووية التي بيد صدام حسين وذلك في واحدة من أعظم الضربات الجوية في التاريخ. قام سربان من طائرات أف ـ ١٥ وإف ـ ١٦ بالطيران لمسافة ١٦٠٠ ميل فوق أرض العدو ودمرت تلك الأبنية الحصينة ولم تقتل إلا موظفاً واحداً ثم عادت إلى قواعدها سالمة بدون خسارة أي طائرة أو طيار.

وكانت ردة فعل الإعلام العالمي الهجوم على بيغن. ولا نستطيع الجزم إن كان بالإمكان وقتها إقناع وسائل الإعلام برسم صورة صحيحة لتلك المهمة العظيمة، لكن الحكومة على أية حال لم تقم بأي جهد يذكر لإقناعها. ولا ندري إن كانت حكمة بيغن قد اعترف لها بالفضل حتى بعد أن ضرب صدام حسين الأكراد والإيرانيين بالأسلحة الكيماوية. وأخيراً وأثناء حرب الخليج اعترف بعض الصحفيين أن بيغن أنقذ القوات الأمريكية وضحايا الصواريخ الإسرائيليين من حرب نووية.

إن من نتائج عدم الكفاءة الإعلامية الإسرائيلية هو عجزها عن رسم الوجه الحقيقي

LAU LIBRARY BEIRUT

لمنظمة التحرير الفلسطينية. بالمقابل نجد الصحافة البريطانية تتوقع من إسرائيل أن تجلس مع منظمة التحرير لتناقش مستقبل فلسطين ومع ذلك نجد القليل من الناس يقترح أن تجلس الحكومة البريطانية مع الجيش الجمهوري الإيرلندي لتناقش مستقبل إيرلندا الشمالية. إن النفاق واضح مثل البلور ومع ذلك نجد أن بريطانيا قد أمسكت بأطراف اللعبة فعندما يقوم جنودها بعمليات قتل في ألستر لا تقوم الأمم المتحدة بتوبيخهم في الصباح التالي.

إن مأساة جبل الهيكل كانت تدريباً أكثر من أي شيء آخر وإن التوقيت العربي لإثارة القلاقل كان يهدف إلى أقصى درجات المواجهة. وقبل حدوث الاضطرابات بفترة معقولة كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد أعدت قراراً للأمم المتحدة بشجب إسرائيل للهجمات على المقدسات الإسلامية. وبما أنه لم يكن هناك أي مبرر فوري للقرار فعلى المنظمة أن تطبخ واحداً منها.

والأمر تماماً كما وصفه جيرالد م. شتاينبيرغ المحاضر في قسم الدراسات السياسية في جامعة بار إيلان والذي كتب في جريدة جيروسالم بوست ما نصه:

لقد أبلت القيادة الفلسطينية بلاء حسناً في إتمام هذا الحدث الإعلامي حتى الكمال: فقد كانت الأخبار التي نشروها جاهزة قبل أن تنقل الضحايا الأولى إلى المستشفى. وقد أذاعت الشبكات الإخبارية الرئيسية في العالم التقارير العربية عن ظهر قلب. وكانت إذاعة "B.B.C" (لندن) تبلغ مستمعيها في كل العالم في كل ساعة أن العنف بدأ فور أن حاول الإسرائيليون «وضع حجر الأساس للهيكل الثالث في أحد الأماكن الإسلامية المقدسة».

... وبعد ١٢ ساعة عندما أدركت هذه الإذاعة أن الهجمات العربية لم تكن فورية كما أذيع في البداية وأن الاضطرابات قد تكون مخططاً لها من قبل لاستثارة رد فعل شديد من الشرطة، وقتها كان الوقت قد فات.

لقد سمح حمق قادة إسرائيل السياسيين للفلسطينيين دائماً أن يلتفوا من حولهم. ليس هناك من جنرال على قيد الحياة لا يعترف في لحظة صدق أن إسرائيل ترتكب جريمة انتحار

إذا تخلت عن الضفة الغربية للفلسطينيين. إن الخرائط تظهر أن إسرائيل تراجعت إلى حدود لا يمكن الدفاع عنها، ستثبت منظمة التحرير بما سترتكبه من مجازر أنها الجار الذي لا يعتمد عليه، ومع ذلك أيضاً فإن إسرائيل ليس لديها الموهبة أو التنظيم الكافي لتوصيل الرسالةَ إلى العالم بالصورة الصحيحة.

في الجزء الأول من هذا الكتاب تعرَّف القارىء إلى النظام الحكومي المتصدع حتى النخاع حيثُ لا تعيش في تلك الغابة التي صنعتها اليد البشرية إلا الأفاعي، لكن ليس بالضرورة أن يكون النظام السياسي نذير سقوط إسرائيل خصوصا إذا بذل الوقت الكافي لإجباره على تصحيح نفسه عن طريق المواطنين الغائبين.

وعلى أية حال فالوقت في إسرائيل نعمة عزيزة وذلك أن صراع البقاء هو مسألة يومية. هناك النسور تحوم وأسماك القرش تدور في استعداد للهجوم عند أول رائحة دم تظهر. وليس أمام إسرائيل لتعيش الآن إلا أن تبني نظاماً أمنياً قوياً يختلف عن ذلك النظام المتصدع عبر السنوات الأخيرة. كان الرجال الخطأ في الحكومة يخبرون الرجال الخطأ في المؤسسات الدفاعية أن يقوموا بأعمال خطأ وبدون قيود. ولن يكون هناك نهاية لهذه السلسلة من القرارات الخاطئة إذا لم يستلم الحكم رجال موثوقون.

إن إسرائيل تعتمد على أمم قليلة من أجل بقائها. وهذه الأمم المختارة منها القليل في أوروبا وواحدة في أمريكا الشمالية قد اختارت الأخلاقيات الموضوعية على الأخلاقيات النفطية حين قررت أن تقف إلى جانب حليف متجهز للقتال. ولكن إن لم يتصرف هذا الحليف بذكاء وقدرة فإن إسرائيل ستجد نفسها وحيدة.

إن معركة إسرائيل عادلة وأغلب شعبها لطيف وخلوق، وها هي حكومتهم تخذلهم، والأكثر إثارة للقلق هو أن المؤسسات الأمنية تحذو حذو الحكومة فيما تفعله. أما الاقتصاد، فحدث ولا حرج، فإن كان هناك من سيدمر إسرائيل فهو الاقتصاد هذا إذا لم يدرك بالسرعة الممكنة.

معظم الإسرائيليين يعيشون حياة حرمان وقلق وديون. يفترض في الحياة في إسرائيل

أن تكون حياةً ممتعة مجزية. فالناس هناك لهم أيديولوجية يعيشون عليها والجو رائع والسكان مبتهجون بطبعهم والطبيعة جميلة، لكن البيروقراطية المترسخة هناك تمتص الروح من الشعب الشجاع الرائع.

ويتعرض الإسرائيليون للغش باستمرار: فهم يتعرضون له في البنك، وفي السوق وفي دائرة الضريبة وفي العيادة الصحية، وهم يدفعون مبالغ زائدة على كل شيء ولا يحصلون مقابله على شيء إلا إذا استخدموا هم أنفسهم الغش. إن النظام بحد ذاته بغيض مقرف وعدد الناس الذين أصبحوا مقرفين كردة فعل ليس قليلاً. لقد أصبحت الحياة تهرباً من الديون الكثيرة، وتآمراً على المبادىء، وموظفين وقحين في مكاتب مقيتة وتوتراً لا نهاية له في صراع على البقاء.

وفي السنين المعاصرة أخذت قسوة الحياة في إسرائيل منعطفاً عنيفاً إلى الأسوأ. وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب سوف نرى ما هو السبب الحقيقي الذي قد يضحي الإسرائيليون من أجله بكل ما أعطوه للقومية؛ لقد أصبحت حياتهم لا تُحتمل في ظل نظام لا يطاق.

LAU LIBRARY BEIRUT